المختار السوسي

الذاكرة المستعادة



أعمال الندوة التي نظمها اتحاد كتاب المغرب
بتعاون مع المجلس البلدي لمدينة أكادير
أيام 21/22/23 دجنبر 1984

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

كانت الأمم والشعوب ــ وستظل ــ دوماً مدينة لعلمائها ومفكريها ومثقفيها أي لهؤلاء الذين يمثلون صفوتها وطليعتها، بالجهود والعطاءات التي تعود على جميع أفراد الأمة أو الشعب بالفضل العميم والنفع الكثير.

وإذا كانت تأتي على المجتمعات فترات وتمر بها ظروف تحول، أحياناً دون اعتراف أعضائها بفضل هؤلاء المثقفين ــ أو بعضهم ــ وبأياديهم البيضاء وتحملهم على التنكر لجهودهم وجهادهم الفكري والعلمي فإن فئات من تلك المجتمعات تأبى الانصياع لمجريات الظروف القسرية والرضوخ لقيودها وتصر على الإرتباط بعلمائها ومثقفيها عن طريق تكريمهم وإحياء تراثهم وتخليد مآثرهم.

وبناءاً على هذا المبدأ بالذات، نظم اتحاد كتاب المغرب هذه الندوة حول المختار السوسي بتعاون مع المجلس البلدي لمدينة أكادير.

وعلى الرغم من أن الندوة تدخل في سياق التقليد الحميد الذي سنه الاتحاد بالإلتفات إلى الأعلام المغربية والتعريف بهم، فإنها قد حققت غايات خاصة تتصل بهذه الشخصية العلمية التي تجاوز إشعاعها منطقة سوس والجنوب المغربي وامتد ليشمل ويعم مناطق أخرى وخاصة المراكز الحضرية العلمية، بل إن سمعة الرجل العلمية الطيبة تخطت حدود بلاده وانتشرت في ربوع العالمين العربي والإسلامي.

فليس غريبا إذن أن يعنى اتحاد كتاب المغرب بمثل هذه الشخصيات، وهي من أبناء المغرب البررة، وأن ينظم من أجلها حلقات دارسية تتناول حياتها وجهادها العلمي وتاريخها الثقافي.

يضم الكتاب الذي نقدمه اليوم للقارئ، بين دفتيه مجموعة دراسات وأبحاث أنجزها ــ مشكورين ــ أساتذة وباحثون جامعيون، تتناول بالعرض والتحليل جوانب مختلفة من شخصية وحياة وانتاج المرحوم المختار السوسي.

ويمكن القول ــ بشيء من التعسف ــ إنها تدور حول محاور خمسة :

1 ــ محور علمي إيديولوجي : وتمثله دراستا الأستاذين د. علي أومليل وعبد المجيد الصغير.

2 ــ محور تاريخي : وعليه مدار دارستي كل من الأستاذ أحمد التوفيق والأستاذ علي المحمدي.

3 ــ محور عام : تحدث أصحابه عن شخصية عالم سوس وأعماله... وقد استقطب اهتمام الأساتذة : أبو بكر القادري وعلي صدقي وعبد الغني أبو العزم.

4 ــ محور أدبي : وهو جانب عالجته دراستا الأستاذين : محمد خليل وعمر أمرير.

5 ــ محور جغرافي : عني بالخرائط وفهرسة الأماكن التي ورد ذكرها في مؤلفات المختار السوسي، وقد اهتم به الأستاذ عمر آفا، عبر نموذج واحد هو كتاب «المعسول».

ليس من شك في أن هذه المقالات والأبحاث تضع بين يدي القارئ المفاتيح الأولى لدارسة فكر وتراث المختار السوسي وتساعده على استخلاص النتائج من شخصيته وحياته ونضاله العلمي والاجتماعي. بيد أن أهميتها تكمن كذلك في كونها حافزا يدفع إلى قراءة ما كتبه الرجل واكتشاف جوانب أخرى ونتائج جديدة لم يتمكن أصحاب هذه الدراسات من الإلمام بها بسبب ضخامة الدور الذي لعبه المختار على الصعيد العلمي خاصة وتنوع انتاجه الفكري، وبسبب مزايا أخرى تحلى بها هذا العالم واجتمع هؤلاء الباحثون والمثقفون في عاصمة سوس للتنويه بها وللإعراب عن اعتزازهم بصاحبها وتقديرهم للجهود التي بذلها لصالح البلاد والأجيال.

لقد كثر الحديث، منذ عصر مونتسكيو عن السلط الثلاث وعن ضرورة فصلها حتى تستقيم المعاملات وتتحقق شروط الديموقراطية. وتحدث الناس منذ ازدهار الطباعة والنشر ونضج الحياة السياسية عن السلطة الرابعة التي فرضت نفسها على المجتمع من خلال الصحافة والإعلام.

ويمكن القول إن هناك سلطة خامسة وجدت منذ أقدم العصور كانت دائما تعتمل في أحشاء المجتمع، تدفع حركته وتوجه سيره وهي سلطة العلم والعلماء. ويمثل هذه السلطة الأخيرة كثير من أبناء هذا الوطن الأجلاء الذين بذلوا الجهود وقدموا التضحيات من أجل الدفاع عن قيم الانسان الخلقية والاجتماعية ولم يخشوا أي لائمة في قول الحق والحقيقة.

وما المختار السوسي إلا واحد من هذه الصفوة التي اضطلعت بمسؤولية تاريخية وعلمية تقصر عن مطاولتها وتحملها مؤسسات ثقافية واجتماعية توافرت لها من الامكانيات المادية والمعنوية ما لو منح نصفه أو ثلثه لهؤلاء العلماء المخلصين لحققوا المعجزات.

ــ ادريس التاقوري ــ

المختار السوسي
السلطة العلمية والسلطة السياسية

علي أومليل

من هو المختار السوسي ؟ السؤال هذا لا يتعلق بتعريف شخصي عادي، مما تزخر به كتب التراجم والوفيات، بل يتعلق السؤال بالرجل كعلامة ثقافية : هل المختار السوسي ــ وكما يجب هو أن يقدم نفسه ــ مؤرخ ومسجل معا لثقافة العلماء بجهة من جهات المغرب : سوس، أو جزولة، كما يصطلح هو على تسمية هذه الجهة(1) ؟

إن هذا التعريف يحمل في نفسه إشكالا، ولربما غاب هذا الاشكال عن الرجل.

ماهو هذا الاشكال ؟ انه يتعلق بنسبة هذه الثقافة الكتابية ــ ثقافة العلماء ــ إلى المجال الاجتماعي الذي تسعى إلى ضبطه، وهي مع ذلك متعالية عنه.

طبعا، هذا الاشكال عام ينطبق على كل ثقافة كتابية **لمجتمع تغلب عليه الأمية**، وهذا شأن المجتمعات العربية عموما.

لكن الهوة بين الثقافة الكتابية وبين مجتمعها تتفاقم حين يتعلق الأمر ببيئة لغتها الطبيعية غير عربية، كما هو حال بيئة المختار السوسية. في مثل هذا الوضع تضيق قنوات الاتصال بين ثقافة العلماء الكتابية وبين مجتمع الناس. وهنا تجدنا أمام هذه الظاهرة : وهي أن الذين يصلون إلى العلم بالثقافة الكتابية، ابتداء من فك رمزها المكتوب واتقان علومها وآدابها هم **القلة** القليلة. هذه القلة تتميز ــ بل تنفصل ــ

---

(1) مجال هذه الثقافة العالمة هو «سوس»، أو مايطلق عليه المختار السوسي «جزولة» وتتحدد عنده بالاطلس الصغير ومنطقة «الساحل» الاطلسية السوسية. وقد تمتد جزولة عنده لتشمل قبائل من الأطلس الكبير، ودرعة.

بعلمها الكتابي عن مجتمعها غير المعرب. ولكن مجتمعها هذا **يطلب** علمها لحاجات أساسية عنده أهمها حاجته إلى ضبط معاملاته ضبطا كتابيا (خاصة ضبط الملكية والزواج)، ولحاجته الدينية عموما، سيما وأن الدين هنا هو الذي يعطي القيمة والمعنى للاشياء وأمور الحياة.

هذه القلة العالمة هي اذن منفصلة بثقافتها الكتابية عن مجتمعها، ولكنها في نفس الان متصلة به نظرا لحاجة هذا المجتمع إلى علمها الديني ولامتلاكها لاسرار **الكتابة والتوثيق**.

وهنا نكون أمام منطق **النُّدرة** : فالقلة في هذا المجتمع هي التي تستطيع أن تصل إلى «العلم» (أي الكتابي)، ابتداء من فك رمزه المكتوب. وعلمها هذا مطلوب في مجتمع تظل أغلبيته غريبة عنه، بحكم ما سمي ب «العجمة»، ولكنها مع ذلك تطلبه. فهو اذن علم مطلوب، ولكن الذين يملكونه قلة. فهذا «العلم» اذن بضاعة **نادرة**. فتقوم علاقة تبادل بين مجتمع بعيد بلغته (أو بعجمته في اصطلاح أهل العلم الكتابي) عن هذا العلم الكتابي، وهو مع ذلك يطلب هذا العلم لحاجاته التي ذكرنا، وبين قلة هي وحدها المالكة لهذا «العلم»، فهو اذن في يدها بضاعة نادرة، تستعملها في علاقة التبادل المتميزة هذه، ويكون امتلاكها لهذه البضاعة النادرة وسيلة فئة للترقية الاجتماعية(2).

وكل هذا يقتضيه ـــ كما قلنا ـــ منطق ندرة هذه البضاعة المسماة ب«العلم».

هذا العلم ـــ كما يخبرنا صاحب **خلال جزولة** ـــ هو العلم الديني أساسا.

وقد يقال أن هذا كان هو مفهوم «العلم» في بدايات العلم الاسلامي. فقد كان هذا هو معنى «العلم» عند أبرز من اهتم به في نشأته الأولى، وهم جامعو الحديث

---

(2) تبدأ وظيفة «الطالب» (أي الحافظ للقرآن مع بعض الالمام بأمور الدين) بالعمل في الكتّاب القرآني للقرية. وكل قرية في سوس، مهما قل عدد بيوتها لا بد وأن يكون بها كتاب. يقوم بتعليم القرآن وبالارشاد الديني وذلك بتعاقد معروف يسمى ب«المشارطة»، أي مقابل أعشار من المحصول، وبعض نقود، وتتكفل بيوت القرية بطعامه اليومي بالتناوب. أما على مستوى القبيلة فتوجد «المدرسة»، تقوم بتلقين «العلم» (أي الديني وعلوم العربية التي هي مدخل لفهم هذا العلم). والمدرسة أيضا تعيش من أعشار مثمرة، وقد يكون لها أوقاف. وبالمدرسة طلبة مقيمون لتحصيل «العلم» والقيام بأشغال المدرسة وبأعمال الحرث والحصاد وجمع الثمار في أملاكها. ويقوم على تدبير المدرسة فقيه، هو المتصرف في أملاكها، إلى جانب التوثيق والفصل في نوازل أهل القبيلة، وذلك بمقابل، مما يوفر له دخلا ماديا مرموقا بالقياس إلى أهل القبيلة.

ومدونوه. فهل توقف أهل سوس العلماء عند هذا المفهوم ولم يتجاوزوه لتتكون عندهم علوم مستقلة عن مقاصدها الدينية كما حدث في الثقافة العربية عموما ؟ ليس الامر كذلك، فخزانات الكتب في سوس، تدل محتوياتها على أن علماءها كانوا يقرؤون مايقرأه غيرهم من علماء العالم الاسلامي، يدل على ذلك الجرد الذي أثبته المختار السوسي لمحتويات، بعض مكتبات هذه الجهة. ينبغي اذن إيجاد تفسير آخر.

ان العلم في سوس هو أساسا العلم الديني، واللغة العربية مدخل لهذا العلم(3). ولايكفي أن يقال هنا أيضا أن الأمر كان كذلك في بدايات تكوين العلم الإسلامي، حيث نشأت علوم العربية لتكون علوما مساعدة للعلم بالقرآن والحديث والفقه والتفسير، ثم استقلت مباحث العربية، وتميزت آدابها، وأصبحت تطلب لذاتها، فاستقل الاديب واللغوي عن الفقيه والمحدث. فلماذا إذن ظل العالم بسوس هو بالاساس العالم بالدين، وظلت العربية قبل كل شيء تطلب كأداة للعلم الديني ؟ هل لأن «العلم» هنا قد توقف مفهومه عند العلم الديني — كما كان الشأن في بدايات العلم الإسلامي — ولم يتجاوزه، وأن العربية وقفت هي أيضا عند دورها الأول الذي كانت فيه مجرد أداة للعلم الديني ؟ لا ينبغي هنا أن نركن لمثل هذا التفسير.

إن كون العلم بسوس ظل بالاساس هو العلم بالدين، وأن العربية بقيت تطلب هناك بوصفها أولا مدخلا لعلوم الدين ينبغي أن يفسر بطبيعة وجود العلم الديني — العربي اللغة — في بيئة غير معربة.

ذلك أن تعلم «العلم» في مثل هذه البيئة يقتضي أولا تعلم لغة ليست هي لغة القوم، أي اللغة العربية(4). يعني ذلك أن تعلم العربية في هذه البيئة يتطلب من المتعلم الذي هو غير العربي اللسان مجهودا كبيرا، إلى جانب الاستعداد الفردي وضرورة وجود مدارس تعليمها. والقلة هي التي تفلح في ذلك، معناه أن اتقان العربية

---

(3) «فإن للقبائل السوسية مسابقة من قديم إلى تأسيس مدارس العلم، فلا نجد قبيلة ولو ضعيفة إلا فيها مدرسة علمية. والذي يقصد اذ ذاك بالعلم هو العلم الديني من **عربية وفقة** وما إليها من علوم **الحديث والقرآن** » : **ايليغ قديما وحديثا**، المطبعة الملكية، الرباط، 1966 ص.

(4) «العلوم التي يعنى بها السوسيون كانت كلها أذناباً في أنظارهم لعلم اللغة العربية، لمكانتهم من العجمة، ولا مفتاح لهذه العلوم إلا اذا دخلوا من هذا الباب » : **سوس العالمة**، ص 37، «ولأنهم كَلّا شيء في الميدان العلمي ان كانوا في [اللغة والنحو والتصريف] مقصرين» م. ن. ص 38.

(مفتاح العلم) هو في حد ذاته وسيلة لتشكيل نخبة متميزة.

يذكر المختار السوسي الجهد الكبير الذي على الامازيغي(5) ــ أو الشلحي حسب تعبيره الذي يقصد به السوسي ــ أن يبذله لتعلم اللغة العربية، وهو جهد دونه بكثير ما هو مطلوب من المتعلم ساكن المناطق المعربة. وهنا لا ينبغي أن نقف عند مجرد التنويه بما استطاع أن يبلغه علماء سوس هؤلاء الذين كان عليهم أن يبذلوا من المجهود أضعاف ما بذله زملاؤهم الفاسيون والتطوانيون والسلويون والمركشيون والرباطيون، ليصيروا أندادا لهم، بل ينبغي أن نذهب إلى ما هو أبعد من التنويه، فنتساءل عما عسى أن يترتب على هذه الوضعية.

إن الجهد الذي على الامازيغي أن يبذله لتعلم العربية وبالتالي اتقان العلم (الديني) الذي تعتبر العربية مفتاحه، جهد كبير ولا شك. لكن ــ وبالمقابل ــ سيفتح تعلم العربية وعلمها الديني أمامه آفاقا لم تكن في الحسبان : سيمكنه علمه من نقلة اجتماعية بارزة. صحيح أنه ــ وقد دخل علم العربية وآدابها وعلمها الديني المعياري ــ قد اتخذ بثقافته هذه مسافة من مجتمعه، فأصبح متميزا عنه، ولكنه أصبح أيضا يملك بفضل علمه المكتسب بضاعة نادرة مطلوبة. لقد أصبح الباب مفتوحا أمامه لامتلاك السلطة العلمية، وهي سلطة قد تفسح له المجال لامتلاك سلطات أخرى داخل جماعته.

هل قلنا أن العالِم الامازيغي بالعلم العربي قد صار ــ نتيجة لذلك ــ منفصلا إنفصالا ما عن مجتمعه ؟ صحيح إذا كان ذلك يعني أنه بعلمه العربي، والديني المعياري قد دخل عالما متعاليا ذا قيمة مطلقة في اعتباره.

إلا أنه في الحقيقة لا ينفصل تماما عن مجتمعه الامازيغي، لسبب واضح : وهو أنه يظل يتوقف على مجتمعه هذا في القيمة التي يكتسيها علمه. ان المثقف الامازيغي صاحب العلم العربي يتخذ بعلمه هذا مسافة من مجتمعه، ولكنه لا ينفصل عنه تماما، لأن مجتمعه الامازيغي هو الذي يضفي على علمه ماله من قيمة.

ما مصدر هذه القيمة ؟ انها **الحاجة الدينية**.

ان الحاجة الدينية هي التي تجعل المجتمع الامازيغي **يطلب** باستمرار علما متعاليا

---

(5) آثرنا هذه التسمية : «الامازيغي» بدل البربري والبربر.

عنه بمعياريته المجردة، وغريبا عنه بلغته، وبالتالي فإن هذه الحاجة الدينية تجعل المكتسب للعلم العربي مرتبطا بمجتمعه الأمازيغي الذي يطلب لديه الاجوبة عن أسئلته الدينية، لا سيما في مجتمع كالمجتمع السوسي حيث الدين هو المعيار العام الذي به تتخذ الأشياء معناها وقيمتها.

ولكن هذا الدين لا يفهم إلا بلغة مختلفة عن اللغة اليومية لهذا المجتمع، فلا بد اذن من أن تتكون فيه نخبة عالمة بهذه اللغة وبعلمها الديني(6).

★ ★ ★

استوقفني وأنا أفحص وصف المختار السوسي لعلوم أهل سوس، ومنهاج التعليم بمدارسها، وكذا جرده لمحتويات كثير من خزاناتها العلمية، (سواء خزانات الخواص أو المدارس أو الزوايا) نصيب الأدب العربي، والأدب الأندلسي منها(7).

يتكون اذن في هذه المدارس أناس مطلعون على الأدب العربي، منتجون فيه أيضا، خاصة في فنين اختص بهما هؤلاء أكثر من غيرهما، وهما الترسل(8)، والشعر.

وهنا أتساءل : هل كان من شأن هذا النصيب الذي للأدب العربي في مناهج التعليم السوسي التقليدي أن يؤدي إلى تكوين **أدباء فقط**، أي مثقفين تكون صفتهم الثقافية الأولى أن يكونوا أدباء وحسب ؟ غالبا لا. اذ نادرون هم الأدباء الخلص في هذه البيئة العلمية السوسية، أي أولئك الذين لاينشغلون إلا بالأدب وحده.

وتفسير ذلك واضح : وهو أن التخصص في العربية وآدابها وحدهما في المجتمع السوسي لا يوصل صاحبه إلى هذه السلطة العلمية التي ما فتىء المثقفون — ومنذ

---

(6) يذكر المؤلف وضعية الفقهاء الذين يتعاقدون مع القبائل في المدارس التي تؤسسها هذه الأخيرة، وهو ما يسمى ب«المشارطة» : «وجد العلماء في هذه المشارطات في هذه المدارس الكثيرة المنبثة في كل قبيلة منبعا لمالية يكون لهم بها مركز في الهيئة الاجتماعية، ثم يضمون إلى ذلك مايأخذونه عند كل قضية يفصلونها، لأن استاذ المدرسة بمنزلة القاضي الرسمي للقبيلة، يقضي بالتحكيم بين الناس في الجبال التي لا قضاء رسميا فيها (...) فبذلك تنمو الثروة للاساتذة بسرعة، ويظهر عليهم رونق الغنى وأبهة السيد المرموق الذي يجر ذيولا يغبطه عليه العامة الأميون»، **سوس العالمة**، مطبعة فضالة، المحمدية، 1960، ص 26.

(7) **خلال جزولة**،ف.ف، 236 ــ 237، **سوس العالمة**، ص 37.

(8) الرسائل التي اعتاد طلبة المدارس المتباعدة أن يتبادلوها فيما بينهم، وكذا الرسائل التي يبعث بها الطلبة السوسيون من الحواضر العلمية، خاصة مراكش وفاس، إلى أهليهم وأساتذتهم بسوس، تقتنى وتعتبر آثارا أدبية، نظرا لندرتها في محيط غير معرب، ولو كانت غير عالية الأسلوب كما يقال، **خلال جزولة**، I، 119، وانظر أيضا : **سوس العالمة**، ص 102.

كانوا ــ ينشدونها، وفي كل المجتمعات. وفي مجتمع كالمجتمع السوسي لا سلطة علمية حقيقية إلا اذا قامت على العلم الديني.

وهنا لا بد من مقارنة : أن الصلة بين العربية وعلومها وبين العلوم الدينية هي الصلة التي تأسس عليها العلم الاسلامي أول ما تأسس. ففي مبتدأ هذا العلم لم تكن العربية وعلومها تطلب لذاتها، بل كمدخل للعلم بالنصوص المقدسة. لكن لم تلبث العربية وعلومها وآدابها أن استقلت وأصبحت تطلب لذاتها.

أما في سوس ــ كأي مجتمع غير عربي اللغة ــ فإن الصلة بين العربية والعلم الديني ظلت قائمة. والأمر لا يرجع إلى توقف في تطور العلوم من حيث استقلال بعضها عن بعض، وتخصصها وتفرعها (فعلماء سوس، كما تدل على ذلك مكتباتهم، كانوا يتداولون نفس العلوم العربية الاسلامية كما كانت عند غيرهم). لكننا نادرا ما نجد عندهم أناسا صناعتهم الأدب بالدرجة الأولى، وتفسير ذلك ماقدمناه من كون الاختصاص بالادب وحده لايوصل في هذه البيئة إلى السلطة العلمية.

إن الحاجة التي تحفز هذا المجتمع غير المعرب إلى اللجوء إلى أهل الثقافة العالمة هي حاجة دينية بالاساس. ونظرا لندرة الذين يستطيعون فيه العلم بالعربية، وبالتالي العلم الديني لأن العربية مفتاحه كما ذكرنا، فإن الطلب على بضاعة هؤلاء العالمين يشتد باستمرار، مما يفسح المجال للنابهين منهم للنفوذ المعنوي، وللسلطة العلمية، وما يترتب على ذلك من نقلة اجتماعية مرموقة يعبر عنها المختار السوسي ب«الجاه».(9)

للادباء ــ الفقهاء في سوس عالمان : عالم مغلق، خاص بهم، حين يتطارحون الشعر العربي فيما بينهم ويتناظرون في الأدب العربي المجرد ــ ويصور المختار السوسي عالم الأدباء المغلق هذا.(10)

---

(9) **خلال جزولة**، 22، سوس العالمة، 26 ــ 27.

(10) **خلال جزولة**، ا، 14 ــ 15.

المختار السوسي يستضيفه طلبة بإحدى قرى سوس، فيسألهم على مائدة الافطار : «أحاجيكم ما تقوله العرب لما يوكل صباحا قبل الغذاء ؟ ثم قلت لهم : ان العرب تقول له اللهنة» **خلال جزولة، I، 14** (وطبعا غاب عن المختار السوسي أن رد الكلمة الشلحية هكذا إلى مقابل عربي قد لا يكون صحيحا، ليس باعتبار قاموسي، بل لاختلاف ثقافات المائدة). ونقرأ : «فمضى الطريق كله أدبا بانشادات لطيفة، وبفوائد مختلفة مليحة، نتقاذفها كما تترامى الحسنات بطاقات الأزهار...» م. ن. I، 15. ونقرأ أيضا : «بتنا ليلة نعدها في طليعة الليالي الغر التي تقل في سفرنا هذا لقلة المجالسين الموافقين في حلبة الأدب» م. ن. ص 15.

ولكن لهؤلاء أيضا عالما ثانيا يمتد إلى الاهالي وهو امتداد لا يكون إلا بالخطاب الديني.

لابد اذن للأديب الفقيه بسوس من عالمين : أحدهما يرضى به ذوقه الأدبي المستفاد، ويستأنس به مع مَن هم من طينته الادبية، وعالم ثان ينفتح على العموم، عن طريق الخطاب الديني، ويكون هذا الخطاب وسيلته لانفاذ سلطانه المعنوي لدى عامة الناس : أهل الحاجة الدينية.

ومن هنا نفهم مغزى هذه الدعوة المزدوجة التي ما فتىء المختار السوسي يدعو إليها : دعوة إلى صيانة اللغة العربية وإلى حفظ الدين معا. طبعا نجد نفس الدعوة في بيئات اسلامية أخرى، إلا أن مدلولها في بيئة كبيئة المختار له معنى خاص، نظرا للاعتبارات التي ذكرنا. ففي البلدان الاسلامية المعربة طرحت الدعوة إلى المحافظة على العربية والاسلام باعتبارهما مقومين للهوية الجماعية. وقد ذهب المختار السوسي هذا المذهب أيضا. إلا أن علينا أن نذهب أبعد في تأويل كلامه : فنرى في دفاعه عن العربية ودعوته للتمسك بالدين دفاعا ضمنيا على سلطة المختصين بالعلم بهما في مجتمع يكون فيه العلم بالعربية وعلمها الديني مطلوبا، ومن اختصاص الاقلية العالمة.

يقول المختار السوسي : «لغة العرب هي خير لغة أخرجت للناس (...) فالحمد لله الذي هدانا حتى صرنا ــ نحن أبناء «إلغ» العجم ــ نذوق حلاوتها (...) ونستشف أدبها (...) حتى لنعد أنفسنا من أبناء يعرب، وان لم نكن إلا أبناء أمازيغ. فالانسان بذوقه وبما يستحليه، لا بما رضعه من ثدي أمهاته...».(11) الكاتب هنا يتحدث عن نفسه طبعا، وعن أمثاله ممن اكتسبوا العلم بالعربية وآدابها. إلا أنه يعمم، فيجعل من الآداب العربية التي اختص بها هو وهؤلاء وسيلة لاكتساب هوية تعني المجتمع غير المعرب بأسره، والكاتب اذ يرمى هنا إلى التعميم فإنما يرمي إلى اضفاء قيمة مطلقة على هذه الثقافة العالمة الكتابية، وبالتالي إلى إقرار سلطة الفئة المداولة لهذه الثقافة العربية العالمة داخل المجتمع غير المعرب.

= ومن جهة أخرى تذكر المصادر أن أحد أعلام هذه الثقافة العربية بسوس في القرن السادس عشر، وهو محمد ابن ابراهيم الجزولي (ت 1564) قضى ستين سنة في تدريس مقامات إلحريري والمختار السوسي نفسه يخبرنا أنه بدأ بقراءة «ألف ليلة وليلة «بقريته إلغ» وعمره عشر سنوات، المعسول، I، 14.

(11) المعسول، I، 13، وانظر أيضا **خلال جزولة**، II، 209.

ومثل هذا التفسير قد يصدق أيضا على قول السوسي (وما أكثر مثل هذا القول عنده) : «هذه الحرارة الدينية التي نراهم [أهل سوس] بسببها يحاولون أن يلبسوها كل فكر، ويزنوا بها كل عادة، مزية عظيمة...»(12). لاينبغي هنا أن نمر على هذا القول وكأن صاحبه يتحدث عن أمر عادي معروف عن أهل سوس من محافظتهم الصارمة على الدين وارجاع شؤون حياتهم بتفاصيلها إليه. بل علينا أن نذهب أبعد، فنرى في هذا القول وأمثاله دعوة مستمرة إلى الابقاء على التعلق المتبادل بين مجتمع ونخبته العالمة. فهناك من جهة مجتمع ذو حاجة دينية ملحة تجعله يتجه باستمرار إلى النخبة المختصة فيه بالعلم الديني وهناك ـــ من جهة ثانية ـــ حاجة هذه النخبة مالكة العلم الكتابي، إلى هذا المجتمع كمصدر حقيقي لما لعلمها من قيمة، مما يمكّنها من إنفاذ سلطتها العلمية داخله.

الذاكرة (العلمية) المفقودة

وقف(13) محمد المختار السوسي يوما بزاوية آيت اسحق، وبحث عن آثار علمائها الدلائيين القدامى فلم يجد. وهنا ارتاع لما رآه آفة مخيفة وقعت بأحفاد أهل الدلاء، وهي فقدان ذاكرتهم الجماعية ــ أو ما اعتقد أنه كذلك. ذاكرته هو تحفظ الكثير من تاريخ هذه الزاوية وعلمائها، ولكنه الآن أمام تاريخ قد انقطع. واستحضر سوس : ان بها الان العشرات من أمثال زاوية الدلاء، أي الزوايا ـــ المدارس. وهي أيضا مهددة بأن يطويها النسيان كما طوى الزاوية الدلائية، ليس فقط كمراكز يصدر منها العلم، وتنتشر منها القداسة في المحيط، وانما أيضا كذاكرة، وخاف أن يأتي على سوس زمان تنسى فيه ذاكرتها العلمية كما نسى أحفاد الدلاء ذاكرتهم الجيدة.

وهنا نبت في ذهن المختار ـــ كما يخبرنا ـــ مشروعه الكبير : مقاومة اضمحلال الذاكرة السوسية (أو مارآه كذلك)، وذلك بتثبيتها بالتدوين، وكما نشأ التدوين في بدايات العلم الاسلامي لمقاومة النسيان، وتثبيت العلم (الذي كان دينيا في بداياته) بالكتابة، فكذلك قر قرار صاحب **المعسول** أن يقوم بالتدوين الشامل للتراث العلمي لأهل سوس، حتى لا يحل بذاكرتهم ـــ أي العلمية ـــ ما حل بأهل الدلاء.

---

(12) خلال جزولة، II، 7.

(13) المعسول، I، د.

انطلق المختار يقيد، أي يضع «القيد» على العلم وأخبار أهله حتى لا تضيع في سراب النسيان.

حين نقرأ **خلال جزولة**، نحس بأنفاس الرجل وهو يلهث، يتنقل بين قرى سوس، يحل بالمدارس، وبالزاوايا، يستنطق الرجال، ينقب عن خزائن الكتب، يستقصى أخبار أسر أهل العلم والرئاسة، يسجل الانساب... يفعل هذا كله وهو موزع بين الحرص على الدقة اللازمة لضبط هذا كله، وبين الوقت الذي يطارده. وكثيرا ما ضحى بدقة الاستقصاء والضبط في سبيل التسجيل الفورى، ولو ظل أبتر أويشوبه ظن. كم مرة حملت إليه أكياس وصناديق، ونثرت أمامه أكوام الكتب المخطوطة، ينظر فيها، يصل الليل بالنهار في الفحص والنقل، فلا يستطيع الاستيفاء، وأمامه قرى أخرى ومدارس وزوايا وأعلام، وأين له الوقت ليفحص الفحص الجامع، ولكنه يعزي النفس بأن تحصيل بعض الشيء خير من لا شيء.

وهو في هذا كله يعي بأنه متفرد فيما يصنع(14). يعجب أهل العلم في سوس وهم يرونه ينتقل بينهم يقيد عنهم ما يسمع من أخبارهم، ويصف ما يعرضون عليه من خزاناتهم، ويسجل أنسابهم، خاصة مايتصل منها بالعلم والولاية والرئاسة، أما هو فيعجب من اهمالهم التقييد، ومآل ذلك عنده فقدان الذاكرة(15).

فما هي هذه الذاكرة التي خاف المختار أن يصيبها مرض الفقدان ؟ انها الذاكرة العلمية أساسا. صحيح أنه قد اهتم بتاريخ سوس، وأخبار رجاله، وبعوائد بعض نواحيه كتارودانت(16) أو إلغ، ولكن سوس الحقيقية تظل عنده هي **سوس العالمة**،

---

(14) قال له قائل ما معناه : «ولا عجب أنت لاتزال كما كنت لم تفتر همتك بالمكث في الجبال التي لا يعرفون مثل هذه الهمم، فقلت له مازدت على أني رأيت الدر تساقط رطبه فحرصت على ألا تضيع، والعلم صيد والكتابة قيده «**خلال جزولة**، I، 24، فإنني وحدي هو المعتني بالتقييد» م. ن. I، 54.

(15) يمر على وادي كان قاعدة «التيتة» حين كانت لهذه امارة أيام السعديين ثم في عهد امارة تازروالت، فيعجب في انقراض التاريخ اذ «ذهب ذلك كله تحت ظل الجهالة التاريخية» **خلال جزولة**، II، 104.

(16) **خلال جزولة**، I، 27 — 30، **المعسول**، I، 25 — 63.

ومع ذلك فهو يؤكد أن ما هو بمجتمعي أهل لأن يكون موضوعا للعلم، «وقد يطلع [من] بعض الأغبياء العريضي القفا على هذا، فيستبرد الاعتناء بمثله» «(**خلال جزولة**، I، 30)، ويتمنى لو «يفسح لي المجال لأترسم أيضا الأفكار الاجتماعية ممن ألقاهم، كما أترسم أفكارهم العلمية» (م. ن. II، 6).

وذاكرتها بالنسبة إليه هي ذاكرة علمها الكتابي(17).

.وهنا نجدنا أمام هذه المفارقة : أن الرجل قد لاحظ أن تاريخ سوس لم يكتب حقيقة بعد، ولا لاحظ ثانية أن اسهام سوس في الثقافة المغربية العربية لم يقدر القدر الحق. لذا فهو قد نصب نفسه لابراز نصيب سوس في الثقافة المغربية العربية الاسلامية. فكان مشروعه محليا وطنيا عربيا اسلاميا في آن واحد. كيف تستقيم هذه الابعاد جميعا ؟ ألا يكون في الأمر مفارقة ؟ إن كاتب **المعسول** رام ابراز اسهام سوس الثقافي، لكن أية ثقافة هذه ؟ كيف يعبر مجتمع غير عربي اللسان عن نفسه بثقافة عربية. إن مشروع المختار السوسي — وقد كان له مشروع بالفعل — هو ابراز الخصوصية الثقافية السوسية لكنها خصوصية عجيبة تعبر عن نفسها بلغة هي غير لسان أهلها الطبيعي. لا نجد لدى الكاتب السوسي أي شعور بأن في القضية مفارقة ما، باستثناء بعض ملاحظات نجدها عنده عارضة ومتفرقة.(18)

هذه الخصوصية السوسية كما رآها تحمل اشكالا لم يتبينه الكاتب السوسي، وربما يرجع عدم تبينه إلى عدم طرح المسألة الثقافية في تلك المرحلة من الفكر والعمل الوطنيين. وقد نوضح هذه المسألة من تحليلنا للسيرة العلمية للكاتب.

★ ★ ★

الرحلــة

طالب العلم السوسي لابد وأن يرحل. وقد تكون رحلته قريبة، فينتقل في مدارس القبائل الأخرى، وقد تبتعد إلى حواضر العلم، إلى مراكش وفاس على الخصوص، وقد يوغل في الرحلة شرقا إلى تونس أو إلى مراكز العلم في المشرق العربي.

---

(17) «فقطر سوس واسع فسيح، في كل ناحية من نواحيه ما يستحق من العادات والتقاليد (...) أن يمر عليه الباحث إلا وأعاره عنايته طرفا. هذا على أننا لا نعنى كثيرا إلا بالجهة العلمية التاريخية»، م. ن. I، 6.

(18) مثلا ما يذكره من أن والده كان يروى حكاية شاعرين ألقى كل منهما قصيدة بمحضر أمير تازروالت، علي بودميعة، الأول بالعربية والثاني بالشلحة : «وكان والدي يضحك ويقول أخبرني بعض من حضر أن بعض الشلحيين النظامين من اللعب في الدعراس قام أيضا [أي بعد أن ألقى الشاعر الاخر قصيدته بالعربية] يعنى بمدح سيدي على [بودميعة]، فأراد بعض الفقهاء أن يسكته، فقال له سيدي علي : دعه، فبقي حتى أتم ماقال : فيقول والدي اثر ذلك : لاأدري ما الفرق بين الرجلين، إلا إذا عظمنا العربية فقط ! » **إيليغ قديما وحديثا**، ص.

الرحلة حدث هام في حياة الطالب السوسي، لأنها لتنتزعه من موطنه البادى ليتصل بالحاضرة المعربة، فهو اذن يغترب اغترابين : اغتراب في نمط المعاش واغتراب في اللسان.

لكن «الرحلة» بالنسبة للطالب السوسي تبدأ قبل أن يغادر مجاله الأصلي، ذلك أن ذهنه يبدأ «الرحلة» وهو يدخل في عالم الأدب والعلم العربيين. وهو اذ يوغل في هذا العالم، يتخذ مسافة من مجتمعه، ولكنها مسافة ضرورية لادراك موقع متميز من جماعة الأهالي. ما هو هذا الموقع ؟ انه موقع **التحكيم**. والتحكيم هنا هو التجاء الأهالي إلى صاحب العلم الديني لطلب حكمه في علاقاتهم باشيائهم اليومية، وأيضا في علاقاتهم كأطراف يحصل بينها نزاع. وموقع التحكيم مشروط بأن يكون الحَكَم فوق الاطراف المتنازعة.

طالب العلم السوسي راحل دائم بعلمه الغربي عن المجتمع اليومي للاهالي، ولكنه مع ذلك عائد إليهم بحكم الحاجة المتبادلة بينهم وبينه : فهم محتاجون إلى عمله الديني لتزكية عملهم الفردي والجماعي، ولاضفاء المعنى على حياتهم، وهو محتاج إليهم لأنهم المصدر والموضوع الحقيقيين لِسلطته العلمية.

وطالب العلم السوسي حين يرحل رحلة فعلية، فيغادر مجاله المألوف إلى حواضر العلم المعربة، فإنما لكي يعمق المسافة، أي يعمق امكانية الاجلال والسلطة. انه يرحل إلى مراكز«العلم»بالحواضر، ليعود وهو يروى عنها مباشرة. وهو اذ يرحل إلى حواضر العلم المركزية، فهو يطمح إلى أن يتجاوز علم ضاحيته، ليعود بعد ذلك، وقد رفع في شخصه علم الضاحية إلى مستوى علم المراكز، وقد تجاوز الوسائط المبثوثة في ضاحيته (مدارس الضاحية وعلماءها) إلى مستوى المركز الذي أخذ عنه مباشرة بالرواية والاجازة. هو يطمح بعد العودة إلى أن يتخذ لنفسه موقعا فوق موقع علماء الضاحية، بأن يصبح بالنسبة إليهم مركزا للعلم والفتوى. أو بعبارة أخرى : ان طالب العلم السوسي الذي عاد من رحلته حاملا علم الحاضرة المركزي فإنما ليؤكد تساميه المضاعف بالنسبة للاهالي، وبالنسبة لعلماء الضاحية، فيؤكد ذلك حجم الاجلال والحاجة.

للمختار السوسي أيضا رحلته في طلب العلم، رحل لطلبه إلى مراكش حيث أقام سنوات خمس، ثم إلى فاس فيبقى بها أربع سنوات، ثم أقام سنة في الرباط، وعاد بعد

ذلك كله ليقرر الاستقرار في مراكش. هو اذن لم يعد إلى موطنه الأصلي، بل اختار مراكش.

لماذا مراكش ؟

اختيار مراكش هو في عزمه اختيار للحضارة. ما معنى ذلك ؟ نلاحظ أن مقابلة الحضارة بالبداوة مقابلة تتردد كثيرا فيما كتب. واذا كان مصطلح «الحضارة» قد قل استعماله عند الكاتبين بالعربية اليوم، فقد كان واحدا من المصطلحات الأساسية عند جيل المختار السوسي وجيل الكتاب المشارقة منذ القرن الماضي، أخذوه عن الكتاب الاوربيين الذين استعملوا هذا المصطلح منذ القرن الثامن عشر خاصة.

فما هي «حضارة» المختار السوسي ؟ هي قبل كل شيء علم وتهذيب طباع، فيجعل «مادتها من العلوم والاخلاق الفاضلة ومن المجتمع النقي الفكر»(19) حضارته اذن منتقاة. وهو لم يسلم في ميراثه القروي (أو البدوي في اصطلاحه). ولعل مقياس محافظته على عمقه القروي يتمثل في حياته الزوجية، فها هنا قد ضرب حصارا حول بيته. وهو قد انتقى من «الحضارة»، أو طريقة الحضريين في المعاش، قد أوقفها عند عتبة بيته(20).

السوسي واليوسي

وهنا يقارن بين حاله وحال سلفه اليوسي، فعالم القرن السابع عشر الكبير لم يكن قرويا وحسب، بل أن علمه أخذه أصلا من مدارس «البادية»(21). وحين حل بفاس لم يكن ذلك ليطلب العلم، بل ليعلمه. وفي فاس اشتدت خصومة فقهائها له، ولم ترق له المدينة، وحاجاتها المصطنعة، وما تستلزمه من تكاليف، فيقرر الهجرة، والعودة نهائيا إلى قريته. ويعاتبه السلطان المولى اسماعيل على هذه «الارتدادة»، فيجيب برسالة يبسط فيها ما وجده من عسر في المدينة، مما لم يلائم طبعه ومألوفه، ويعقد فيها

(19) خلال جزولة، II، 121.

(20) اختار زوجة له من سوس : «اقترنت فحاولت أن أبقى بدويا لا يأخذ من الحضارة إلا بمقدار، فاغلقت باب داري على النساء، فأمكن لي أن أستريح (...) فلا (شوف اللحم) ولا (شوف الحوت) ولا (شوف الزعفران) يلج أذني، تقنع بخبز الشعير والزيت مع الخضر، وبما تيسر من الكسكس، ومتى تيسر لحم فذاك (...) ولا جار أصلا من الجهات الأربع» م. س. II، 118.

(21) «البادية» في اصطلاح المغاربة هي «الريف» عند المشارقة.

مقابلة بين المدينة والبادية، مؤثرا هذه الأخيرة. ويُعنى المختار السوسي بهذه الرسالة، ويعارضها برسالة أخرى يقارن فيها بين حاله وحال اليوسي الذي لم يفقد في واقع الأمر في قريته ما يفقد ساكن البادية من يسر الحياة والاتصال بطلاب العلم : «ان الراحة التي يمدح بها اليوسي مستقره هناك في باديته، وهو في علم وفراغ بال وتدريس (...) ولكن الشيخ اليوسي طابت له البداوة كما وصفها من جري ساقيتين وسط الدار، ومن تيسر المؤونة (...) فإنني (...) على عكسه في كل ذلك، فإن كل شيء عندي في الحاضرة محتضر، وكل شيء عندي في البادية بعيد المتناول»(22).

* * *

ومع ذلك... فالرجل لم يهجر موطنه الأصلي إلى هذا الذي سماه بالحضارة. أو لم يكن مشروعه هو احياء «سوس العالمة» ؟ هو يرفض سوس المنفى، وغربته العلمية بها، فيكتب مثلا : «نزلت بين ظهرانيكم [منفيا] وفيّ جذوة تتقد علما وهمة، فرددتها إلى إحياء مجدكم وتاريخ بلادكم، فلم تكادوا تحسون ذلك (...) ثم بعد لا يتوهَّمَن متوهم أني نبذت أهلي وكشفت عن عيوبهم، فإن أهلي هنا في (الغ) هم أولئك العلماء المذكورين وحدهم (...) ولا أبالي ان استثنيت هؤلاء العلماء ان يهلك من يهلك(23).

لاشك أن الغربة كانت قد اشتدت على الرجل وهو يكتب مثل هذا الكلام، وهي غربة علمية أصلا، سيما وأن علم قومه قد سقط في الخرافة، فصار يسكت ويجاري(24).

كان قد فارق قومه فأطل فكره على ما كان يشغل المسلم المتنور في تلك الحقبة. اطلع على الكتب الواردة من المشرق، ومجلاته، وتتبع حوادث العالم الاسلامي، «وكانت الأفكار تتبادل، وكانت هذه المدن الثلاث : فاس، الرباط، تطوان ومراكز

(22) م. س. II، 125 ــ 126.

(23) م. س. II، 121.

(24) «فصرت أسكت أحيانا، وهو الغالب (...) وأحيانا أورد ما أورده في عورة الشك، وأحيانا اظطر إلى المجاراة، وأنا أعذر من هم أمامي، لان بداوتهم هي التي أملت عليهم السذاجة في التفكير» م. س. II، 123.

التفكير في فجر المغرب الجديد. ومن هناك تمخضت الفكرة الوطنية المتركزة على الدين والأخلاق السامية. وكنت أصاحب كل المفكرين اذ ذاك، (...) فاذ ذاك سكرت بتلك الفكرة، وأنا كما تفتحت لي الدنيا بجرائدها وجغرافيتها وكتبها الحديثة، والحركات المصرية والتركية والسورية والعراقية والهندية والافغانية والايرانية والتونسية، وحركة العلماء في الجزائر. هذه كلها تردد في الاذان رنين الأجراس التي توقظ النائمين»(25).

وبعد هذا كله يعود المختار السوسي منفيا إلى ناحيته فيرى علماءها ما يزالون يناقشون في كروية الأرض، وأنها من قبيل «المحال العادي الذي لا يقبل إلا بشاهد نص الكتاب أو السنة والاجماع (...) بل انها على الماء والماء على الريح، وكذا على كذا إلى الصخرة والثور والحوت وما لا يعلمه إلا الله»(26).

ما أبعد الاسلام المتنور الذي وفد به المختار من رحلته عن اسلام فقهاء سوس آنذاك(27) ! هذا الفكر السلفي الذي يبدأ من الأصول النصية الدينية، ويعيد تأويلها، ويتعالى عن سلطة الفروع وفقهائه، لم يكن يجد الطريق معبّدا كما قد يتبادر إلى الذهن. لم تكن السلفية المحدثة تعمل دون معارضة، وكأنها في عقر دارها بمجرد أنها تتخذ الاسلام معيارا. ذلك أنها تلجأ إلى ما لم يتعوده الفقهاء التقليديون، بل يرفضونه. من ذلك دعوتها إلى الأخذ بالعلوم الحديثة، وأن هذه العلوم قد أخذها الاوربيون عن المسلمين وعليها بنوا نهضتهم. قد تبدو لنا مثل هذه الدعوى مبالغا فيها، أو هي تبرير كان لابد منه لاعطاء تأشيرة اسلامية لادخال هذه العلوم. ولكن الرجوع إليها لطلب حقائق الأشياء، من شأنه أن يهدد سلطة العلم التقليدي. فلا بد وأن يعارضه الفقهاء، دفاعا عن سلطتهم العلمية التقليدية.

فالسلفية المحدثة لم تكن مهمتها سهلة لمجرد أن خطابها اسلامي. ذلك أنها عمليا دخلت في عملية تأويل جديد مزدوج : للمعطى الاسلامي ولما اقتبسته من أفكار أوربية. وهو ما لم يلجأ إليه الفقهاء التقليديون. ولم يكن السلفيون المحدثون يتخذون خصوما لهم أولئك الذين نعتوا بدعاة التغريب، بل والفقهاء التقليديين أيضا. وربما

---

(25) نفسه، II، 42.
(26) نفسه، III،42.
(27) المثال على ذلك مجادلة المختار الآنفة الذكر لشيخه الفقيه السوسي حول كروية الأرض.

كان صراعهم لهؤلاء أعنف لانه استهدف انتزاع السلطة العلمية الدينية منهم. وفي الفترة التي كان فيها المختار السوسي طالبا بفاس، ثم في الرباط، ساهم في التحويل الأول للحركة السلفية إلى حركة وطنية، وكان الذين قاموا بذلك قلة معدودة من الشباب، وهم الذين يسميهم حين يستعرض ذكرياته عن تلك الفترة بـ «المفكرين».

★ ★ ★

لكن لماذا «اختار» المختار حين عاد من رحلته العلمية ليقرر الاستقرار بمراكش أن يكون رجل علم قبل أن يكون رجل سياسة، هذا على الرغم مما كان للعمل السياسي آنذاك من اعتبار إجماعي، اذ كان عملا من أجل الاستقلال الوطني ؟ هل كان الأمر يرجع إلى طبع الرجل، وأنه كما يقول هو نفسه خلق للعلم لا للسياسة ؟ لكننا نعلم أنه كان ضمن الأفراد القلائل الذين أسسوا أول جماعة وطنية وهو طالب بفاس، وجعلوا رئيسا لها علال الفاسي، رفيقه الطالب آنذاك، وكونوا في نفس الفترة جمعية أخرى للتدرب على الخطابة بالفصحى. ومعناه أن العمل الوطني قد أخذ يتخذ له شكلا جديدا في التنظيم والخطاب. فمن حيث التنظيم كانت هذه الجمعية الأولى هي لبنة العمل الحزبي الذي سيكون الوسيلة التنظيمية الجديدة، والتي ستحل محل التنظيمات التي كانت تمر منها السياسة في المجتمع المغربي التقليدي. وهذه الوسيلة التنظيمية الجديدة ستعتمد الخطبة السياسية وسيلة للتبليغ. واذا كان اليوم قد أصبح عاديا أن يقف السياسي أمام الجماهير ليلقي خطابه، فلم يكن الأمر كذلك دائما، والمختار السوسي وأصحابه وهم يؤسسون تلك الجمعية الأولى التي سموها «جمعية الحماسة» انما كانوا يدشنون الخطبة السياسية وسيلة جديدة للتبليغ واستمالة الجماهير للدخول في هذا التنظيم الجديد الذي أصبح يتخذه العمل الوطني. معنى ذلك أن الوطنية المغربية لم تبدأ بما يسمى ب «الحركة الوطنية» والتي أسسها هؤلاء الشباب في العشرينات، والتي اتخذت شكل التنظيم الحزبي والخطاب السياسي، بل كانت لها أنماط أخرى من حيث التنظيم والخطاب المستعمل.

شهد المختار السوسي اذن هذه الفترة الحاسمة من نشأة العمل الوطني الجديد، بل كان من مؤسسيه. فهل غير محور الاهتمام بعد رجوعه واستقراره بمراكش، فأصبح شاغله الأول علميا، وعن اختيار ؟ هذا ما يقوله هو. لكنه يخبرنا أيضا أنه كان

بمراكش أيضا ضمن الطليعة الوطنية(28).

لكن لماذا اعتبر أن عمل العالم أرسخ أثرا من عمل السياسي، حتى ولو كان هذا السياسي هو ناشر الفكرة الوطنية ؟ والمقارنة هنا بين العالم والسياسي لا ينبغي أن تؤخذ باطلاق، بل انطلاقا مما تحدثنا عنه من وضعية العالم في البيئة السوسية، وما كان له من سلطة. فهل طمح المختار السوسي إلى الارتكاز على هذه السلطة، واستثمارها في دعوة بدت له أشمل من الدعوة الوطنية ؟ لكن أشياء كثيرة قد تغيرت، أو كانت في طريقها إلى التغير، ومنها تلك السلطة التي كانت للعالم التقليدي. كما أن الأفكار السلفية الوطنية كانت ما تزال منحصرة في بعض الحواضر، فلم تتهيأ لها سوس بعد. وهكذا ظل المختار السوسي في واقع الأمر مترددا بين موقعين : موقع العالم التقليدي وموقع المثقف السلفي. فأفكاره السلفية لم يكن يستسيغها علماء سوس التقليديون، وقد تحدث عن عزلته بينهم. ونحن من جهة ثانية ــ إذا قارنا بين سلفيته وسلفية أبناء جيله أمثال علال الفاسي ــ نجده أقرب إلى المحافظة. وقد قال عنه علال يوما «فلان انما هو فقيه الجرومية» وقد حزت هذه القولة في نفس المختار ولو أنه داراها. بل قبلها باصرار ليجعل من اهتمامه بمثل هذه العلوم عملا سياسيا أيضا : «فكل من يهتم بأي شيء من مقومات الأمة كيفما كان، حتى الاهتمام بالجرومية من مثلي، فإنه عند هؤلاء المستعمرين مشتغل بالسياسة» وحين يقول أيضا : «فرحم الله من لا يطمع فيما لم يخلق له، وسلم الزعامة لمن خلقوا لها (...) فليهنأوا لها وليمرؤوا» فماذا وراء مثل هذا القول ؟ هل وراءه احساس باحباط ما ؟ هل الرجل بطبعه وبيئته الأصلية كان يحس نوعا من عدم الانسجام مع النخبة المؤسسة للحركة الوطنية، ببيئتها الحضرية وعائلاتها ؟ ممكن. إلا أننا آثرنا التفسير على مستوى آخر، انطلاقا من اعلانه أن رسالته علمية بالاساس وأن ذلك هو النهج الأعمق للحفاظ ــ كما يقول ــ على مقومات الأمة.

يبقى أن المكانة التقليدية التي كانت للعالم بسوس ــ والتي حللناها ــ قد تغيرت، وأن السلطة التي كانت لهذا الأخير كانت في طريقها إلى الانقراض. ولكن أفكار السلفيين الجدد، أو فكر الذين حاولوا أن يجمعوا بين اسلام متنور ودعوة

---

(28) «الواقع أنني معهم في جمعية سرية، ولكنهم يظهرون بالسياسة وأنا لازمت حالتي العلمية» م. س. I، 21.

وطنية، كانت ومازالت بعيدة عما وراء الحواضر. لقد شاهد المختار السوسي تدهور مدارس العلم القديمة بسوس وأن «العلم» بسوس ــ بمعناه آنذاك، أي العلم الديني واللغة العربية مدخلا له ــ مهدد بالانقراض، فكان همه الأسبق هو الدعوة إلى انقاذ هذا «العلم»، قبل النظر في محتواه. ولما كان هذا «العلم» بسوس هو دائما علم أقلية من حولها محيط غريب عنها بحكم ما سمي ب «العجمة»، فإن هذه القلة بعلمها مهددة في وجودها نفسه، ولذا كانت ضرورة الدفاع عن استمرار وجود هذا «العلم» سابقة على الدعوة إلى تغيير محتواه وتحميله أفكارا مجددة على النحو الذي كان للسلفية بالحواضر. ولذا كان لابد لسلفية المختار السوسي أن تحدَّد بحدود البيئة التي اتجه إليها اهتمامه.

وهناك حدود أخرى تخص العلاقة بين مفهومه للسلفية وعلاقتها بالتصوف الطرقي.

معروف أن السلفية الحديثة عارضت التصوف الشعبي الطرقي. وقد حاربته لسببين : لأنه مُشيع للخرافة، ولأنه مصادر للارادة بتلقينه عقيدة التوكل، فـ «المريد» انما يريد الاخرة، وينقاد انقيادا مطلقا للشيخ. فحارب السلفي التصوف الطرقي باعتباره مضاداً للفكر والارادة.

سمع المختار السوسي لداعيتي السلفية، أبي شعب الدكالي، والعربي العلوي. استمع إلى دروس الأول حين قدم إلى مراكش، ثم بالرباط، وتحلق حول الثاني بفاس هو ونخبة الطلبة الذين سيؤسسون الحركة الوطنية، وقد تحمس هؤلاء لأفكاره، ولحملته الشديدة على الطرقية.

ومع ذلك، فالمختار ابن شيخ طريقة لم يتنكر لأبيه ولا لطريقته، بل ترك عن أبيه وزاويته كتابات تمجيد عزيزة(29).

ولا شك أن مغامرة الأب، في تأسيس زاوية طارئة على سوس، وانجاحها قد أثارت اعجاب الابن. وقد أفلح الأب في ذلك، وسط منافسة زاويتين سبقتا إلى هذه الجهة،

(29) كتب عن والده وزاويته وأصحابه : **منية المتطلعين إلى من في الزاوية الالغية من الفقراء والمنقطعين** تطوان المطبعة المهدية، 1961، **الترقيات المداوي في اخبار الشيخ سيدي الحاج على الدرقاوي**، هو تطوان، 1961، **من أفواه الرجال**، المطبعة المهدية، تطوان 1962، **أصفى الموارد في تهذيب نظم الرحلة الحجازية للشيخ الوالد**، مطبعة النجاح 1961، بالاضافة إلى ترجمة والده بالمعسول ج I.

واستقرتا بها، وهما الناصرية والتيجانية(30).

في فترة شبابه الأولى حاول المختار السوسي أن يقتفي طريق أبيه بعد وفاة هذا الأخير. فلبس لباس الصوفية، وجال على اتباع والده في النواحي، وفي الصويرة ومراكش، ولكنه رجعت عن طريق الطرقية هذا لمنافسة أخيه الأكبر له، والذي خلف أباهما على رأس الزاوية، ولأن المختار وجد أنه لم يخلق للتصوف. ومع ذلك، فلابد وأن يبقى في نفسه شيء من المجد الذي أصبح للاسرة وزاويتها، ولذا استمر يعلن الاعتقاد بالتصوف وخوارقه.

وأغلب الظن أن المختار ظل موزعا بين شيئين، بين هذه الأفكار السلفية التي كانت جديدة على المغرب آنذاك، ولم تتجاوز بعض الحواضر، وبين التعلق الذاتي بزاوية الأسرة، وذكرى مجد أبيه. فهناك ولاء واسع لزاوية أبيه، وتعلق بشيخها من طرف العديد من الأتباع بسوس، ولم يكن من السهل عليه أن يتجاوز عن هذا كله ويأخذ الموقف السلفي الرافض للزوايا وللطرقية. ولم تكن الأفكار السلفية قد وجدت بعد قبولا لها بتلك الجهة، مما قد يعوض عن الولاء الحاصل للزاوية التي أسسها الوالد الشيخ.

لم يسلم المختار في تراث الأسرة ـــ الزاوية، ولكن لم يكن بامكانه أيضا أن يستأنف السير في طريقها. فقد وجد، بعد أن رحل واتصل فكره بآفاق أخرى، أن العالم أوسع مما ظل يخوض فيه فقهاء ناحيته. ان اسلام هؤلاء مليء بالخرافة، وهو يعذرهم، ولكنه لا يتخلى عنهم، اذ يبقى طموحه هو أن يظل الدين ـــ كما هو عند قومه بسوس ـــ شاملا لدقائق الحياة، على أن يتجدد الاسلام بمنطق الاسلام نفسه، فيظل هو المعيار العام لحياة قد تغيرت، فلا يتغير الاسلام بنوازل العصر، بل تتغير هذه بالاسلام.

---

(30) الزاوية الدرقاوية طارئة على سوس، بدأ نشر طريقتها هناك سعيد المعدري الذي أخذ الورد عن أحمد بن عبد الله المراكشي (ت 1270 هـ) وهو تلميذ للعربي الدرقاوي (ت 1239 هـ) مؤسس الطريقة الدرقاوية. وفي احدى سياحات سعيد المعدري بسوس لقيه والد المؤلف، فتعلق به ودخل طريقته وسط استنكار عائلته.

وقد تطورت بسرعة من أحوال الطلبة إلى أحوال الفقراء، بل إلى أبناء الزوايا مع الفقراء (...) وكان مآلاقيه من الاكبار يسكرني «**خلال جزولة**، II، 221، ثم فيما بعد.» فقد ارتني الأيام أن استعدادي لم يكن إلا للعلوم، لا للتصوف الذي تلهو به نفسي اذ ذاك، وان كنت مغرما بالتصوف عقيدة» نفسه، ص 223.

لم يرد المختار السوسي أن يجارى سلفيي الحواضر، مؤسسي الحركة الوطنية، فيقيم تناقضا بين السلفية الوطنية وبين الطرقية.

ان سوس، والباذية المغربية عموما، لم تكن بعدُ مهيأة لقبول الفكرة السلفية — الوطنية الجديدة —. فقد عرفت البادية المغربية أشكالا أخرى لمقاومة الاستعمار. وفيما يخص سوس، كانت حركة الشيخ ماء العينين وابنه الهيبة ماتزال حاضرة بالاذهان. وهي حركة مزجت التصوف الطرقي بالمقاومة. ومثل هذه الحركة ماكان المختار ليجد نفسه غريبا عنها. كان من شأن مثل هذا الشكل من العمل الجماعي المقاوم للاستعمار — ذي المحتوى الديني الصوفي الوطني والمرتكز على قاعدة جماهيرية كانت متوفرة لها آنذاك — أن يجد في وجدان الكاتب السوسي تعلقا أعمق. ولكن الذي قاد الحركة الوطنية في نهاية الأمر هو هذه السلفية الوطنية التي نبتت في الحواضر، وتعلق بها المختار السوسي، ولكن تعلقه بها كان يصطدم عنده بحدود ذاتيته، آتية من تربيته، وميراث أسرته الطرقي، وما كانت عليه بيئته السوسية آنذاك.

ولعل هذا كله مما يشكل تناقضات هذه الشخصية الفذة، وغناها أيضا، وتفردها من بين النخبة المفكرة الأولى التي أسست العمل الوطني بالمغرب.

الفكر السلفي والتصوف الطرقي قطيعة أم اتصال؟

عبد المجيد الصغيّر
كلية الآداب ـــ الرباط

«محمد المختار السوسي»، شاهد القرن

تمهيد :

يبدو، للوهلة الأولى، أن هذا التساؤل يضعنا أمام «إشكال» يجب تفسيره، خاصة إذا جاء ذلك التساؤل بمناسبة الحديث عن فكر ومواقف المرحوم «محمد المختار السوسي»(1). ذلك أن ما يستوقفنا في محمد المختار السوسي أنه كان يتقمص شخصيتين متناقضتين، ظاهرياً، ظل مع ذلك وفياً لهما طيلة حياته، ألا وهما شخصية المفكر السلفي وشخصية المريد الصوفي ـــ الطرقي. وقد وُصف محمد المختار السوسي أخيرا من طرف أحد أنجاله بـ «الصّوفي السّلفي الكبير»(2)، وهو وصف إشكالي لأنه يجمع في شخص واحد بين تيارين فكريين واجتماعيين طالما اعتبرا متناقضين...

فقد درجت الكتابات التأريخية لعصر النهضة الاسلامية والعربية الحديثة على اعتبار العلاقة بين «السلفية» الناهضة و«الطرقية» المستشرية والمتجذرة علاقة أزمة

(1) أنجز هذا المقال بمناسبة الندوة المقامة بمدينة «أكادير» حول المرحوم «محمد المختار السوسي» بتاريخ 21 ـــ 23 دسمبر 1984.

(2) «عقد الجُمان لمريد العرفان» لعلي الدرقاوي الالغي و«معنى الوليّ في الشرع» لمحمد المختار السوسي، كتابان أشرف على طبعهما «رضى الله عبد الوافي بن محمد المختار السوسي»، ص 5. مطبعة الساحل بالرباط، ط 1 1404هـ ـــ 1984م.

أو مشكلة لا حلّ لها إلا بتراجع الفكر الصّوفي الطرقي القديم لفسح المجال أمام الفكر السلفي الاصلاحي الناهض، وكأن الفكر السلفي لا يُقدَّم له صكّ الميلاد ويُمنح حق البقاء إلا على حساب الجسم المنهك للتصوف الطرقي... وسوف يمر محمد المختار السوسي بتجربتين، كلاهما يجوز نعتهما بالأزمة أو الاشكالية، ألا وهما تجربة اصطدامه، كصوفي ــ طرقي أصيل، بالسلفية الجديدة التي تفننت في اختراع المعاول لاجتثاث الطرقية من المغرب ؛ ثم اصطدامه بعد ذلك كسلفي بالفكر الغربي والحضارة الغربية. وإن ما يستوقفنا حقا في هاتين التجربتين ويفرض علينا التنويه به هو احتفاظ «المختار السوسي» في آخر كل تجربة أو اصطدام بفكر متفتح يُبقي دائما على فُرص الحوار، مراعيا في ذلك ضرورة التطور وسُنة التغير، رغم ما قد يجره ذلك التطور وهذا التغير من شعور بالأسى والرغبة في الانطواء وضعف القدرة عن التأثير في الأحداث المستجدة، خاصة بعد تجربة سلفية غنية بدا أنها مع ذلك كانت حبلى بنقائض لم تكن متوقعة...

أهل الكهف ومشكلة الغربة :

وإننا لنقف في الجزء الأول من «المعسول» على محاولة المختار السوسي اختزال تلك التجربة الاشكالية والتعبير عنها بشكل صريح، حيث نجده يعترف(3) أن «من طبائع الأيام التحول من حال إلى حال... فما يألفه الأجداد حتى يكون جزءا من حياتهم قد يكون عند الأحفاد منكوراً. وما يكون منكوراً عند جيل قد يكون عند جيل آخر مألوفاً. وهذا ما يراه الانسان في نفسه [أيضاً]... سنة الله في الكون «ولن تجد لسنة الله تبديلا...». وهو بعد الاعتراف بقاعدة التحول هذه يعود لينظر من خلال تعاقب الأحداث في المغرب الحديث ومن ثم لينظر إلى نفسه كأحد العناصر المتفاعلة مع تلك الأحداث : «فقد كنا ــ يقول المختار السوسي ــ نحيا في بيئة لا تكاد تمتُّ إليها هذه البيئة الجديدة [المغرب] بأي لون كنا في دين وعادات وفي أفكار ومقاييس وفي أوضاع. ثم ها نحن أولاء مندفعون إلى ما يعاكس ما ألفناه على خطٍّ مستقيم... [وكنا] لا نظن أن هناك من يحيا حياة طيبة مثلنا... **يوم كنا في عزلة عن العالم...**

«وفي هذا اليوم دهم علينا الاستعمار بخيله ورجله، بلونه وفكره، بسياسته ومكره،

---

(3) «المعسول» ج 1، ص ا، ب، ج ، د.

بحضارته المشعة، بعلومه الحيوية المادية، بنظامه العجيب، بمعامله المنتجة؛ بكل ما يمت إلى الحياة الواقعية. **فوقع لنا كما وقع «لأصحاب الكهف» يوم رجعوا إلى الحياة،** قد وجدوا كل ما يعرفونه قد تغير تغيراً تاماً...»(4).

والتشبيه «بأصحاب الكهف» هنا تشبيه جميل وذو دَلالة بعيدة من حيث أن اصطدام المفكر المغربي بأنماط الحياة الأوروبية الوافدة والمفروضة كانت بمثابة استيقاظ من سبات عميق أو غفلة سحيقة، وانتقال من عالم الغفلة إلى عالم الحياة الواقعية، عالم الحياة الفعلية، الشيء الذي كان من شأنه أن يحدث رجّة عنيفة في النفوس كتلك التي تعرض لها «أهل الكهف» من جراء اصطدامهم بزمان لم يعد هو زمانهم وبأناس لم يعودوا يستطيعون التعرف عليهم، ولا التفاهم معهم... فيقتنع المفكر السلفي، فضلا عن الصوفي الطرقي، بأن عجلة التغيّر والتطور أصبحت مستعصية على التنبؤ وغير قابلة للضبط، مما يطرح بحدة مشكلة **الغربة** والشعور بعدم الانسجام الشيء الذي يفترض ضرورة القيام بنشاط **التوفيق**. ذلك أن المغرب أقبل على «الحضارة الغربية العجيبة التي تُغير على جميع نواحي الحياة. فتُحدث من التغيير ما يجرف التقاليد والأفكار... فإذا المغرب يتحول في عهد قصير إلى مغرب آخر يغاير كل ما كان معروفاً منه في الأمس. فإذا بأمثالنا **نحن** الذين كنا نعيش في شرخ الشباب في المغرب [قبل الحماية]... قد كدنا نكون **غرباء** في طور شيخوختنا في المغرب المستقل...»(5).

وفي خضم هذه التجربة الجماعية والفردية سواء اتجاه هذه الحضارة الغربية الجارفة أو تجاه ذلك الفكر السلفي النقدي لم يفتأ «المختار السوسي» يؤكد رغم ذلك أنه «ابن زاوية» وابن بيئة أمس، مؤمن بالروحيات الصادقة. فأقبل «خرق العادة» إن صح أن ذلك واقع، ولذلك يعذرني من ليس له هذا الايمان... فله دينه ولي ديني...»(6). وهذا الموقف الأخير إن دل على شيء فإنما يدل على الطابع الاشكالي الذي هيمن على تجربة «المختار السوسي» حين خروجه من عالم الغفوة، عالم أمس، إلى عالم ينزع نحو التغيير والتجديد ونحو النقد و«تصفية الحساب» مع عناصر وأسباب الإنحطاط. ولكن المختار السوسي بالرغم من مسايرته لكل ذلك — كما سنرى —

(4) المرجع السابق.

(5) نفسه.

(6) نفس المصدر.

حريص على الابقاء على «الأصلح» في ذلك الموروث من مغرب أمس، ومتصدّر لعملية التوفيق التي يتطلبها سواء الدخول في الحوار مع الفكر السلفي الجديد أو حتى مع الفكر الغربي الوافد... وتلك هي اشكالية هذه التجربة الغنية التي نود تشخيص بعض معالمها في فكر الصوفي السلفي «محمد المختار السوسي».

مقدمـة

لأجل ذلك نود أن نوضح ولو قليلا بعض الخلفيات النظرية لتلك الأزمة(7) الأولى التي سنخصص لها هذا العرض. إذ الفكر الصوفي شعر هو أيضا وقبل الفكر السلفي الحديث أنه لا يكتسب استقلاليته إلا على حساب الفقه (وهو الميدان الذي سيتولاه الفكر السلفي بالاهتمام والتجديد) وبفضل مواجهته للموقف الفكري والسياسي للفقهاء، ومن ثم محاولته احتواء الفقه وإعادة تأسيسه على أسس صوفية. وذلك اعتباراً لكون المعاملات ــ التي في ميدان الاجتهاد الفقهي ــ لا تكتسب قيمتها إلا بالنظر إلى مقاصدها تبعاً للنوايا التي تحركها و«إنما الأعمال بالنيات»، والنيات ودقائق النفس هي، كما سيقول «ابن خلدون» محور الفكر الصوفي، مادام معتمده هو «تطهير البواطن»... وهكذا وعلى الخط المقابل لموقف الفقهاء من رغبتهم تهميش التصوف وإعطاء الفقه وحده المنزلة التي لا تدانيها منزلة علم آخر في المجتمع الاسلامي، على عكس ذلك يرى المتصوفة أن التصوف هو بالأحرى الذي يتوقف عليه كل علم وخاصة الفقه ؛ وإذ ما دام «مقصود التصوف تصفية البواطن» وإخلاص النية «فكل علم يُتوقف عليه، إما من باب الشرط أو الكمال»، لانه المقصود من كل علم «صدق التوجه إلى الله» والاخلاص، مما يفرض تصفية البواطن من دقائق الرياء، وهو الأمر الذي إن افتقده الفقيه فقد معه كل إيجابيته الاسلامية، فالأعمال بالنيات... وبذلك أصبح من السهل على الصوفية أن يقبلوا المعادلة، فيدافعوا عن التصوف كأساس للفقه و«الكلام» وليس العكس...

إذا لا مبرر بعد ذلك لاعتراض الفقهاء على المتصوفة واتهامهم لهم «بالابتداع»، خاصة إذا علمنا أن الفقيه سيظل غافلا عن حقيقة الفقه نفسه ما لم يعلم أسس

(7) لا يمكن الوقوف على قيمة «المختار السوسي» دون مقارنة مواقفه بمواقف زملائه وأمثاله من المفكرين. وللمنهج المقارنة أهميته التي لا تخفى على أحد. وهذا موضوع هذه المقدمة التي تشكل القسم الأول من هذا البحث.

الأعمال الدائرة تحت حكمه، مثل التوبة، التقوى، الصدق، الاستقامة... مما يدخل فعلا كما قال «ابن خلدون» في دقائق الخواطر والنوازع التي تدخل تحت دائرة التصوف. فلا اعتراض إذن للفقيه على مشروعية التصوف ؛ وإلا فلا تفسير لذلك إلا بالاسباب السياسية وحب الرياسة. فمثل هؤلاء الفقهاء، كما يقول أحد الصوفية المغاربة(8) «ينكرون الخصوصية لغيرهم ويثبتونها لنفوسهم، وهو الجهل المركب» ! من هنا ندرك سر دفاع طائفة واسعة من المتصوفة عن تمسكهم بالسنة والشريعة ورفضهم للابتداع المتَّهمين به وفرارهم في وجه الساعين إليهم من أصحاب الجاه والسياسة ؛ محاولين من خلال فكرهم وتنظيماتهم الطرقية ورباطاتهم أن يثبتوا ارتباطهم الشديد «بالأمة». وقد وجدوا في فكر «الشاطبي» و«ابن خلدون» — رغم نقد هذين الأخيرين لبعض مظاهر التصوف(9) — ما يغني هذه النظرة الإيجابية للتصوف التي طالما نازع فيها كبار الفقهاء.

وسوف تعمل ظروف حضارية معقدة، لسنا بصددها الآن، على تغليب كفة ميزان التصوف خاصة في صورته الطرقية، وبالاخص في المغرب، ممّا جعل من الطرقية ميداناً يتسابق الفقهاء أنفسهم للانتساب إليه والاحتماء بنفوذه الذي شمل سائر الأوساط الفكرية والاجتماعية والسياسية إلى درجة أن الكتابات التاريخية الاستعمارية أبت إلا أن ترى في ذلك النفوذ الطرقي الذي اصطدمت به، خاصة في البوادي والقرى النائية، علامة تمييز وصراع بين «إسلام حضري» (إسلام العلماء والمخزن) «وإسلام شعبي» بدوي بربري ! ! وبغض النظر عن قصور هذه الرؤية التجزيئية للأديولوجية الاستعمارية، فإنها تسجل بطريقة غير مباشرة طبيعة الفكر المغربي الطرقي السائد والذي كان عليه أن يتخذ موقفاً تجاه ذلك الاستعمار الوافد، وقبل ذلك تجاه الفكر السلفي الجديد الذي بدأ يهدد «الطرقية» في نفوذها الذي يضرب في الأعماق النفسية والجغرافية على السواء...

وهكذا، وبمقابل كل ذلك، نجد الحركة السلفية الحديثة منذ القرن الثامن عشر للميلاد تتخذ من التصوف الطرقي أساساً لعملها ولمشروعها الاصلاحي، وموضوعاً تحاول عن طريق نقده الجذري إبراز «قطيعتها» معه ؛ باعتبارها للتصوف الطرقي

(8) أحمد بن عجيبة : «الفتوحات الالهية» ج 2، ص 185.
(9) بخلاف موقف الفقهاء، انظر الموقف الايجابي «لابن خلدون» من التصوف في كتابه «شفاء السائل» وانظر أيضاً موقفاً مشابهاً عند «الشاطبي» في كتابه «الاعتصام».

كأبرز مظاهر «الابتداع»، إن لم يكن هو سببه ومصدره، وبالتالي أوضح مظاهر التخلف العائقة عن «النهضة» المزدوجة : القدرة على استلهام عهد السلف الصالح، والتمكن من مسايرة ركب التقدم الاوروبي الذي أصبح نموذجاً لا مفر من استلهامه هو الآخر...(10) ويمكن القول ان إعلان العداء للطرقية ــ المثبط الاساسي لكل نهضة داخلية ــ كان هو رمز وعنوان الالتزام بالذكر السلفي الذي لا يقبل بغير القطيعة مع ما اعتبر رمزا لعهود الانحطاط... لكن إلى أي حدّ تصدق تجربة هذه القطيعة في الفكر السلفي الحديث ؟ هل كانت عملية بسيطة سهلة، أم أنها ــ نظرا للوقع الاجتماعي للفكر الطرقي ــ اقتضت الدخول في صراع بين عناصر اجتماعية تاريخية وأخرى فردية سيكولوجية ؟

من الناحية النظرية يمكن القول إن طبيعة وبنية الفكر الصوفي لاتتعارض مع مسلمات الفكر السلفي، ومفهوم «السلف» يلعب هو الآخر دوراً إجرائياً مهماً في الفكر الصوفي، كما أن الرغبة والحرص على التوفيق بين الشريعة والحقيقة شيء ثابت في ذلك الفكر، وسوف يأخذ نشاط التوفيق من الفكر السلفي أيضاً وقتاً ليس بالقصير... أما على المستوى الواقعي والتطور التاريخي، فيمكن أن نلاحظ أن حدة تلك المواجهة السلفية ضد الفكر الطرقي بدأت تخف لدى الفكر السلفي شيئاً فشيئا كلما ابتعدنا زمنيا عن بداية «عصر النهضة» الحديثة ؛ وقد ولّد الجدال بين الفريقين محاولات توفيقية لدى هذا الجانب أو ذاك. غير أننا يجب أن نفترض أن بعض تلك المحاولات لم تكن، على المستويين السيكولوجي والاجتماعي، خالية من الصراع، خاصة إذا وضعنا بالحسبان أهمية ضغوط الاصلاح وضرورته، بجانب ضغوط التراث الصوفي ــ الطرقي المتفشي ليس بين العامة فحسب بل وأيضاً بين كبار الفقهاء والمتعلمين ورجال المخزن...

إذن ما هي بعض مظاهر هذا الصراع، خاصة في تاريخ المغرب الحديث ؟ وماهو حظ القطيعة أو الاتصال في ذلك الصراع ؟

I ــ نبدأ بالوقوف قليلا عند تجربة متميزة في المغرب الحديث، ألا وهي تجربة «المولى سليمان» مع الفكر الطرقي. ولا يمكن القول هنا إن «الوهابية» التي بدأت ترد

(10) من هنا سرّ اعتماد الفكر السلفي في هذه المواجهة النقدية على تراث «ابن تيمية» و«ابن القيّم» و«الشاطبي»، وهو تراث مليىء بالنقد وتتبع مظاهر الابتداع والزيادة في الدين ما ليس منه...

أخبارها على المغرب في هذا الوقت كانت السبب في قيام «المولى سليمان» بمواجهته للفكر الطرقي، وذلك باعتبار أن اتخاذ السلف «كنموذج لاصلاح الاوضاع الفكرية والاجتماعية كان معروفاً وممارساً من قِبَل والده السلطان محمد بن عبد الله، هذا الأخير الذي لم يواجه الطرقية فحسب بل واجه عقلية الفقهاء المتأثرة — ولو بطريقة غير مباشرة — بروح الاتجاه الطرقي...(11) ونحن نفترض أن السلطان سليمان قد تردد طويلا في الدخول في مواجهة مع الفكر الطرقي خاصة بعد أن رأى رفض الفقهاء والصوفية معاً للأفكار الوهابية المعادية للطرقية. غير أنه بعد رجوع وفد الحج المغربي الرسمي(12) برئاسة ابنه «ابراهيم» شرع المولى سليمان يجرب نفوذه وضغطه بوحي من اقتناعه بالمسلك القديم لوالده، ومتأسياً بالنجاح الذي حققه الوهابيون بالحجاز ؛ فدخل في صراع مع «متفقرة الوقت» الذين نفترض أنهم كانوا مُسانَدين من طرف قِطاع واسع من الفقهاء أيضاً. غير أن السلطان سليمان، رغم اتخاذه في هذه المواجهة موقفاً سلفياً واضحاً، إلا أنه قد حرص مع ذلك أن يبقى على نقاط الاتصال بين دعوته السلفية وبين ما اعتبره يشكل روح وجوهر الفكر الصوفي — الطرقي. فهو يعتبر، مثلا، أن علينا «أن نقتدى بسبعة رجال ولا نتخذهم آلهة...»، وأن بدع المواسم التي يجب أن تُمنع بالقوة يُؤتى فيه من المنكر ما شدّد عليه كبار الصوفية... ولعل محاولته التوفيقية هذه بجانب حذوه في التعامل مع الطرقية كقوة اجتماعية وسياسية هما اللذان جعلاه يقرب إليه بعض كبار الطرقيين في عصره واستثمار نفوذهم لتحقيق أغراض سياسية، وذلك مثلما تمثل في إسناده للشيخ «العربي الدرقاوي» مهمة حل المشاكل السياسية بين الجزائريين والمحتلين الأتراك... بل إن «الناصري» حاول في «الاستقصا» أن يبين أن المذهب الصوفي للشيخ «أحمد التجاني» يسير في نفس الاتجاه الاصلاحي الذي نادى به كلٌّ من السلطان سليمان والوهابية...

وربما يكون من المثير للاستغراب أن ينجح المشروع الوهّابي في إجتثات الفكر

(11) لايجب أن ننسى أن السلطان «محمد بن عبد الله» قد دخل في حوار ساخن مع شيخ الجماعة بفاس وكبير علماء القرويين «التاودي بنسودة» حول المؤاخذات التي أخذها السلطان المذكور على بعض كبار الفقهاء المغاربة والمشارقة (القاضي عياض وتاج الدين السبكي) من وجهة نظر سلفية حنبلية، ودفاع «بنسودة» عن أولئك العلماء كان أشبه ما يكون بدفاع المريد الصوفي عن عصمة شيخه...

(12) انظر طبيعة الحوار الذي دار بين أعضاء الوفد المغربي وبين الوهابيين عند «الناصري» في الاستقصا ج 8 ص 119 وما بعد...

الصوفي ــ الطرقي رغم عدم استناد الوهابية إلى دولة قوية، وقد استندت إلى مجرد سلطة فتية، في حين أن السلطان سليمان قد فشل في تقليص نفوذ الطرقية فضلا في القضاء عليه، رغم استناده على قوة «المخزن» الذي يملك تقاليد سلطوية عريقة. وهذه المفارقة إن دلت على شيء فعلى تغلغل الفكر الصوفي الطرقي بالمغرب وصعوبة اقتلاعه لأمن البادية ولأمن الحواضر، وهو الشيء الذي فرض على المولى سليمان أن يحاول التوفيق بين الاتجاهين السلفي والطرقي، بدل التفكير في القضاء على أحدهما ليحيا الآخر. إلا أنه يجب الاعتراف أن محاولة المولى سليمان هذه لم تثمر بذورها وباءت بالفشل اعتباراً لعدة عوامل، أهمها الاضطرابات السياسية التي كان الطرقيون أهم أطراف النزاع فيها، إضافة إلى ضعف شخصية السلطان سليمان، بالمقارنة مع شخصية والده. وقد سبق للمولى سليمان أن فشل، قبل هذه المواجهة مع الطرقيين، في مواجهة مماثلة مع الفقهاء، هؤلاء الفقهاء الذين استطاع والده أن يفرض عليهم برنامجه التعليمي الاصلاحي ذي المنحى السلفي ؛ وبمجرد أن عاجلته المنية كرَّ الفقهاء على المولى سليمان الذي سرعان ما خضع لضغوطهم، فتراجع عن إصلاح القرويين وأبقى «دار لقمان» على حالها طلباً للسّلامة... !

II ــ ذلك نموذج متعدد الجوانب للصراع بين السلفية الناهضة والطرقية المتجذرة، وتلك محاولة فاشلة على ما يبدو للتوفيق بينهما. إلا أننا لا نعدم محاولات فردية شخَّصت فعلا ذلك التوفيق أو التوافق الذي اعتُبر مستحيلا ؛ ويتعلق الأمر هذه المرة بشخصية معاصرة للسلطان محمد بن عبد الله، اعتُبرت كأحد أقطاب الفكر المغربي في هذا العصر. ألا وهي شخصية الفقيه أحمد الورزازي الكبير (ت 1179هـ) الذي سبق له أن زار مصر وناظر فقهاءها وكان يميل إلى تحكيم العقل، كما لم يكن متقيداً بالمذهب الأشعري في الاعتقاد(13). وان الأوصاف التي تركها لنا «الحضيكي» في طبقاته عن «أحمد الورزازي» لتجعلنا نعتبر هذا الأخير أقرب نموذج، من السلطان محمد بن عبد الله، إلى روح السلفية الجديدة، وذلك لاشتهاره بالخروج عن «علم الفروع» والأخذ ليس من الحنبلية التي وقف عندها السلطان المذكور، بل إنه لم ير مانعاً، طلباً لاستقلاله الفكري، أن يستفيد حتى من كتب الاعتزال التي كانت مُحاصرة في المغرب، حتى اتُّهم في ذلك وسُجن بسببه... لكن ما يثير انتباهنا أنه مع

(13) محمد داود : تاريخ تطوان، م 3، ص 85 نقلا عن «طبقات الحضيكي».

سلفيته الواضحة كان الفقيه «الورزازي» يشترك مع الشيخ العربي الدرقاوي في التلمذة على الشيخ الصوفي «علي العمراني» الملقب «بالجَمل». بل، وكما ينقل ذلك «ابن القاضي» (14)، فإن الورزازي قد أصبح بفضل تأثير شيخه في التصوف يتخذ مواقف يصح أن تنعت بالسلفية السياسية، اعتباراً لانغماس الفكر الطرقي المغربي في الممارسة السياسية. وقد كانت للورزازي مواقف سياسية مشهودة مع السلطان محمد بن عبد الله سواء ضد ظلم بعض الولاة أو ضد المحاولات الأولى للتسرب الاوروبي إلى المغرب، وقد نقل «الضعيِّف الرباطي» بعض تلك المواقف في تاريخه...

III ــ إذا جاز اعتبار الفقيه «الورزازي» نموذجاً تمثلت فيه عملية التوافق والاتصال بين التيار السلفي والتيار الطرقي، وهو اتصال تم لديه بالانتقال من الموقف الأول إلى الموقف الثاني، دون أن يعنى ذلك عنده أي إلغاء لأحد التيارين... فإننا بالمقابل نجد أنفسنا أمام عملية عكسية يتزعمها الشيخ «العربي الدرقاوي» وبعض كبار تلامذته بالمغرب والجزائر ؛ حيث نجدهم ينتقلون من موقفهم الصوفي الطرقي الأصلي إلى تقمص أدوار طالما حلم وسيحلم الفكر السلفي الجديد بالنهوض بها. ويتجلى ذلك في الأدوار الطلائعية السياسية التي قاموا بها على المستوى الداخلي والخارجي. واذا علمنا أن البعد التحريري الجهادي سيكون أهم ما ستركز عليه السلفية الجديدة في دعوتها، فإننا نستطيع القول إن هذا العمل قد أخذ نصيب الأسد من نشاط العربي الدرقاوي وتلامذته :

ــ وإن الوقوف على النشاط السياسي الايجابي الذي لعبه الثائر الجزائري، عبد القادر بن الشريف الفلّيتي، وبتشجيع من شيخه «العربي الدرقاوي»، والنجاح الذي حققه ضد الأتراك، لأوضح دليل على ما كانت تود حركات سلفية القيام به في المشرق ضد الاحتلال التركي دون جدوى، فيما عدا الحركة الوهابية. والمهم أن المفاهيم السلفية كانت قابعة وراء هذه الحركة الصوفية المسلحة، ولم يرفع «عبد القادر بن الشريف» يده عن الاتراك إلا بعد أن التمس الوالي العثماني من «المولى سليمان» التدخل ؛ فأرسل هذا الأخير إلى الجزائر الشيخ العربي الدرقاوي الذي أقنع تلميذه الثائر برفع الحصار عن الاتراك، فامتثل لأوامر شيخه بعد أن أوصى خصومه «على

---

(14) محمد المهدي ابن القاضي «النور القوي في ترجمة مولاي عبد الواحد الدباغ وشيخه مولاي العربي الدرقاوي».

الرعية، وعلى الحكم بالعدل بينهم بالسوية... فها أنا ـــ يقول لهم ـــ (15) أعرضت عن الرياسة وطاوعتُ شيخي في الخمول الذي هو أنفع سياسة. وان أحسنتم إلى الرعية أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها...». ومن المعلوم، وكما يقول احد النصوص الدرقاوية الجزائرية، فإن العديد من الجزائريين قد فروا رغم ذلك إلى المغرب بعد أن تكرر ظلم الأتراك لهم «فرقّ [المولى سليمان] لهم وأمدّهم بالعطاء وتخوّلهم بالصدقات... حتى كان عطاؤه إياهم كالراتب المفروض»(16).

ـــ وبعد حوالي ستين سنة يرتفع صوت أحد الدرقاويين من قلب الجنوب المغربي في «تافيلالت» محذراً الأمة بأجمعها من خطر الاستعمار الوشيك الوقوع، منبهاً إلى أن التغلغل الاقتصادي للاوروبيين في المدن السّاحلية مقدمة لاحكام الخناق على المغرب الذي لا مفرّ له إلا الجهاد...ويتعلق الأمر «بمحمد العربي بن الهاشمي العلوي المدغري» (تـ. 1309هـ ـــ 1892م) الذي وزع منشوراً يدعو فيه إلى الجهاد، وهو منشور، مطبوع في آن واحد بطابع صوفي ـــ سلفي. وقد ربط هذا الجهاد بضرورة النصيحة والتناصح، خاصة النصيحة لائمة المسلمين التي تعنى كما يقول : «معاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به وتذكيرهم برفق ولطف، وأعلامهم بما غفلوا عنه من حقوق المسلمين، وترك الخروج عليهم وتألف قلوب الناس لطاعتهم...» و«من لم يقبل النصيحة خاف على نفسه الفضيحة»(17). ويتأكد الطابع السلفي لديه في إسناده مهمة النصيحة للعلماء، فالعالِم كما يقول : «وزير الله في خزائنه، ولسانُه سيف الله يدب به عن محارمه...». وسوف تنال مثل هذه الشخصيات منزلة ممتازة في تراجم «المعسول» للمختار السوسي وغيره من كتبه. ولا ريب أيضاً أن مثل تلك المواقف السياسية نماذج إيجابية سيفتقدها الفكر السلفي لدى العديد من الفقهاء والطرقيين على السواء في أواسط هذا القرن، وهي بذلك أصبحت نماذج صوفية ـــ سلفية في آن واحد. وربما كان في هذا كله شر تحامل الكتابات الاستعمارية على مثل تلك المواقف والانتفاضات ووصفها الدرقاويين

---

(15) انظر ذلك في رسالة مخطوطة نشرناها في مجلة «دار النيابة» الصادرة بطنجة، العدد الخامس، شتاء 1985. ص 11 ـــ 14.

(16) نفس المصدر.

(17) انظر هذا المنشور ضمن رسائل أخرى في مخطوط، مجموع رقم 3353 د بقسم الوثائق. الخزانة العامة بالرباط.

خاصة، بالشوفينية والتعصب والتطرف، نظراً لمواقفهم السابقة بالجزائر أو لمواقفهم المتأخرة بالمغرب في تافيلالت و«توات»، مقابل مدح تلك الكتابات لمواقف الطريقة الوزانية مثلا التي ساهمت بالعكس في فتح باب «توات» على مصراعيه أمام الحملات الفرنسية(18)...

IV — تلك مواقف تنم عن شيء غير قليل من التداخل بين الطرقية وبين أسس الفكر السلفي الحديث، هذا الفكر الذي كانت تُردد صداه جنبات القصر المخزني أيضاً مما حدا بأحد الموظفين المخزنيين، المؤرخ الشهير «أحمد أكنسوس» أن يدخل في تجربة تجاذبته فيها تلك المبادىء السلفية وأسس طريقته التجانية، وأن يخوض **صراعاً فكرياً** مع أحد الطرقيين القدامى، مما يعكس في الأخير انشغال المثقف المغربي أواخر القرن التاسع عشر بمشكلة «المعاصرة» على طريقته الخاصة. ومن جهة أخرى، نظن أنه من الصعوبة بمكان التمييز في شخصية ومواقف «محمد ابن عبد الكبير الكتاني» بين الجانب الصوفي — الطرقي والجانب السلفي، خاصة وقد سجلت حياته انتقالاً من الاهتمام بالفقه ومحاربة البدع وممارسة الاجتهاد إلى الانخراط في سلك التصوف الطرقي، مع محاولة البقاء، مع ذلك، في نفس الخط السلفي الذي تجذر لديه بانكبابه على المصنفات السلفية الحديثة القادمة من المشرق («روح المعاني» للألوسي، مثلا)، بل أكثر من ذلك إن هذا الخط السلفي قد امتزج لديه، وربما تحت تأثير التنظيم الصوفي — الطرقي، بالبعد السياسي، فأصبح فارس هذا الميدان ومتصدر القوم في التعبير عن الرغبة في التغيير السياسي... ولا ريب أن محاولته التصحيحية في المجال الطرقي ومواقفه في مجال نشر علوم الحديث والتفسير، بجانب مواقفه السياسية الايجابية، أمور لن تفلح السلفية الجديدة في النهوض بها إلا في وقت لاحق. ويكفي أن نقف على الخط السلفي الجديد في تفكيره من قوله(19) : «وقد علمتم ما وصل إليه الأجانب اليوم من النفوذ في العالم، فإنما وصلوا لذلك بأمور ومنها **الحرية** التي عبر

(18) وقد قال الجنرال P. G. ANDRE في كتابه : Contribution à l'étude de confréries religieuses musulmanes، طبعة الجزائر، 1956 : «إن الطريقة [الوزانية] قد سهلت أيضاً احتلال «توات» كما سهلت [بعد ذلك] التسرب الفرنسي للمغرب» ص 242. وانظر أيضاً نفس الاعتراف عند DRAGUE, G. في كتابه : Esquisse d'histoire religieuse du Maroc ص 236. كما يمكن الوقوف على وجهة نظر استعمارية أخرى حول انتفاضات الدرقاوية فيما كتبه A. Cour في الترجمة العربية لدائرة المعارف الاسلامية، ج 9.

(19) محمد الباقر الكتاني : ترجمة الشيخ محمد الكتاني، الشهيد، ص 34.

عنها الشرع الكريم بالقسط والعدل(20)، والنصح وعدم المحابات والقيام في كل موطن وما يقتضيه، ومعرفة كل منصب وما يطلبه، وعدم إهمال بعضهم بعضاً، ومعرفتهم بحق من ظهر فيه أدنى نبوغ وتيقظ، وعدم إهماله حقه، وعدم رفضه، بخلاف غيرهم». «ومحمد الكتاني» الطرقي يساهم أيضاً، وربما قبل أن يفعل ذلك السلفيون المغاربة، في معالجة المشكل الأساس في الاتجاه السلفي الحديث، مشكل تفسير الانحطاط والوقوف على أسبابه، وفي رأيه «أن من أسباب انحطاط الأمة الاسلامية في كل صقع إهمال من نبغ فيهم، كاتباً أو شاعراً أو مشيراً أو صانعاً يحسن صنعة... يرمونه رمية واحدة عن قوس واحد. ولم يكن صدر الإسلام كذلك. ومن أسباب انحطاط الملة عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واشترطوا له شروطاً قلَّ أن تتفق، فعرقلوا مساعي الشرع بتلك الشرائط... ومن أسباب انحطاط الملة ذكر الاحكام مجردة عن أسرارها، وقول أهل الفروع : «هذا تعبدي»، هو عجز منهم عن بيان الحكمة والسّر. والشرع كله مكشوف لأهل العلم بالله، ليس عندهم فيه شيء غير معقول المعنى...»(21).

وإن في التأييد لمواقف محمد الكتاني والذي عبر عنه أمثال «الشيخ ماء العينين» والشيخ «أبو شعيب الدكالي» والمجاهد «محمد بن عبد الكريم الخطابي»(22) لدليلا على النجاح الذي حققه محمد الكتاني في سبيل التوفيق بين التصوف والسلفية، وعلى الوقع الممتاز الذي يحتله لدى كبار ورواد الفكر السلفي والسياسي بالمغرب الحديث. ويجوز القول أخيراً أن مصير محمد الكتاني كان ضحية ذلك الجمع بين التنظيم الطرقي والفكر السلفي، وهو وإن كان لم يعش في ذلك الجمع صراعاً سيكولوجياً ذاتياً، غير أن ذلك الجمع سبب له صراعاً على المستوى السياسي، كان هو أول ضحاياه قبل أن يلحق به مباشرة الضحية الثانية الذي كان هو المغرب بأجمعه. فاستشهاد محمد الكتاني اقترن، حسب تفسير المجاهد عبد الكريم الخطابي «باستشهاد أمة كاملة وهي أمة المغرب»(23) بعد معاهدة الحماية...

---

(20) مثل هذه المقارنة بين الشرع والمبادىء السياسية الاوربية نجدها أيضاً عند «الطهطاوي» في رحلته «الابريز».

(21) نفسه، «ترجمة الشيخ محمد الكتاني».

(22) انظر نفس المرجع، ص ا، ب، ج، 1. وص 122 — 126.

(23) نفس المصدر، ص ا.

٧ ــ نود الآن متعمدين الخروج مؤقتاً عن الاطار الجغرافي الذي سرنا فيه منذ البداية لرصد مظاهر **الصراع** الذي نعالجه لنلقي نظرة سريعة على تجربة بعيدة جغرافياً، ولكنها قريبة فكرياً من الحالات التي عالجناها، سواء من حيث موقعها من الطرقية أو من الفكر السلفي الاصلاحي، ألا وهي تجربة المفكر السلفي الشيخ «محمد عبده» في مصر، وذلك قبل الحديث عن تجربة ضمت شخصيتين تأثرتا بمنهجه السلفي، لكنهما سارتا به في اتجاه راديكالي بالنسبة لموقف محمد عبده من الطرقية. وان مراجعة سريعة لحياة محمد عبده كما كتبها بقلمه (24) تبين مدى الانقلاب الايجابي الذي لعبه التصوف المغربي في حياة هذا السلفي. فمطالعته لكتب بعض الصوفية المغاربة وتحت إرشاد أحد أقربائه (الشيخ درويش) جعله يعترف قائلا(25) : «...وقد رأيتني أطير بنفسي في عالم آخر غير الذي كنت أعهد، واتسع لي ما كان ضيقاً... وعظم عندي من أمر العرفان [والعلم الذي كنت أعرف عنه]... ولم أجد إماماً يرشدني إلى ما وجّهتُ إليه نفسي إلا ذلك الشيخ [درويش] الذي أخرجني في بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة، ومن قيود التقليد إلى اطلاق التوحيد...».

والظاهر أن محمد عبده يحتفظ بأجمل الذكريات عن تجربته الصوفية هذه والتي يعتبرها الممهد المباشر لاقباله على جمال الدين الأفغاني وتحوله الكلي إلى الاتجاه السلفي، وربما كان هذا الاقبال راجعاً أيضاً إلى «الشيخ درويش» نفسه الذي خاطب مريده المعتزل قائلا(26) : «إلى متى هذه العزلة وما الفائدة في العلم وتحصيله إذا لم يكن لك نوراً تهتدي به ويهتدي به الناس ؟ » ويعترف محمد عبده أن الشيخ المذكور كان يتعمد مصاحبته إلى المجالس العامة ويثير فيها المسائل للنقاش ويدفع مريده إلى الخوض فيها وإبداء رأيه حولها... وما لبث أن توفي هذا الشيخ المربي، فكان المصلح جمال الدين الأفغاني هو الذي تلقف المريد القديم وأكمل تربيته، ولكن نحو اتجاه جديد، قد لا يتناقض مع ما تلقاه المريد سابقاً، إلا أنه يختلف عنه في الشكل لاختلاف الظروف والحيثيات... ومما يدل على هذا الحنين عند محمد عبده نحو تلك التجربة الصوفية ما قبل السلفية أنه حين يئس من إصلاح الأزهر

---

(24) محمد رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام. ج 1، ط أ وص.1350هـ ــ 1931م. ص 21 ــ23، 106 ــ 107.

(25) المصدر نفسه، ص 23.

(26) نفسه ص 107.

والعقلية الفقهية الجامدة المسيطرة عليه أعرب لتلميذه محمد رشيد رضا(27) عن رغبته في التصدر للإرشاد الصوفي طمعاً في الاصلاح الطرقي بعد فشله في الاصلاح الفقهي، وبذلك يحقق اتصالا بين الاصلاحين السلفي والطرقي معاً.

لكن يبدو أنه كما يئس محمد عبده من إصلاح الأزهر، فإن تلميذه رشيد رضا يئس من كل إصلاح للفكر الطرقي الذي كان شيخه يود إصلاحه. لأن الصوفية في رأيه «هبطوا إلى أسفل سافلين»(28). ومن ألطف ما يحكيه رشيد رضا تلك الرغبة التي أبداها لصديقه «عبد الرحمان الكواكبي» في أن يختارا مجموعة من الدعاة السلفيين وتكليفهم برئاسة الطرق الصوفية والتظاهر بالانتساب إليها تمهيداً لاصلاحها وجرها شيئاً فشيئاً نحو السلفية الجديدة. غير أن «الكواكبي» بادر بإعلان فشل هذا الأسلوب قائلا لرشيد رضا(29) : «إننا جربنا ذلك. فأقنعنا رجلا من أمثل هؤلاء [العلماء]... فكان عاقبة أمره معهم، أن أفسدوه ولم يصلحهم، فأنس بهذه الرياسة وآثرها، فخسرناه بها ! »

VI ــ هكذا نستطيع القول إن المدرسة السلفية بعد محمد عبده سارت، بوجه عام، في هذا الاتجاه الأخير، وحملت شعار القطيعة مع الفكر الصوفي. ثم ردد فكر المغرب العربي ذلك الشعار، فنهض «ابن باديس» يصارع الطريقة العَلْوية بالجزائر، ونهضت بالمغرب «سلفية جديدة» مصطبغة بالصبغة السياسية والوطنية. ومن الأفيد هنا، قبل الكلام عن موقف «محمد المختار السوسي» من المشكل المطروح، أن نلقي نظرة من صورة هذا المشكل لدى بعض زملائه وأبناء جيله، خاصة لدى سلفيين شهيرين هما شيخ الاسلام «محمد بن العربي العلوي» و«محمد تقي الدين الهلالي». واذا كان الأول لم يترك تراثاً مكتوباً يسجل بقلمه تجربته مع الفكر الطرقي، فإن الثاني قد أصدر منذ أزيد من عشر سنوات كتابا(30) ضمَّنه بعض مذكراته كطرقي مغربي تيجاني يعيش تجربة صراع فكري تجاه ضغوط التيار السلفي كما تمثل على يد الشيخ محمد بن العربي العلوي. وبغض النظر عن مصداقية بعض الأخبار التي يرويها «تقي الدين الهلالي» عن الصوفية ــ خاصة وهو معروف بموقفه الراديكالي العدائي منهم ــ فإن

(27) نفس المصدر ص 130.
(28) نفسه ص 129.
(29) نفسه ص 129.
(30) د. محمد تقي الدين الهلالي : الهديّة الهادية إلى الطائفة التجانية. ط 1 المدينة المنورة 1393هـ 1973م.

ما يلفت نظرنا هو الوقوف عند تجربته التي شكلت صراعاً وأزمة أدت إلى قطيعة واضحة مع الفكر الطرقي، بل والفكر الصوفي عامة.

نقف في تلك المذكرات على مقدار الضغط الذي كانت تمارسه الطرقية على الجيل السابق إلى درجة أن تفكير الفرد في الخروج من طريقته إلى طريقة أخرى يعتبر «كالخروج من الاسلام نفسه»(31) وإذن فالاصطدام وارد حين اصطدام الطرقيين بعضهم مع بعض، أو محاولة فريق جرَّ الفريق الآخر إليه، مثلما حاول أن يفعل مثلا «عبد الحي الكتاني» مع صاحبنا «الهلالي» الذي كان تجانياً مخلصا.
غير أن ما يلفت الانتباه في مذكرات هذا الأخير هو ذلك الجدل الذي دار بينه وبين عبد الحي الكتاني حول قيمة الطرقية، حيث اعترف له عبد الحي الكتاني قائلا(32) : «كل الطرائق [الصوفية] باطلة، وإنما هي صناعة للاحتيال على أكل أموال الناس بالباطل وتسخيرهم واستعبادهم». ويصطدم «الهلالي» التجاني لأول مرة بهذا الاعتراف ويتضاعف صراعه النفسي حينما يبرهن له محاوره «عبد الحي الكتاني» أن التجانية التي ينتمي «الهلالي» إليها هي، أيضاً، لا تصمد أمام النقد، وفي أحسن الأحوال ما يُنسب إلى «الشيخ التجاني» من «كتاب جواهر المعاني» ليس من املائه بل هو كتاب ملفق ومسروق...

غير أن هذا الموقف الأول الذي اصطدم به الطرقي التجاني ما زاده إلا تشبثا بتجانيته إلى أن سعى أخيراً للقاء الشيخ «محمد بن العربي العلوي» وكان هذا الأخير قد أصبح أحد أركان الدعوة السلفية. وقد تمخض عن ذلك اللقاء الأول تنظيم **مناظرة جدلية** يومية بين الطرفين طغى عليها روح **الصراع**، وأبانت للطرقي «الهلالي» تهافت حججه وقوة براهين «السلفي» ضد كل الطرق وخاصة ضد التجانية التي هي طريقته خاصة وأن محاوره السلفي سبق له أن مر بتجربة مماثلة حيث خرج هو الآخر عن التجانية بعد مناظرة مشابهة مع شيخه «أبي شعيب الدكالي».(33)

وهكذا نرى «تقي الدين الهلالي» يعترف قائلا(34) : «فعقدنا بعد هذا المجلس

(31) المصدر المذكور، ص 12.
(32) نفسه ص 14.
(33) نفسه، ص 22. ويذكر «الهلالي» أن مناظرة «الشيخ العلوي» معه لها أصل في أحدى كتب العالم السلفي «محمود شكري الألوسي» البغدادي.
(34) نفسه، ص 20.

[الأول] سبعة مجالس، كل منها كان يستمر من بعد صلاة المغرب إلى ما بعد العشاء بكثير. وحينئذ أيقنتُ أنني كنت على ضلال». وبذلك تم له الانقلاب وحُلت مشكلة الصراع لديه بالانتقال إلى السلفية، خاصة بعد أن عرف من محاوره أن «مقدم» الطريقة التجانية بالمغرب «الشيخ الفاطمي الشرادى» من أكبر مؤيدي الاتجاه السلفي كما تمثل عند «ابن العربي العلوي».

ومما يلفت الانتباه، بهذا الصدد، أن ينصح هذا الأخير «الهلالي» ــ وقد أصبح تلميذاً له، بعدم سؤاله «الشيخ الفاطمي» عن حقيقة موقفه من «السلفية» إلا في خلوة لوحده، حتى يستطيع البوح له بحقيقة اعتقاده، مما ينبيء عن درجة الخوف أو **التقية** التي كان يصطنعها شيخ التجانية مع أتباعه ! (35) وهو يبرر تقيته هذه بقوله لسائله(36) : «ياولدي ! أنا رجل كبير... ليس لي قدرة على القتال. أما سيدي محمد بن العربي العلوي فهو شاب مستعد **للقتال**... فاعلم أن ما قال لك سيدي محمد بن العربي العلوي هو الحق الذي لا شك فيه. وقد أخذت الطريقة القادرية وبقيت فيها زماناً، ثم أخذت الطريقة الوزانية وبقيت فيها زماناً، ثم أخذت الطريقة التجانية والتزمتها حتى صرت «مقدماً» فيها، فلم أجد في هذه الطرائق فائدة وتركتها كلها. ولم يبق لي من التصوف إلا طلب الشيخ المربى على الكتاب والسنة علماً وعملاً...».

ولا شك أن هذا الاعتراف يعكس الوضع المعقد، خاصة على المستوى الفكري، هذا الوضع الذي نجد إحدى صوره في غلبة الطابع السلفي لدى ذلك «المقدم» التجاني، كما نجد صورته الأخرى المقابلة في غلبة الطابع الطرقي لدى كثير من الفقهاء السلفيين، وقد أورد «الهلالي» مستغرباً ومستنكراً قصيدة للسلفي المغربي القديم محمد كنون، وهي كلها استغاثة بالشيخ «التجاني» وطلب لبركاته ؛ لم يسع «الهلالي» إلا أن يوصمها بالشرك ! (37)

وهكذا لا يسع «محمد تقي الدين الهلالي» بعد تجربته السالفة إلا أن يستنتج «أن هذه الطريقة [التجانية] كما في كتب أهلها وفي اعتقادهم لا يمكن الجمع بينها وبين

---

(35) نفسه.
(36) نفس المصدر ص 21.
(37) نفس المصدر ص 140.

إتّباع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ البتة»(38) إذن **فالقطيعة** هي الجواب الوحيد للفصل بين الطرقية والسلفية، أي بين العهد الجديد والعهد القديم، رغم أن هذه القطيعة تتضمن اتصالا جديداً، ولكن مع عهد أبعد، عهد السلف الصالح الذي كان من أهم مميزاته خلوه من الطرقية ! !

VII — وإذا كان المرحوم «علال الفاسي»، وهو أيضاً تلميذ لمحمد بن العربي العلوي، سيقف في البداية من التصوف ما يشبه موقف القطيعة الذي وقفه «شيخ الاسلام»، حيث سيركز على خطر الخيانات الطرقية(39)... غير أن ظروف مغرب ما بعد الاستقلال واتساع الأفق العلمي لعلال الفاسي في تاريخ الفكر الاسلامي، جعله يخفف من النزعة المتشددة لشيخه السلفي، ويرجع ليعترف أولًا بالقيمة الفكرية التي يحتلها التصوف في تاريخ الاسلام انطلاقاً من عصر النبوة. فالتصوف من هذه الناحية **متصل** بالسلف غير منقطع عنه، ثم ان علال الفاسي من جهة ثانية يؤكد، على القيمة الايجابية للتصوف الطرقي في تاريخ المغرب، خاصة منذ نشأة الرباطات الجهادية وقيام دولة المرابطين أما «إذا كانت ثمة منكرات أدخلت على القوم أو بدع تسربت إليهم... فأي جماعة لم يدنِّس فيها المبتدعون ؟ ! أم أي عقيدة لم تلتصق بها تلفيقات تحاول امتصاصها والقضاء عليها ؟ »(40).

أمامن ناحية الفعالية التاريخية ففي رأي «علال الفاسي» أن هذه الفعالية تجلت في صورتها الواضحة في تاريخ المغرب خاصة، إذ في رأيه أن التصوف المغربي امتاز بكون «معظم رجاله من أهل العلم بأصول الدين وفروعه، ولذلك فهم يعرفون كيف يكيفون آراءهم. وقلما تجدهم مصطدمين مع العلماء كما وقع في المشرق العربي...»(41). وبناء على هذه الرؤية التي يمكن اعتبارها رؤية تصحيحية في موقف الفكر السلفي، يستنتج «علال الفاسي» من كلامه السابق القائم على خصوصية

---

(38) نفسه، ص 22.

(39) علال الفاسي : حديث المغرب في المشرق. ص 10. ويمكن أن نقدر الحكم غير الموضوعي لعلال الفاسي في حق «الشهيد محمد بن عبد الكبير الكتاني»، إذ جاء ذلك الحكم أثناء محاولة الاستعمار دفع عبد الحي الكتاني للدعوة لعقد مؤتمر طرقي للمغرب العربي. فكان محمد الكتاني كبش الضحية لفضح خيانة شقيقه عبد الحي !

(40) علال الفاسي : «التصوف الاسلامي في المغرب». مجلة الثقافة المغربية، العدد الأول، شوال — ذي القعدة 1389 هـ يناير-فبراير 1970، الرباط ص 35.

(41) نفس المصدر ص 46.

التاريخ المغربي أن «التصوف المغربي إلى جانب الفقه المالكي، له الأثر الفعال في توجيه كل الأفكار والسياسات التي جرت ببلادنا، فالفقه والتصوف عنصران، أساسيان في تكييف المجتمع المغربي وتسييره»(42). ولا شك أننا نرى هنا نظرة سلفية معدلة تجاه الموقف الصوفي والطرقي، تخفف من وقع تلك القطيعة التي عمقها الشيخ محمد بن العربي العلوي، خاصة وهذه النظرة السلفية المعدلة اختارت أن **تشيد بذلك الجانب الصوفي الذي أصبح الشغل الشاغل للسلفية الجديدة بالمغرب ألا وهو الجانب السياسي التحريري**، وفي رأي علال الفاسي أننا نجد في «مواقف أوليائنا وصوفيتنا ما يدل على الدور التحريري الذي قام به التصوف الاسلامي في إنقاذ المغرب من الاحتلالات الأجنبية، الأمر الذي يغفر له ما وقع فيه من زلات فكرية أحياناً»(43).

VIII — ولا نرى الوقوف أخيراً على موقف «محمد المختار السوسي» من المشكل المطروح دون أن نكتفي بالاشارة — لضيق الوقت — إلى أهمية المذكرات التي نشرها في حياته المرحوم «التهامي الوزاني» بتطوان تحت عنوان «**الزاوية**». وهي مذكرات طرقي طافحة بمعاني التمزق النفعي من جراء اصطدام الفكر الطرقي مع متطلبات وضغوط الأزمنة الحديثة ؛ وهو تمزق استطاع صاحب التجربة أن يعبِّر عنه بوضوح وصراحة أبانت عن تجربة شاب صوفي طرقي مخلص رأى بساط التقديس والاحترام والثقة يسحب من تحت أقدام «الزاوية» بيد أتباعها ومريديها القدامى أنفسهم الذين صاروا، تحت ضغوط الاحتلال والرغبة في الانعتاق، يشككون في الدور التحريري للطرق الصوفية المتواجدة، كما صاروا يضعون تقابلا وتناقضاً بين ارتياد «الزاوية» وارتياد «المدرسة»، فتلك لأجل العزلة والفناء عن العالم، وهذه لأجل الاحتكاك به والتفكير في تغييره. وهذا الاختيار الأخير هو الذي بشر به الفكر السلفي الذي بدأ يستقطب الأتباع القدامى للطرقية، ولم يسع «التهامي الوزاني» آخر المطاف إلا أن يسلم للأمر الواقع ويعلن انتهاء عهد الطرقية وبزوغ السيطرة السلفية التي لم تعد تقبل من التصوف، في أفضل الأحوال، إلا ما ينسجم مع مبادئها العامة...

IX — ماذا يمكن القول الآن بالنسبة للمرحوم «محمد المختار السوسي» ؟ وهو الآخر صاحب تجربة طرقية درقاوية، لكنها متميزة عن تلك التي عاشها مثلا «التهامي

(42) نفس المصدر والصفحة.

(43) نفس المصدر، ص 47

الوزاني»، وذلك **لاختلاف البيئة**. فبيئة المختار السوسي لم تخرج لنا أمثال الحسين الحراق أو علي بن ريسون، ولكنها نفس البيئة التي شهدت أمثال دعوة محمد العربي المدغري وتلاميذته...

غير أنه اعتباراً لكون رياح التغيير، كما سبق أن حدثنا عنها المختار السوسي نفسه، سواء تلك الزاحفة من الغرب أو الأخرى الوافدة من الشرق، لم تميز في زحفها بين منطقة وأخرى بل شملت الشمال والجنوب والحواضر والبوادي، فقد كان لا مفر للمختار السوسي أن يعيش، هو الآخر، تجربة صراع بين القديم والحديث، بين الطرقية التي كان غارقاً فيها ومنسوباً إليها وبين رياح التغيير السلفي أولًا الآتية من الشرق، ثم رياح الفكر الغربي الآتي من الشمال. ومن ثم فإنه لا يصعب علينا الوقوف في تجربة صاحبنا على بعض مظاهر الصراع بين شخصية الصوفي الطرقي وشخصية المفكر السلفي الاصلاحي. ولربما جاز لنا القول أنه لولا رياح السلفية الجديدة لكان «المختار السوسي» معدوداً من أقطاب الفكر الصوفي الدرقاوي، خاصة وقد كان والده «الحاج علي الدرقاوي الإلغي» شيخا لهذه الطريقة في منطقته الشهيرة التي تشهد على غناها الفكري والسياسي كل الكتابات الموسوعية للمختار السوسي. وها هو ذا يعترف قائلا(44) : «...ثم إني ابن «زاوية» وابن بيئة أمس — مؤمن بالروحيات الصادقة، فأقبل «خرق العادة» إن صح أن ذلك واقع. ولذلك يعذرني من ليس له هذا الايمان... فله دينه ولي ديني...». ولذا فقد افترضنا أن يدخل «المختار السوسي» — وهو ابن التربية الصوفية — في صراع بين شخصيته الأصلية هذه وبين المعطيات الفكرية الجديدة. ويبدو أن طبيعة الفكر الصوفي السائد في منطقته، بعيداً عن تعقيدات المدينة وعن ضغوط القوى السياسية، قد احتفظت بالأصول الاساسية للفكر الصوفي السنّي كما تجلت لدى رواده، الشيء الذي سيسهل عملية التوفيق، والتوفيق كما نعرف بنية أساسية في الفكر السلفي. ومن المعلوم أن «المختار السوسي» الذي ألّف موسوعه «المعسول» لتخليد التراث العلمي والسلفي السوسي، قد كتب أيضاً كتابه «منية المتطلعين» لتخليد الفكر الصوفي في نفس المنطقة...

1) الموقف الصّوفي الطرقي :

لاشك إذن في كون الجانب الطرقي الصوفي يحتل بعداً عميقاً في شخصية

---

(44) «المعسول» ج 1، ص ز.

«محمد المختار السوسي». فهو لن يفتأ في مرحلته السلفية يهتم بتسجيل وتمجيد تاريخ ثلة من صوفية «إلغ» ومن منطقة سوس عامة، ثم لا يفتأ يعلن نسبته إلى هؤلاء بقوله(45) : «وإنما أنا محب «للقوم»، وأرجو بهذه المحبة أن أحشر معهم، والمرء مع من أحب». لهذا، وبعكس «تقي الدين الهلالي»، يعلن المختار السوسي مسايرته لكثير من التقاليد والمصطلحات الصوفية متبنياً لأكثر من موقف من مواقفهم. وقد ساعده على «التعاطف» مع هؤلاء «القوم» ما تميز به تصوفهم من نزعة عملية بعيدة عن الاغراق في التأمل النظري. وإن نظرة سريعة إلى رسالة والده «عِقد الجمان لمريد العرفان»(46) توضح كيف كان هذا التصوف العملي، خاصة في تلك المناطق النائية عن بذخ الحواضر وأزماتها، أفضل ممهِّد للمختار السوسي إلى الاعجاب مستقبلا بالحركة السلفية ولينخرط فيها كحركة تنظيمية عملية هي الأخرى... ولطالما اعتبر مريدي والده ــ وهو يترجم لهم ــ أفضل تشخيص ممكن للمفاهيم الصوفية كما أرادها رواد الفكر الصوفي فأحد هؤلاء المريدين مثلا كان بالنسبة إليه «مثالا خالداً عجيباً في الزهد ونبذ الشهوات...» وبجانب هذا فهو «يخدم الشيخ.. وكذلك كان هو المكلف **بمزاولة المرضى** من «الفقراء» لطول تأنيه وتربيته وشفقته»(47) فهذا هو إذن البعد الحقيقي للزهد، بالاضافة إلى «الجهر بالحق» الذي كان يتمتع به...

ولعل مثل هذا الاعجاب الذي يكنه «المختار السوسي» لهذه الغيرية ولذلك الموقف العملي لهؤلاء المريدين جعله من جهة أخرى ــ وهو ابن الشيخ المربي ــ أكثر تعاطفاً واستعداداً لتقبل بنية الفكر الصوفي والدفاع عنها كما سبق توضيحها في البداية. لذا نراه يتحرر من ذلك الموقف الفقهي المعارض للتصوف (والذي هو بعينه الموقف السلفي) ويساير الصوفية في تأكيدهم على دور الالهام في المعرفة مقابل الكتب والتعلم المدرسي. فهو يشهد أنه استمع إلى أحد أولئك المريدين الصوفية يتحدث بكلام لم يملك إلا أن يتعجب مما سمع منه «ولا ريب ــ كما يقول المختار السوسي ــ أن ذلك من الغيب، وهو لايُدرس مثله في الكتب»(48). وربما كان الطابع السجالي الصوفي ضد الموقف الفقهي هو الذي يبرر مثل هذا الكلام. بل إن

(45) «منية المتطلعين إلى من في الزاوية الالغية من الفقراء المنقطعين» ص 5 تطوان، المطبعة المهدية، 1961.
(46) مطبعة الساحل، الرباط 1984، انظر خاصة ص 31 ــ 33.
(47) منية المتطلعين، ص 5.
(48) منية المتطلعين، ص 6.

المختار السوسي يعطينا في آخر كتابه «المنية» **شهادات** على صحة ذلك الموقف الصوفي، ترجح كفته بالنسبة لكفة الفقهاء. فهذا الصوفي المريد والأمي «بلعيد الصوابي» يتصدر لإرشاد الفقيه «عبد الله بن القاضي» وهذا المريد «بكريما الايموكاديرى»، الأمي أيضاً، يأخذ بيد الفقيه «ابراهيم بن صالح التازارولتي» «فشاهدا الفقيران [الصوفيان] من أنفسهما من العلم ـــ يقول المختار السوسي(49) ـــ ما يخضع له الفقيهان عجباً... وتعجب [الفقيهان] كيف يحصل **الأميون** على أمثال هذه **المعارف**». ولهذا لم ير المختار السوسي تناقضاً حينما جمع بين النقيضين، حسب المنطق الفقهي، وذلك حين ترجمته «لمحمد فتحا الذكرى» بقوله عنه «هو **العارف** الأكبر **الأمي** الذي بز العلماء فهماً وادراكاً للدقائق».

نستطيع إذن أن نفهم من هذا الكلام ومن الاعتراف السابق «للمختار السوسي» بأنه مؤمن بخرق العادة والروحيات الصادقة، أن نفهم سرّ سرده للعديد من تلك **الكرامات**، سواء عن طريق الرواية أو تلك التي كان **شاهداً** على صحتها و«واقعيتها» ليس هذا فحسب، بل إن كرامات بعضهم، كما يقول «متواترة مستفيضة تحتاج إلى مجلد»(50) و«باهرة»(51). ومما له دلالة هنا أن بعض هذه الكرامات، وخاصة منها المرتبطة بادراك الغيب، أصبح هو الآخر مطبوعاً بنفس الهموم التي يعيشها الفكر السلفي، خاصة همّ الاستعمار والتطلع للإنعتاق والاستقلال، ففي لهجة تقريرية يحكي المختار السوسي عن بعضهم أنه «كان يشم منذ «الاحتلال» رائحة نتن شديدة... كنت أنا ـــ يقول المختار السوسي ـــ كلما اتجهت معه لا أفتش من عنده إلا عن وقت استقلالنا، فيصارحني بأن ذلك قريب... فقد انقطع النتن الذي كان مع المحتلين منذ سنوات، مما يدل على قرب انقطاع أمرهم...»(52).

ومع كل ذلك، فإن المختار السوسي، ونهجاً للاسلوب الذي شنته الشاذلية منذ عهد مؤسسها، يحلول، في معرض الحديث عن «شهادات» الكرامة، أن يميل كفة «الاستقامة» على حساب كفة الكرامة، إذ الاستقامة الأخلاقية هي الكرامة المعنوية

(49) منية المتطلعين، ص 111 ـــ 112.

(50) منية المتطلعين، ص 20.

(51) نفسه، ص 31.

(52) نفسه، ص 114، وانظر أيضا ص 105 ـــ 106 حيث يضطر بنفسه للاعتراف بكرامة تنبؤية لاحدى السيدات...

الحقيقية. أما الكرامات المادية فهي وإن لم تفقد مغزاها المعرض فهي كرامة «مشتركة» بين الصالح والطالح، وبين الواصل والمطرود، وبين الصوفي والشيطان ؟ فهي كما قد تدل على رفعةٍ وكمالٍ تكون أيضاً امتحاناً وفتنة. من هنا حرص الصوفية على تقييد الكرامة المادية بالكرامة المعنوية، وهو تقييد من شأنه أن **يقرب**، عند المختار السوسي، بين التصوف والاتجاه السّلفي. ومن هنا أيضاً حرص بعض الصوفية المترجم لهم في كتبه عدم الالتفات إلى كراماتهم المادية(53)، لان «أكبر الكرامات الاستقامة»(54).

لهذا الموقف الأخير، ونظراً لما يلعبه المشكل من توسيع شقة الخلاف بين الطرقية والفكر السلفي، فقد حرص المختار السوسي أن يكتب رسالة حول «مفهوم الولي في الشرع» يرفع بها، أولًا، ما علق بالفكر الصوفي مما ليس منه، ويقرب ثانياً بين هذا الفكر وبين الموقف السلفي العام. ومن عنوان الرسالة يتبين أن محك الفكر الصوفي وميزانه هو الشرع، كما سبق أن أوضح ذلك أبو إسحاق الشاطبي وابن تيمية. ومن ثم يحرص المختار السوسي، مدفوعاً بهاجس التقريب بين الفكرين الصوفي والسلفي، أن يستهل رسالته المذكورة لا برفض الكرامات الصوفية ولكن بتوضيح كونها من الأمور المشتركة بين المؤمن والكافر والبر والفاجر، ومن ثم فـ «الرجل — كما يقول —(55) لا يُعرف بالكرامات إن طار في الهواء أو سار على الماء، وإنما يعرف الرجل بالاستقامة ولزوم السنة التي هي المحجة البيضاء... لاتأخذه في الله لومة لائم. فذلك هو «الرجل» وإن لم تظهر له كرامة. [أما من] خالف السنة... فإنه ليس برجل وإن كانت له خوارق... لان خرق العادة يكون على وجه الكرامة وعلى وجه الاستدراج وعلى وجه السحر»، فالخوارق «تكون أيضا على أيدي الكفار بلا ريب ولكن ذلك لا يدل على شيء»(56). ومن ثمة يحرص المختار السوسي أن يعلن أن هذا هو مقياسه في الولاء الذي يكنه لأسلافه الصوفية ؛ ولعل هذا أيضاً هو الدافع له لاعادة كتابة تاريخ والده، الشيخ الإلغي، ليؤكد فيه أنه لا يرضى «عما كُتب حوله من الاهتمام بالروحانيات ولكرامات فقط من غير أن يعنى بأحواله الشخصية التي هي، حقيقية،

---

(53) نفس المصدر، ص 6.

(54) نفسه، ص 9.

(55) «معنى الولي في الشرع»، مطبوع على هامش «عقد الجمان» السابق الذكر، ص 36.

(56) نفسه، ص 39.

مما ينبغي أن يعتنى به للاقتداء. فلذلك ـــ يضيف صاحبنا ـــ(57) قلّلتُ ممّا اعتنوا به، وأكثرت مما يعلمه من كل عارفيه من **الغيرة الدينية** والاهتمام **بالمصلحة العامة**... وقد شفيت فيه بعض غليلي ، لما عُلم من مبدئي الخاص في هذا الموضوع».

وإنها لكلمات تدل على **صراع** بين مفاهيم، وعلى محاولة للتوفيق بين أساس التربية القديمة والمتطلبات الجديدة التي فَرضت عليه ما ينعته هنا بمبدئه الخاص، الذي من شأنه أن يقربه ويقرب أسلافَه إلى الفكر السني والفكر السلفي «فليعلم من قرأ كتابنا ـــ يقول المختار السوسي ـــ(58) ان هذا هو مذهبنا وعلى هذا نموت. فإن الذين نحترمهم ونجلهم [من الصوفية] أصحاب السنة المثابرون على اتباعها ومحاذاتها في كل أفعالهم وأقوالهم» الشيء الذي فرض عليه مسايرة المنطق الفقهي والسلفي في انكار مفهوم العصمة المنسوبة للولي الصوفي، وذلك عملا بقولة الامام مالك التي رددها بعده أبو اسحاق الشاطبي : «كل كلام فيه مقبول ومردود إلا كلام الله وكلام رسول الله ﷺ». وهو أيضاً يقول كما قال «الغزالي» : «نحن ممن يعرفون الرجال بالحق ولايعرف الحق بالرجال». ومع كل هذا فإن صاحبنا لا يفتأ تتجاذبه نزعة التوفيق وتفرض نفسها عليه، فيميل في آخر رسالته المذكورة إلى تبرير الطاعة العمياء المفروضة على المريد تجاه شيخه المربي، وذلك اعتبارا للدور التربوي المتوخى من ذلك، لان الشيوخ المربون بمثابة الأطباء والمريدون بمنزلة المرضى «ولاشك أن المريض ليس له في عرف الأطباء إلا الامتثال...»(59). والظاهر أن المختار السوسي في تحديده لهذه المفاهيم، وخاصة لمفهوم الولاية، يتّكيء كثيراً على تراث «ابن تيمية» الذي لا يخرج في تحديده لمفهوم الولاية عن المصطلح القرآني(60).

ومن الواضح أننا نصطدم بتناقض ظاهري على الأقل، بين هذا الموقف الصارم الذي يتخذه المختار السوسي في هذه الرسالة وبين ما ملأ به كتابه «منية المتطلعين» مما اعتبره شهادات على صحة مختلف مظاهر ولاية العديد من صوفية عصره. مما يجعلنا نفترض أنه يعيش بالضرورة صراعاً بين ثقافته الأصلية وبين اتساع أفقه الفكري

---

(57) سوس العالمة، ص 221.

(58) معنى الولي في الشرع، ص 37.

(59) المصدر الأخير، ص 42.

(60) نفسه، ص 38 فالقرآن فسر «الولاية... بالايمان والتقوى، لا بخرق العوائد ولا بالاطلاع على الغيب...».

بعد وروده على فاس و«القرويين». ومما يبرز مرة أخرى هذا التجاذب عنده بين المصادر السلفية والاعتبارات الصوفية وتقاليدها، أنه يستدرك على موقفه السني بخصوص استحالة ادراك الغيب حتى بالنسبة للنبي إلا عن طريق الوحي... فيؤكد مع ذلك أن «الصالحين الذين تقوّت أوراحهم» قد يلهم الله تعالى روحانيتهم «بعض تأثير بقدرته كما يجعله للساحر... وهذا هو الذي يسميه الصوفية رضى الله عنهم **التصريف**، وظهر عنهم في ذلك العجبُ العجاب» ! بل هذا «ابن قيم الجوزية»، العالم السلفي المتشدد، يعترف بأن أمر الروح عجيب، ولذا «فإن سمعتَ بأي شيء من أحوالها عن الصادقين فلا تكذب إن عرفتَ ما أقول لك»(61) ومع هذا يستدرك المختار السوسي مرة أخرى على هذا الاستدراك الصوفي، باستدراك سلفي قائلا : «ولكن من ظهر عليه ذلك لايدل على كونه ولياً ممَّن تولاهم الله إلا بسلوك طريق السنة واجتناب طريق **البدعة**»(62).

الموقف السلفي والخروج من الكهف :

مما يلفت نظرنا في التراجم الصوفية التي يقدمها لنا المرحوم المختار السوسي، انها، من بين العديد من الأعلام الصوفية في وقتها، تمتاز بارتباطها بالفكر الفقهي وبالتيار السني ؛ فهذا الشيخ الالْغي، والد المختار السوسي، كان يلازم تدريس التفسير والتوحيد، وهذا تلميذه محمد فتحا الذكرى كان فقيهاً يستحضر كتاباً ضخماً في الفقه بالشلحة... وهكذا بالنسبة لجل «الفقراء». وهو الأمر الذي دفع بالمختار السوسي أن ينظر إلى أمثال هؤلاء التلاميذ الطرقيين كنموذج ليس فحسب للفكر الصوفي بل وللفكر السني والسلفي أيضاً، مما جعله يقول عن بعض هؤلاء، وهو «بوهوش السليماني الإلْغي» ولا تكاد عيني قط تجول فيه حتى أقول : الحمد لله الذي خبأ لآخر هذه الأمة من أمثال هذا ما كان معروفاً لأولها»(63). وقد ساعد على مثل هذا الاعجاب طبيعة الفكر الطرقي المتواجد في هذه المنطقة حيث استطاع الابتعاد قدر الامكان عن التعقيدات والتطورات التي عرفتها الطرقية في المناطق الشمالية وخاصة منها الحواضر. ويكفي، كي نلاحظ ذلك الفرق، أن نقارن بين

---

(61) نفسه، ص 40.
(62) نفسه، ص 39.
(63) منية المتطلعين، ص 11.

وصف «المختار السوسي» لأحوال الزاوية الدرقاوية الالغية وبين وصف «التهامي الوزاني» لأحوال الزاوية الدرقاوية الحراقية بتطوان ؛ حيث انعدم في هذه الأخيرة، بعد وفاة مؤسسها «محمد الحراق»، أي اهتمام بالعلم «الذي هو أساس الشريعة وعنوان المشروعية الصوفية، واستحالت تجمعات الفقراء في هذه الزاوية إلى مجرد حفلات للطرب والذكر والسماع... مما يثير حفيظة الفكر السلفي الناهض الذي رفع شعار «طلب العلم» كأساس لدعوته التجديدية...

يجوز إذن إعتبار طبيعة وخصائص الفكر الصوفي المتواجد في ربوع «إِلْغْ» أفضل تمهيد للمختار السوسي كي يُلقي بنفسه في أحضان الفكر الاصلاحي السلفي. وكان لا مفر له أن يخضع هو الآخر لرياح التغيير التي كانت تهب على المغرب، وخاصة على عاصمته «فاس». وها هو يصف نزوحه إلى فاس بمثابة **انقلاب** ميَّز به الماضي والحاضر، ودخل ، بسببه، في امتحان وصراع بين متطلبات هذا الحاضر وتقاليد التراث التي لا يكاد يميز فيها بين الصالح والفاسد. **فأيقظت** فيه «السلفية الجديدة» نزعته التنظيمية الموروثة لديه من طرقيته القديمة. وأصبح بهذا **التلقيح** **متسع** الأفق، لا يفكر في تنظيم طريقته ولا مريدي والده الشيخ، ولكن التنظيم أصبح لديه بعد الآن مرتبطاً بتنظيم **الوطن** ككل، بل وتنظيم «أمة العرب والاسلام».

وهكذا يعترف «المختار السوسي» في صراحة نادرة بقوله في نص مهم : «ثم لما حللت بفاس أتى الوادى «فطمّ على القرى» ؛ فبدلت أخلاقاً غير التي عهدت من نفسي قبل، وأنا في مراكش وأحواز مراكش. فقد **تلقّحتُ** في جو فاس بما لو لماتلقح به لما كانت لي فكرة ولا تحركت به همة، ولا نزعتْ بي نفسي عُزوف... تكونتْ لي في فاس **فكرة دينية**، **فرقت بها** ما بين الخرافات المموّهة وبين الروحانيات الربانية. كما نبتت مني **غيرة وطنية** نسيتُ بها نفسي ومصالحي الشخصية ؛ فأعددت نفسي فداء لديني ولوطني **ولأمتي** التي هي **أمة العرب والإسلام** جمعاء. وأنا بين هاتين : الفكرة [السلفية الاصلاحية] والغيرة [الوطنية] أسبح في آداب حية طلع بها هذا العصر الجديد، فصرت أقرأ من نثر «المنفلوطي» و«فريد وجدي» و«محمد عبده» وأضرابهم، ومن شعر «شوقي» و«حافظ» و«مطران» وأمثالهم، ما عرفت به أن الذي كنت أسبح فيه منذ صغري ليس إلا **ضحضاحاً كدراً**، لايبرد جسداً ولا يفثأ غلة ولا يقضى على لهفة»(64).

(64) «المعسول» ج 1، ص 14 — 15.

لم تعد «إلغ» إذن قبلة المختار السوسي بل أصبحت «فاس» وعلم فاس هما بغيته. كيف لا ! وقد كان أول عالِم مشهور عرفته منطقة سوس، وهو «واجّاك بن زَلّو اللّمطي» تلميذا هو الآخر في ذلك الماضي السحيق «لأبي عمران الفاسي» «وأنا [المختار السوسي]... هل كنت إلا تلميذ علماء آخرين وأجلّهم وأكثرهم تأثيراً في حياتي الفكرية، العلماءُ الفاسيون. وليت شعري، كيف أكون لو لم أقضي في فاس أربع سنوات **قلبت حياتي وتفكيري ظهراً على بطن**. ثم لم أفارقها إلا وأنا **مجنون بالمعارف**... حتى نسيت بها كل شيء»(65) وهذا لا يعني أن مناطق سوس لم تعرف هي الأخرى علماء أفذاذ، إلا أنهم لو وُجدوا في بيئة كثيبة فاس، حيث تصطدم المواهب ويتلقح بعضها من بعض «لكان لهم في العلوم التي يخوضون فيها [هم أيضاً] العجب العجاب»(66).

ولعل موسوعة «المعسول» عند المختار السوسي إنما جاءت لتخدم هذا الاتجاه السلفي الذي تلقاه بفاس والذي قلب حياته رأساً على عقب وفتحت أمام فكره آفاقا جديدة. فمن الأهداف الكبرى «للمعسول» إبراز الدور العلمي لمنطقة سوس في تاريخ الحضارة الاسلامية بالمغرب. وهو حتى في خضم موسوعته العلمية هذه لا يفتأ محاولًا التقريب بين النماذج الفقهية العلمية والنماذج الصوفية، معلناً أن «التصوف **الصافي** والدين الاسلامي البحث مدلولان على شيء واحد...»(67). وفي الواقع فقد كان لجوء المختار السوسي إلى فاس وشغفه بعلمها الملقح بريح السلفية الآتية من المشرق، المخرج الوحيد والفعال من **حياة الكهف** والطريق السليم **لعودة الروح** والحياة بعد أن تغير كل شيء مع الغزو الاستعماري، وبعد أن قام العلماء أنفسهم في فاس بثورتهم على عهد السلطان عبد العزيز. لذا كان لابد للأفق الفكري لصاحبنا أن يتسع، فيتصل، ربما قبل قدومه إلى فاس، بالمصادر السلفية الاساسية ككتاب «إظهار الحق» للشيخ رحمة الله الهندى، الذي كان يتدارسه مع الفقيه سيدي «المحفوظ الأدوزى»(68). هو الفقيه الذي بالرغم من علو كعبه في فنون الفقه فإن

(65) «سوس العالمة» ص هـ.

(66) المعسول، ج 5 ص 228.

(67) المعسول، ج 5 ص 17. «فمن اعتنق التصوف الخالص... ونجاه الله مما ألصق به عن عمد أو جهل من البدع، فإنه ما اعتنق إلا الاسلام الخالص نفسه».

(68) نفس المصدر، ص 330 ـــ 331.

ضيق أفقه الفكري كان عيبَه الأساسي، فهو كما يصفه المختار السوسي كان مثل «كثير من علماء قطره، جاهلين **بحالة العالم**، غير مدركين ما وصل إليه العالم الشرقي والعالم الغربي، ولا يدركون **كيف يقبلون ولا كيف يردون**»، وتلك هي بالفعل المعادلة الصعبة التي اضطلعت بها السلفية واضطلع بها معها المختار السوسي.

وفي رأي المختار السوسي، أن الانطلاقة الأولى نحو هذا الاتساع للأفق الفكري تقتضي، قبل ، كل شيء الخروج عن الاطار المتقوقع القَبَلي القديم. وبالتالي يكون العمل على إبراز **الخصوصيات الجهوية** لا لأجل تأصيل تلك النزعة القبلية القديمة، ولكن بالأحرى من أجل ابراز **التكامل** والتظافر **والوحدة** الشاملة. وهذا هو المقصد الاساسي الذي دفع بالمختار السوسي إلى الانكباب على كتابة ما كتبه عن **سوس** وعلم سوس. وهو ما أعلنه صراحة بقوله(69) : «وبعد، فليسمع صوتَ هذا السوسي كلُّ جوانب المغرب... فلعل من يصيحون يندفعون[مثلي] إلى الميدان، فنرى **لكل ناحية** سجلًّا... فيكون ذلك أدعى إلى وضع الأسس العامة أمام من سيبحثون في **المغرب العام** غدا...» أما ماضطلع به هو فمقصوده منه «أولًا وآخراً أن يرى القارىء، مشاهدةً، ما يقع به جانب من جوانب المغرب يضم طائفة من أبناء أمازيغ الشلحيين البدويين في **نشر اللغة العربية** وعلومها وآدابها، وقد أولعوا بذلك **ولوعا** غريباً، فقاموا **بأعظم دور** في ذلك، بجهودهم الخاصة، **من غير أن تعينهم الدولة**...»(70).

وبهذا يصبح التاريخ في وعي هذا السلفي أصدق مرآة **للوعي الجماعي** الذي تتوزعه مناطق متباينة ولكن يوحده «العلم» الذي هو الثقافة والحضارة المشتركة والأهداف المصيرية الواحدة. ومن هنا إشادته بما كتبه المرحوم «محمد داود» عن «تاريخ تطوان». ولأجل هذه المهمة الصعبة نرى مؤرخنا يستند هذه المرة على تربيته الصوفية القديمة ليعترف بتواضع عمله في إطار هذه المهمة الشاقة والتي هي فوق طاقته، فيقر بصراحة صوفية أن النقص لا محالة طابع مميِّز لكتاباته التسجيلية، وعذره في ذلك أنه أراد أن ينبه شباب العهد القادم إلى ضرورة إعادة الاهتمام بهذا التاريخ(71)، التاريخ الذي يوحِّد ولا يفصل، لأنه التاريخ الذي ارتبط بالأرض

(69) سوس العالمة، ص هـ.

(70) المعسول، ج 1، ص و.

(71) سوس العالمة، ص و ــ ا. وانظر أيضاً «المعسول» ج 1، ص ز.

وبالشعب وبالوعي الجماعي **المشترك**، ولابد من الاهتمام بهذا التاريخ الموحد أيضاً لإنقاذه من تشويه الاستوغرافية الاستعمارية «التي تحاول ـــ يقول المختار السوسي ـــ(72)... حتى إفساد ماضينا بما يكتبه عنا بعض المغرضين من أهلها».

وليس بالمستغرب عند المختار السوسي أن نرى تلك الوحدة المطلوب إعادة إبرازها اليوم، تضرب بجذورها في أعماق التاريخ، وهو هنا يغتنم الفرصة لضرب الاطروحة الاستشراقية والشرقية أيضاً، الزاعمة بمحدودية انتشار الاسلام واللغة العربية في عهد المرابطين، تلك الاطروحة التي تحاول النيل من الدور الايجابي لهؤلاء المرابطين، وهو الدور الذي يدل على أن سوس والصحراء كانت كما يقول المختار السوسي(73) : «دائماً في مقدمة أطراف المغرب، وهي وإن كانت ذنَبه، فقد يكون الذنب من بعض ذوات الريش أحسن ما فيها. إذن ـــ يضيف المختار السوسي ـــ لا بد أن يكون في سوس [والصحراء] من قادة الدين من علمائه من يقودون الشعب المتدين بهذا الدين الجديد...». وما كان بإمكان «سجلماسة» و«أغمات» في القرن الثالث والرابع أن تلعبا دورهما العلمي المعروف دون أن يكون ذلك مؤسَّساً على قاعدة سابقة من المعرفة بالاسلام وعلومه ودراية باللغة العربية. بل إن ظهور فرق ونحل إسلامية ببلاد سوس، دليل على أن هذه البلاد «كانت منذ عهود قديمة تتمتع بعلماء دينيين يقودون الأفكار... ولا يكون ذلك إلا بتعاطي العلوم الموجودة إذ ذاك»(74).

وإذا كانت العقيدة مثّلت هكذا اللبنة الأولى في تلك الوحدة فإن اللبنة الثانية فيها، هي اللغة العربية، وهي لبنة، كما يقول المختار السوسي، أبلى السوسيون البلاء الحسن وبذلوا الجهود الأوفى في ترسيخها في هذه البلاد، ولهذا نراه يسارع أيضاً لرفض أطروحة القائلين بانحسار اللغة العربية في هذه المناطق، وقد رأيناه يدافع عن مساهمة «اللمتونيين» في هذا المجال، كما نراه يدافع عن استمرار تلك المساهمة تبعا لعصور الازدهار والانحطاط التي عمت المغرب قاطبة. ومن هنا لايفتأ المختار السوسي يردد بين الفينة والأخرى الدور الطلائعي الذي لعبه علماء سوس في إرساء الثقافة الاسلامية بالجنوب أو في الدفاع عن وحدة البلاد، ممّا جعل هؤلاء العلماء يحظون بمنزلة، سواء في قلوب الجماهير أو لدى السلطة المركزية تعلو على منزلة «الرؤساء»

(72) سوس العالمة، ص 1.
(73) نفسه، ص 16.
(74) سوس العالمة، ص 17.

وشيوخ القبائل، لان هؤلاء العلماء كما يقول عنهم(75) «لا ينالون ذلك إلا عن جدارة، لأنهم يصبحون أحيانا حراس الوحدة المغربية في هذا الجانب...». وهنا يجد المختار السوسي نفسه مضطرا — وقد اطّلع بفعل ثقافته السلفية على بعض الاطروحات الاستعمارية خاصة في تمييزها المتعسف بين ما تسميه «بلاد المخزن» و«بلاد السيبة» أو بلاد الشرع وبلاد العرف — إلى أن يرفض هذه الاطروحة مستنداً في ذلك على الدور التاريخي لعلماء سوس في تثبيت قواعد الشرع ونشر القضاء، وأما العرف والعوائد فقد «أباحها من قديم بعض العلماء... ومثل هذا لايخلو منه بلد حتى فاس وهي ماهي ؛ ولامرية أن العوائد التي لا تصدم النص معتبرة»(76)شرعا.

وهنا يتّكىء المختار السوسي على ظاهرة حفظ «ديوان المتنبي» كاملا من طرف «محمد الشيخ» السعدي في «جزولة» ليصل إلى التأكيد على الدور العلمي العربي الذي اضطلعت به منطق سوس ؛ إذ ما كان «لمحمد الشيخ» أن يحفظ ديوان شعر كامل، كديوان «المتنبي»، لو لم تكن للعربية منزلة ومدارس قبل هذا العهد، ما لبثت أن ازدهرت هذه المدارس أيام السعديين، وقد ساعدت على هذا الازدهار ما كان من الولاء ووحدة المصير القائمين بين الدولة السعدية وبين سكان هذه المناطق، فأصبح منَ الصعب كما يرى المختار السوسي زعزعة اللغة العربية منها، خاصة لدى أسر توارثت ذلك جيلا عن جيل. ولعله لم يكن مقصود صاحبنا من عمله الضخم المتمثل في أجزاء «المعسول» إلا توضيح ذلك العطاء العلمي الاسلامي العربي في بلاد سوس كما مر بنا سابقاً.(77)

بهذه الكيفية إذن، استطاع المرحوم المختار السوسي أن يرجع مرة أخرى ويعود إلى منطقته، بعد أن غادرها بعيداً نحو «فاس». إلا أن علم فاس وسلفية علمائها علّماه أن يرجع ليفتش في منطقته، لا في فاس وحدها، **عن عناصر الوحدة** مع فاس ومع المغرب قاطبة، وربما أيضا مع العالم العربي والاسلامي(78). وبذلك تحقق **الالتئام أو الإتصال عند المختار السوسي بين ماضي تربيته الصوفية وسالف أمجاد منطقته العلمية الاسلامية وبين تطلعات** أفكاره السلفية الوطنية... غير أن المختار السوسي،

(75) سوس العالمة، ص 23.
(76) نفسه، ص 26 — 27.
(77) المعسول، ج 1، ص و.
(78) انظر مثلا على ذلك، سوس العالمة، ص ج.

وهو في هذا يشبه ما فعله «علال الفاسي»، يؤكد أن تلك الوحدة الشاملة لا تتصور إلا بتصور حلقاتها المستقلة وقد شكل المغرب ككل، منذ دخول الاسلام، حلقة متميزة متراصة، وكان أبرز علامات التميز المغربي حفاظه على استقلاله وتمسكه بعروبته وحضارته الاسلامية. وهنا يحلو للمختار السوسي أن يُذكِّر بأن الأتراك استولوا «على الشرق الأدنى كله ما عدا هذا القطر السعيد الذي لم يعرف إلا الاستقلال منذ عرف الاسلام إلى الآن...[وقد تلاءمت في تقاليدنا الاسلامية المغربية] مقتضيات حياتنا وديننا وعادات مجتمعنا تلاؤماً تاما : دين العربية ولغة الدين وعادات تكونت **تحت نظرهما** في قطرٍ **امتزج** فيه العرب والبربر تمازج الماء القراح بالرّاح...»(79).

ومن هنا ندرك الدور الذي توليه هذه النظرة للتاريخ في بناء المجتمع المغربي المقبل، إذ مهما تكن التشويهات والتأويلات الناقصة التي خضع لها تاريخ المغرب، فلا بد أن ينهض شباب المغرب يوماً ليراجعوا ذلك، بل «نحن نوقن ـــ كما يقول محمد المختار السوسي ـــ(80) أنه سيأتي يوم يثور فيه أولادنا أو أحفادنا ثورة عنيفة ضد كل ما لا يمت، إلى غير ما لآبائهم من **النافع المحمود**، ثم يحاولون **مراجعة تاريخهم**...».

ذلك موقف متميز في فكر المختار السوسي، لم يكن ليظهر لو أنه بقي قابعاً في «إلغ» ولم يشد الرحال إلى حاضرة «فاس» التي كانت بالنسبة إليه أكثر من مدينة، بل بوابة نحو العالم الحديث، هذا العالم الذي اضطُر إلى الاحتكاك به، ليعود بعد ذلك إلى عالمه القديم والصغير : «إلْغ». وفي هذا العالم الصغير عاد إلى نفسه وإلى تاريخه ؛ فتعرف على نفسه من جديد، لاكذرة منعزلة ولكن كحلقة من حلقات متراصة مغربية إسلامية وعربية. ثم صار يكتب تاريخه عسى أن يكون له وللمغاربة زاداً ومتّكئاً للقفز نحو **الاصلاح**، نحو الاستقلال، نحو المجتمع العادل الذي كانت تبشر به السلفية الوطنية.

3) من نقد «الأزمة» إلى «أزمة النقد» :

كما سيوضح المختار السوسي فإن المهمة الكبرى التي أخذت من السلفية القسط الأوفر من نشاطها كانت بلا ريب إيجاد وعي لدى المغاربة بالهوة الحضارية السحيقة التي تفصلهم سواء عن أجدادهم القدامى أو عن معاصريهم الأوروبين، وخاصة

---

(79) المعسول، ج 1، ص 1 ـــ ب.

(80) نفسه، ج 1، ص د.

المعمِّرين منهم. وهي المهمة التي اقتضت من الفكر السلفي أن يلجأ غالبا إلى سلاح «النقد» والهدم للوضع القائم فكرياً واجتماعياً وسياسياً. وكما سيدرك ذلك «علال الفاسي» ومعه أيضاً، كما سنرى، محمد المختار السوسي، فإن أسلوب النقد هذا والاستغراق فيه، بقدر ما سيُعْلي من شأن الفكر السلفي ويكسبه مواقع بقدر ما سيجني عليه ويفقده تلك المواقع نفسها ! وهذا ما يمكن ادراكه من خلال بعض الأفكار والتأملات التي يبثها المختار السوسي في مختلف كتاباته. فلقد خاض صاحبنا، كسلفي ملتزم، في محاولة فضح ونقد المواقف اللاّوطنية الممالئة للاستعمار، سواء تلك التي يتصدرها فقهاء تقليديون أو قواد ورؤساء أو شيوخ طرقيون(81). وقد عانى «المختار السوسي»، وهو الصوفي ـ الفقيه ـــ السلفي، ما عاناه من هؤلاء جميعاً ولاحقته أعين بعض الجواسيس المغاربة داخل المدارس والمساجد التي كان يلقي فيها تعاليمه السلفية بمراكش ثم الدار البيضاء.(82)

من ثم كانت تعاليم السلفية الوطنية، وهي تنتقد وتهدم الوضع القائم بكل أبعاده وتبشر ببديل فكري واجتماعي... تقوم على الأطروحة الكبرى : «لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها». غير أن هذا لا يعنى بالضرورة لدى هذه السلفية، خاصة كما تمثلت في المغرب، الرجوع إلى الماضي بقدر ما يعني ضرورة **استلهام** مواقف الأجداد إبان ازدهار الحضارة الاسلامية، خاصة استلهام موقفهم الناجح في باب **التوفيق** بين ضرورة التغيير والتطوير والتجديد وتلقيح العناصر الجديدة مع صبغها بالصبغة الاسلامية الوطنية. وقد صار هذا النجاح في ذلك التوفيق الذي حققه الفكر الاسلامي **النموذج** الذي يسعى الفكر السلفي، خاصة منه بالمغرب، إلى إقناع المغاربة بضرورة استلهامه. إلا أن هذا لن يكون إلا إذا وقع **هدم** ونقد الوضع الراهن الذي ينتمي لعهود الانحطاط لا لعهد الازدهار الاسلامي...

نقول هذا لأنه هو الذي يفسِّر لنا كيف أن «المختار السوسي» وهو الطرقي القديم والفقيه السلفي الجديد، لم يحمل معه إلى سجنه بالصحراء سوى كتاب عربي واحد كان أنيسه في وحدته ؛ وكان هذا الكتاب يدور حول نظرية «داروين» في أصل الأنواع والنشوء والارتقاء. وبخلاف ما أحدثه هذا الكتاب من ضجة في الأوساط

(81) انظر مثلا : «معتقل الصحراء» للمختار السوسي، ج 1، ص 18 ـــ 19.
(82) نفسه، ص 10 ـــ 13.

الاوروبية، نرى «سجين الصحراء» يتحدث عن هذا الكتاب، أنيسه في خلوة السجن قائلا(83) : «فأكببت عليه، أتفهم مغازيه وأستوحي منه ما يريد (دروين) الانجليزي بفكرته هذه. فأفادني فوائد»(84). ومن الملفت للانتباه أنه ما إن أتم هذا الكتاب واستفاد منه، كما يقول، حتى أقبل بنهم أيضاً على كتاب قُدِّم إليه، وكان هو كتاب «دلائل الخيرات». ولا ريب أن قراءة «نظرية التطور» بجانب «دلائل الخيرات» مع تلاوة مستمرة للقرآن الكريم أمر له دلائله في الوقوف على طبيعة الفكر السلفي الحديث، وفي استشفاف آفاقه وطموحاته، وفي تقدير معوقاته التي يمكن أن تلقاه داخل البيئة التقليدية...

وما دمنا نتحدث عن دلالات بعض مواقف «المختار السوسي» على طبيعة ومميزات الفكر الذي ينتمي إليه، فإننا لا نملك بهذا الصدد إلّا أن نقف موقف الاعجاب والتقدير لتلك العلاقة ولتلك الروح التي كانت سائدة بين ثلة من الوطنيين السجناء في الصحراء، في ذلك السجن الذي يصفه صاحبنا بتفصيل (85)، والذي أصبح يضم مجموعة من الوطنيين، شيوخاً وشباباً، متعددي المشارب الثقافية، ولكنهم جميعاً يمتازون بالعمل داخل الاطار السلفي التحريري والنقدي. كما يمتازون ـــ وهم متنوعو الثقافة والاختصاص ـــ بتفتح كل طائفة أو جماعة على ثقافة الجماعات الأخرى، الشيء الذي حول السجن فعلا إلى مدرسة وإلى عملية **تثاقف** بين أفراده. فقد أصبح كل فرد في المعتقل أستاذاً في اختصاصه وتلميذا لغيره فيما لا زال يجهله. وتظافرت علوم إسلامية وأوروبية حديثة، ورددت جنبات المعتقل إمكانية توحيد أو تركيب هذه العلوم فاستطاع «النشيط [المهدي] بن بركة ـــ كما يقول المختار السوسي ـــ(86) أن ينظم [ويشرف على تنظيم]... دروس عربية من نحو وفقه وتفسير وسيرة وتاريخ المغرب وفرنسية وانجليزية واجتماعية وفلسفية وحسابية، ومحاضرات كل يوم اثنين وجمعة...[وعلم إحصاء السكان]... فترى المعتقل يموج دروساً مدققة الأوقات...»، وتوسعت خزانة المعتقل وتخصصت، فمن كتب عربية إلى مراجع فرنسية وأخرى

---

(83) نفس المصدر، ص 29.

(84) انظر موقف السلفي المتعاطف مع نظرية داروين عند «حسين الجسر»، السلفي اللبناني في كتابه «الرسالة الحميدية». وانظر عرضاً للموقف في «قصة الايمان بين الفلسفة والعلم والقرآن» لنديم الجسر، دار الأندلس : بيروث.

(85) معتقل الصحراء، ص 198 فما بعد.

(86) نفسه، ص 198 فما بعد.

انجليزية.(87) ولاريب أن هذا ماكان يطمح إلى تحقيقه الفكر السلفي، لا في المعتقل فحسب ولكن في المجتمع الكبير أيضاً. وقد نشأت بين المعتقلين رابطة قوية، زادتها متانة الرغبة في الانعتاق، وخيمت عليها أيضاً **وحدة** التفكير **المتنوع**، كما شمل عطف الشيوخ الشباب وظهرت رغبة الكبار في أن يتابع الصغار تلك المهمة التي قامت السلفية المغربية من أجلها : **الأصالة مع التقدم**. وها هو المختار السوسي يتكلم مثلا في إعجاب شديد عن شريكه في المعتقل وهو من ينعته بالشاب النشيط «المهدي بن بركة» فيوجه إليه كلاماً كله أهل وثقة في المستقبل القريب قائلا له (88) : «إنني أرى فيك للوزارة الخارجية ملامح، فأنت أقدر الناس على أن تلاقي كل واحد بما تريد أن تلاقيه به، وتلك من مزايا الوزارات الخارجية» ثم يضيف قائلا عنه : «وأنا أكبر هذا الشاب، وأرى له مستقبلا، وكم دعوتُ الله له أن لا ينقصه شيء، وإلى الآن لا أيأس من فضل ربي عليه، وذلك فضل الله يوتيه من يشاء».

إن تاريخ السلفية الجديدة بالمغرب والحياة الفكرية في هذا المعتقل الصحراوي يبينان بوضوح طبيعة الفكر السلفي نفسه، هذا الفكر الذي جعل أحد المنتمين إليه، وهو المختار السوسي، إذ يحمل معه إلى المعتقل كتاباً عن نظرية التطور، يبرر مثل هذا الموقف بقوله(89) : «... فقد حرصنا ألا ننكر إلا مايستحق أن ينكر، وأن نحمد كل ما يمكن أن يُحمد. واجتهدنا أن نساير العصر، وأن نتفهمه فلا ننكر أخذ ما لابد من أخذه». إلا أن عملية التوفيق ليست أبداً معادلة سهلة، بل إنها **معادلة حضارية** شاقة بقدر ما تحمله الحضارة من تعقيد ومن تشابك المصالح وكمون وظهور الاختلافات. ولا شك أن «المختار السوسي» كان واعياً، منذ «مجتمع المعتقل» الذي تحدث عنه، بالتنوع الذي يتضمن ذلك الاختلاف ؛ ولكنه التنوع الذي يخفي أحياناً — ولو إلى حين — خلافاً وصراعاً، اقتضى منه أحياناً النقد للتركيبة الاجتماعية لذلك المعتقل والتي كانت صورة مصغرة لما يوجد خارجه في المجتمع. ومن ثم نجد «المختار السوسي» يوجه نقده من داخل المعتقل لما يعتبره «غير مقبول» عن بعض زملائه الذين يظهرون نزعة «ليبرالية» تجاه حتى المبادىء السلفية التي يعملون جميعاً من أجلها وتحت لوائها. وقد أتى ذلك النقد العام بمناسبة جزئية وهي تهافت بعض

(87) نفسه، ص 208.
(88) نفس المصدر، ص 211.
(89) المعسول، ج 1، ص ب — ج.

أفراد المعتقل على التبكير لوقت الرياضة دون أن «يحرصوا مثل ذلك الحرص على التبكير للصلاة». ويغتنمها صاحبنا مناسبة ليطرح القضية في صورتها العامة ويوظف بصددها النقد السلفي الذي يؤمن به كل أفراد المعتقل، والقائم على ضرورة التمييز بين التقدم والتقليد ليكون الجمع ممكناً بين الاصالة والتجديد. وهكذا نراه يوجه كلاماً لبعض زملائه قائلا(90) :

يا من يبكــــر للريـــــا ضة هل تبكــــر للصلاة ؟
هذي للحيـــاة ومـــا تعـــد للذي بعـد الممـات ؟
أوَ عاقـــل من ليس ينـــ ظر للذي بعد الممات ؟
أقبـــول عادات الأجـــا نب كلهـــا ؟ فتقـــول هات
من غير بحث عن مقـــا صد ما قبلت ولا التفات

....

وجميع أمـــر الغـرب مقـــ بـول بغير منـــاقشات
إنــــا لنعـــرف للريـــا ضة مالها في كل ذات
ونقـــر بالحق المبيـــ ـن وآيـــة المتبينـــات

....

هاتـــو الريـــاضة والصلا ة معاً تكونـــوا من هداة
فإذن تكونـــوا خير نشي ءٍ يُقتفـــى في المعضلات

وإن دل هذا النقد على شيء فإنما يدل على أن عناصر القطيعة التي سيشهدها مغرب الاستقلال بين الفكر السلفي والفكر شبه اللبيرالي المتنامي، كانت عناصر كامنة قبل ذلك على الأقل في مجتمعات الأندية والمعتقلات. ويبرر المختار السوسي ضرورة استمرار هذه النزعة النقدية ضد هذا التيار اللبيرالي والتي سبق أن وظفها ضد الطرقية والخيانات السياسية، بقوله(91) : «وأعظم ما نهتم له [وننتقده] شيآن :

ا ـــ أحدهما التفريط في المثل العليا التي لا ترسخ في الشعوب إلا بعد جهود قرون. ومتى اجتثت من أي شعب بمثل هذه الاندفاعات [التقليدية] **العمياء** فإن أبناء ذلك الشعب سرعان ما ينجرفون عن الصراط المستقيم في الحياة.

---

(90) معتقل الصحراء. ص 104 ـــ 105.
(91) المعسول، ص ب.

وثانيهما التفريط في المحافظة على اللغة العربية وآدابها، التي هي شعار المغرب وكنزه الموروث المحافظ عليه كلغة رسمية حتى يوم عممت تركيا لغتها في جميع أنحاء بلاد العرب... وليت شعري لماذا كنا نحرص على الاستقلال إن لم تكن أهدافنا المحافظة على مثلنا المجموعة في أسس ديننا، والمحافظة على هذه اللغة التي استمات المغاربة كلهم، **عربهم وبربرهم**، في جعلها هي اللغة الوحيدة في البلاد ؟... وكأن في هذا النقد استشراف على المستقبل الذي أصبح المغرب مرفوعاً إليه بعد الاستقلال. وقد حزَّ في نفس المختار السوسي أن يكون زملاء الكفاح تحت راية السلفية المغربية، المتفتحة على التراث الاسلامي والغربي معاً، قد أداروا ظهورهم لكل شيء، واتجهوا نحو الاستغراب الكلي في الفكر وفي اللغة وفي سائر الاختيارات، وفي هذا ما يتعارض تماماً مع ذلك المجتمع المثالي، **مجتمع معتقل الصحراء**، حيث التجديد يساير الاصالة وحيث العربية تحتضن وتتعايش مع أكثر من لغة أجنبية، وحيث المثاقفة تطغى على التعصب للغة الواحدة أو الثقافة الواحدة المغلقة...

لهذا لا يسع صاحبنا، بعد الاستقلال، إلا أن يعلنها صراحة، فيعترف أن زمام الأمر بدأ يفلت من السلفية لينتقل إلى جماعة أفرزها الفكر السلفي ولكنها اتخذت من الفكر الليبرالي الغربي نموذجاً **وحيداً** لها في الحياة والتفكير والثقافة، فيأتي اعتراف المختار السوسي بهذا التحول قائلا في أسلوب ممزوج بالتحذير (92) : «إننا نشاهد **إسرافاً** في التحول السريع **والافراط**. فنحاول أن نجمع بين **محاسن أمس واليوم**، ناصبين ميزان القسط. فإذا بنا نكاد نعيش الآن على **هامش الحياة** العادية التي اندفع إليها هؤلاء الذين **يملكون ناصية الحياة** الاجتماعية بعد الاستقلال». ولكن أو ليس من بين الذين يملكون ناصية الحياة الاجتماعية والسياسية بعد الاستقلال هم زملاؤه بالامس في المعتقل ؟ فكيف وقع إذن التراجع عن مبادىء وروح ذلك المعتقل، معتقل الصحراء؟!

والمهم أن هذا الاعتراف من طرف المختار السوسي يشبه ذلك الذي فاه به «علال الفاسي» حتى قبل الاستقلال على إثر تساؤله عن مدى نجاح أو فشل الحركة السلفية في تحقيق أهدافها. وما يستخلص من كلامه، ان السلفية نجحت في النقد وبعث الشعور بالسخط على الوضع المتردى، إلا أنها لم تحقق ذلك النجاح على مستوى

(92) نفس المصدر.

البناء، لأن «مهمة السلفية ـــ كما يقول ـــ(93) ليست في مجرد بعث الاحساس بالالم [والنقد] بل إنها عملت على تشخيص الداء وتعيين ما يلزمه من دواء. وذلك بالأسف ما لم تنجح الحركة السلفية في إقناع المسلمين به لحد الآن». إلا أنني أظن أن هناك مسافة واسعة جدا بين نشاط السلفية في تشخيص الداء وبين تعيينها لما يلزم من دواء، فإذا كان نجاحها قد تحقق في مجال النقد وتشخيص الداء، فإن نشاطها في البناء لم يلقى آذاناً صاغية لعدة عوامل ولكن من بينها أن البناء نفسه كان متواضعاً... ولعل ذلك التطور الذي شهده تاريخ الفكر في المغرب الحديث، والذي أشار إليه سابقاً المختار السوسي، كان شيئاً لا مفر منه اعتباراً لكون الفكر السلفي، بالرغم من دوره الايجابي الذي لعبه خلال تاريخ المغرب الحديث، وقدرته على استقطاب وتوحيد فصائل فكرية متباينة، إلا أن عيبه كان في افتقاره **لبديل** اجتماعي وسياسي مضبوط **ومخطط**، وهو الشيء الذي وجده بعض المثقفين **جاهزاً** في الثقافة الليبرالية وفي السياسة والمخططات الاوروبية، مما جعلهم كما قال المختار السوسي «يملكون [بالفعل] ناصية الحياة الاجتماعية بعد الاستقلال». ولعل انشغال الفكر السلفي أكثر من اللازم بعملية النقد والهدم للمجتمع القديم جاء على حساب اهتمامه ببناء المجتمع المقبل، **فغلب جانب الهدم لديه على جانب البناء**، وبذلك انفلت زمام الأمر من يده. وها هو المختار السوسي مرة أخرى، ينتبه إلى هذه الأزمة، **أزمة الفكر السلفي الحديث**، وينتبه إلى القطيعة التي أصبحت بين الفكر السلفي وبين الواقع الذي طالما عبرت عنه السلفية وطمعت في تغييره. ولكن، كما يقول، موجهاً الكلام لنفسه ولاخوانه السلفيين : «إلى متى **نهدم** الطرقيين والعلماء [المقلِّدين] بحجة أنهم يعتسفون، ثم لا يبرز منا من يسد ذلك المسد... وإلى متى ونحن نلوك السلفية **أقوالا** فارغة تحوم حول تنطعات ومهاجمات، ثم لا نرى **أثراً** للسلفية الحق...» (94).

X ـــ خاتمـــة :

لقد كان «المختار السوسي» بحق **شاهد القرن** بالنسبة للمغرب الحديث والمعاصر. فمتابعة المنحنى الشخصي لكاتبنا قد اضطرتنا إلى الرجوع إلى الوراء، إلى مغرب القرن التاسع عشر الذي كان بمشاكله وتطلعاته إرهاصاً وتمهيداً لمغرب الاحتلال

---

(93) علال الفاسي، حديث المغرب في المشرق، ص 26 ـــ 27، ط I، القاهرة 1956.

(94) معتقل الصحراء، ص 187.

والحماية. وبخلاف ما فعله «الناصري» قبله أو «ابن زيدان» معاصره، فقد اتجهت كتابات المختار السوسي إلى تسجيل نبضات الحياة المغربية انطلاقا من الأرضية الأساسية، الأرضية الشعبية بمختلف فئاتها وأصناف تفكيرها، ممّا يسمح بالتمييز بين الثوابت والمتغيرات لدى تلك الفئات، كما يسمح بالوقوف على ردود فعلها ضد الهزات الاجتماعية العنيفة، ومعرفة الركائز الدفاعية التي تتشبث بها في مواجهتها وحركتها المتغيرة.

ومن جهة أخرى، فقد لمسنا في فكر المختار السوسي أنه لم يكن بفكره حبيس منطقة معينة أو فئة فكرية متقوقعة أو اتجاه سياسي ضيق بقدر ما كان فكره بؤرة تجمّع حولها كل ما كان ينصهر في بوثقة المجتمع المغربي من مواقف فكرية واجتماعية تعكس الوضع المغربي المتنوع، بكل أبعاده. وقد بذل «المختار السوسي» الشيء الكثير بحثاً عن الوحدة داخل ذلك التنوع، مما جعله يخوض تجربة **التوفيق والصراع**، والاصالة والمعاصرة، وأن يعبِّر عن كل ذلك في أسلوب طبيعي واضح وصادق، أبان عن تميزه عن العديد من زملائه : فخلافا لجل رجال الحركة السلفية والوطنية **لم يجد «محمد المختار السوسي» نفسه مضطرا لاعلان تلك القطيعة التقليدية بين التراث الطرقي الموروث وبين متطلبات الاصلاح السلفي الجديد**. وقد كان هذا الموقف المتميز لصاحبنا راجع بالاساس إلى طبيعة **البيئة** التي انبثق منها فكره، وهو الشيء الذي يحيلنا إلى التأكيد على أهمية دور «البادية المغربية» في تشكل الفكر المغربي إلى أوائل هذا القرن، خاصة تلك البادية التي ظلت بعيدة عن التأثر الشديد بالتغيرات التي عاشتها الحواضر خاصة في القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن، كما هو الشأن في بادية «إلغ».

ولعل هذا الموقع الممتاز الذي تحتله بادية «إلْغ» وما شابهها إلى حدود الصحراء المغربية، وما شهدته هذه المناطق ــ قبل غيرها ــ من دعوات للجهاد وتأكيد على عناصر الوحدة ورفض للمحاولات الاستعمارية التجزيئية، دفع كل ذلك «بالمختار السوسي»، حين إلتزامه بالفكر السلفي ألا يساير أقطاب هذا الفكر بالمغرب في نقدهم المتعارف بينهم للفكر الصوفي الطرقي ؛ فيعلن إلتزامه بمبادىء الفكر السلفي في نفس الوقت الذي يؤكد فيه على أهمية الفكر الطرقي، كما تجلى خاصة في منطقته كفكر مؤطِّر للحياة الفكرية والاجتماعية وكحركة طالما سار المغاربة وراءها نحو تكريس

الوحدة وإنشاء المدارس بجانب رباطات الجهاد...

ولعل هذا الموقف الفكري المتميز «لمحمد المختار السوسي» ينسحب أيضاً على موقف السياسي، فهو وإن كان لا يتميز عن باقي أفراد الحركة الوطنية قبل الاستقلال في موقفه السياسي، إلا أنه طالما عبَّر بعد الاستقلال عن **خيبة أمله**، إثر التجربة السياسية الأولى بعد الاستقلال. وقد رأى في ذلك شبه **تراجع** من طرف زملائه السلفيين القدامى عن مبادىء سلفيتهم الداعية إلى الوطنية الكاملة وإلى العدالة الشاملة، فكان أن شعر بخيبة أمل ما فتىء يعلنها من جراء افتقاده لما كان يحلم به أيام الالتحام وفي خضم الصراع والمواجهة مع الاستعمار... غير أن «محمد المختار السوسي» لايفقد مع ذلك أمله، هذا الأمل الذي رأيناه سابقاً يعقده على الشباب المغربي، وهو الشباب الذي قال عنه في لغة مليئة بالثقة : «نحن موقنون أنه سيأتي يوم يثور فيه أولادنا أو أحفادنا ثورة عنيفة ضد كل ما لا يمت إلى غير مالآبائهم من **النافع المحمود**، ثم يحاولون مراجعة تاريخهم ليستفيدوا منه كل ما في إمكانهم **إستدراكه**»(95).

ولعل «الاستدراك» في هذا السياق من الكلام يعني التصحيح، تصحيح تجربة الاستقلال، وهو التصحيح الذي إن لم يضطلع به الابناء فهو موضوع الآن على عاتق الأحفاد !

وأظن أن المرحوم «محمد المختار السوسي» قد أحسن اختيار موضع أمله في التصحيح، وهل يُعلق أمل التغيير والتصحيح على غير الشباب ؟ !

---

(95) المعسول، ج 1، المقدمة.

التاريخ في الزمن المعسول
أو محمد المختار السوسي
من زمن النحو إلى زمن التاريخ

أحمد التوفيق

ان المؤلفات التي تحكي قصة الكتابة والكتّاب تستنكف عادة من احتضان خرائط جغرافية. ولربما كان مرد ذلك الاستنكاف إلى اعتبار نسبة ما بين الكتابة وبين الأشياء العلوية، ولربما كان مرده إلى ما استحكم من نفور بين ما يمس دفق العواطف وبين ما هو من قبيل حسبة التعريفات. بيد أن كل كاتب قادر على مقاومة الابتذال لا بد أن تكون لأثره نكهة خاصة ولا بد أن يصنع دماه من طينة صقعه المتميز حتى ولو عجنها بماء مزجي التركيب. فكل الذين تطلعوا إلى أحشاء البشرية أحدثوا ثقوبا في قشرة الحياة قبل أن تتمرس أنوفهم بتميز روائحها المختلفة عن بعد.

ان الذين يؤرخون للأدب انما يسعون إلى بناء هذه الخريطة التي تتميز بواسطتها احساسات مرتبطة بالأرض في سديم الثقافة الكلاسيكية باختلاف مواقع نجومها. فعند الحديث عن (الأدب «المغربي») مثلا، لا يهم أن نعرف قوة وصول الاشعاع المركزي للثقافة الكلاسيكية بقدر ما تهم معرفة زوايا انكسار تلك الأشعة عبر «منشورات» الكاتبين ومدى تولد أطياف خاصة عن تلك الانكسارات.

وقد يبدو أصحاب الكتابة المبدعة، من قومنا اليوم، وبالرغم مما يكتنف أعمالهم من غموض ورمزية وثورة مبررة، يائسين من العثور على أسلاف وأنساب، لذلك فقد يظهر الواحد منهم متحمسا لاصطناع حنين مجتث إلى الأرض فيعشق روث الزرائب أو يغدق العطف على لقاط النفايات وقد لا يتورع وهو يبحث عن هوية وفضاء عن اقتعاد حجر خطيئة تحمل جوازات الأمم جمعاء، ذلك لاقتناعه أن الكاتبين قبل هذه الأجيال الأخيرة كانوا ينتمون جميعا لأرض الملك الضليل، مكبلين إليها بزمن القوافي والإسناد، ملتزمين فيها ما لا يلزم.

ان الاستنتاجات التي ينتهي إليها أي ناقد إنما تكون بدالة أفكاره المسبقة عن ملامس القيم جمالية كانت أو أنطولوجية، لأنها هي التي تقوده في تحرياته. وعليه، فالإذعان إلى القوالب الجاهزة قد يحرمنا من لذة القراءة التي تتأتى بمعاشرة نصوص كاتب مثل محمد المختار السوسي(1). ومما يفوت هذه اللذة أنه في ترجمته لكثير من أبناء بيئته يمزج الأوشام المألوفة في مثل هذا الفن بقبسات أصيلة تُكَوِّن نَفَس الرجل الكاتب وتجعل نصه جديرا بأنْ يتبنى كنص ذي حرارة متميزة.

وفي سبيل الدنو من معطيات هذا التميز لابد من التعرف على مسار الكاتب وتتبع حياته على الخريطة، ولا يتناقض هذا المسعى مع كون النص قد يتجاوز صاحبه حتى إن بنيته لا تكفي العناصر البيوغرافية المتعلقة بالكاتب في إدراك تمفصلاتها.

ترعرع الطفل في قرية إلغ(2) على سفح أطلس جزولة(3). وفي هذه البيئة الشيحية بقيظ صيفها الذي يصنع عوالم من السراب وبقراسة شتائها التي تقزم الإنسان، ازداد ولع الجزوليين في القرون الأخيرة بتجشيم النفس مشقتين، وترويضها على اقتحام عقبتين، اذ بدون ذلك قلما تتأتى للفرد فرصة للامتياز. ففريق يبغي الخلاص بالتعلم ومغالبة الرطانة واستظهار نصوص عربية لا يقل أكثرها جفافا عن جفاف البيئة الجزولية. وقد صار كثير من طلاب مدارسهم على قدر من الحفظ والالمام بالقواعد جعل منهم مثل أولئك «العرب بالباب»، أما فريق آخر فقد طلب تصحيح لسان الجنان بصفاء يستدرك بالانتظام على الأوراد واتخاذ القدوة وخفض الجناح.

---

(1) ولد محمد المختار السوسي سنة 1318هـ/1900م وتوفي سنة 1383هـ/1963م. راجع العناصر الأساسية لترجمته عند محمد المنوني : **حياة فقيد المغرب السيد محمد المختار السوسي**. مجلة الايمان، عدد خاص، يناير — فبراير 1982. وراجع بحثا موسعا في الموضوع في مقدمة رسالة محمد خليل : **شعر محمد المختار السوسي**. مطبوع على الآلة في مكتبة كلية الآداب بالرباط.

(2) إلغ، بكسر أوله وسكون باقيه، قرية بجنوبي المغرب تبعد عن تيزنيت ب 84 كم شرقا. وهي غير ايليغ التي كتب تاريخها محمد المختار السوسي في كتاب صادر عن المطبعة الملكية بالرباط بعنوان : **ايليغ، قديما وحديثا**.

(3) اسم عام قديم لمجموع قبائل سفوح ما يسمى اليوم بجبال الأطلس الصغير إلى حدود وادي سوس شمالا.

تعتبر حياة محمد المختار السوسي ملتقى هذين الرافدين اللذين غذتهما عشرات المدارس العلمية والزوايا الصوفية في ربوع سوس لا سيما في القرى الأربعة الأخيرة(4). فقد نمّى المجتمع هناك تقاليد وأعرافا من أجل رفد النشاطين المذكورين وتموين مرافقهما بموارد من الزكوات والأعشار، وفرض تكريس هذا التقليد حتى على الأمراء متى وصلت أيديهم إلى تلك «الثريا»(5).

فدرب المختار كان سينتهي كما هو الشأن بالنسبة لمعظم أبناء الأعيان من الالغيين والجزوليين، إلى العزة بأحد النحوين : نحو اللسان العربي أو نحو الجنان الصوفي. فبالأول يتم للمتعلم هنالك الانتصار على عقدة الرطانة المحلية(6) وبالثاني يستدرك الهاشميون بعض ما فاتهم من ملك الملوك حتى يردد قائلهم : «لو عرف الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف»(7).

لكن رحلة الطالب المختار إلى مدن الشمال(8) أدنته من حمأة مستعرة بهموم جديدة عليه في أشكالها على الأقل، وما أن عانقها حتى أنسته حوته الأول وعدّلت شيئا مّا من منحنى مداره الطبيعي، فقد لقي في العواصم جيلا من قراء الجرائد ومن

---

(4) أحصى محمد المختار السوسي في كتابه **سوس العالمة** المؤلفين السوسيين من القرن السادس إلى القرن الرابع عشر الهجريين فعدهم مائتين وسبعة وستين ينتمي منهم إلى القرون الأربعة الأخيرة مائتان وأربعة وثلاثون وضعوا 756 مؤلفا من مجموع التأليف السوسي البالغ عدده 885 كتابا منها 50% في العلوم الشرعية وأصولها و13% في الأدب و2،5% في الحساب وعلوم الطبيعة و12% في التصوف و5،5% في التراجم والفهارس و10،5% في الرحلات و2،5% من المؤلفات في مواضيع مختلفة باللغة البربرية.

(5) كان عمال الدولة المركزية على تلك الجهات أما من أبناء القبائل أو من جيش المخزن، واذا وقع فتور في قوة المركز استبد أعيان القبائل بالأمور واستحوذوا على زمام المجالس المراقبة لتدبير الأعراف.

(6) تاشلحيت.

(7) قولة منسوبة لبعض الزهاد.

(8) انتقل إلى مراكش سنة 1338هـ ومنها إلى فاس سنة 1343هـ حيث أقام إلى أواخر 1346هـ ثم غادرها لينزل بالرباط سنة 1346هـ ثم عاد إلى مراكش أوائل عام 1348هـ ونفي منها إلى سوس حيث تجول تسع سنوات جمع فيها مواد كتبه وتفرغ للتأليف. ورجع لمراكش سنة 1364هـ حيث تفرغ للتدريس. وفي عام 1370هـ انتقل إلى الدار البيضاء وفيها اعتقل سنة 1372هـ ونفي إلى معتقل اغبالون كردوس مع ثلة من الزعماء الوطنيين.

المعجبين بأفكار دعاة الإصلاح المشرقيين، وكان من أثر ذلك اللقاء عليه اخراج مكنوزه من النصوص إلى سوق التداول النثري والشعري وتفتيح عينيه على بعض مضايق الطريقة وانتشال فكره من بعض أوحالها. وقد قوي بهذا الاختلاف عوده، واتسع بهذا التقلب في بيئتين أفقه، وتهيأ للنقلة التي حققها من زمن النحو إلى زمن التاريخ.

وحتى نهاية مرحلة الطلب من مطافه باتت تفصله عن طفولته مسافة غصب لغوي وغصب نفساني(9)، لكنه استعلى على الغصبين، وتخفف من العقدتين، بما لقيه من إقبال عند تصدره للتدريس بمراكش، فقد أحاطت به هالة من التبجيل قائمة على ما اشتهر به من نبوغ في إقراء اللغة العربية، بحيث تفوق في فقهها حتى على من لم تؤخذ سفينهم غصبا. أما الدعوة التي نشأ في أحضانها فقد حلت محلها عنده الدعوة الوطنية السياسية(10).

انتعش الرجل بحفاوة الحمراء وتحركت سواكنه للعمل، وسرعان ما وجد نفسه مدفوعا إلى صدارة الأحداث فكان عليه أن يرعى التكوين العلمي والوطني لشباب من طلبته، فكان يخطط لهم أفعالا يتقنون تصريفها إلى الأمر في الجوامع والأسواق، حتى تضايق من ذلك حكام الاستعمار فتجرأوا، عقابا للأستاذ، على نفيه من مراكش إلى إلغ، قريته بأقصى بلاد سوس. أقدموا على ذلك حاسبين أنهم سيصيرون فعله جامدا بتصريفه إلى الزمن الميت.

هنالك في منفاه، منفى السمك إلى البحر، بدأ الرجل يحقق خلاصه الكامل بالكتابة حتى يتمكن من حفظ توازنه بين مدارين، مدار المتأدبة من شباب الحضر ومدار المستهلكين لشعار السلفية المحدثة، وجلهم كمثله، من حفدة شيوخ الزوايا أو من أبناء تلاميذهم.

---

(9) ان المسافة بين القرية وبين المدينة هي مسافة ثقافية قد لا يطويها الراحل في جيل واحد، فلا عجب إن فات الإحساس بها الكثيرين، وقلما تجد أصداء لتجربة تلك الرحلة في الكتابة الصادقة، قلما تجد في ما يكتب بصدد هذه النقلة من مسخرات تصوير معاناة مشابهة لتلك التي عاناها شارل بوفاري في قصة فلوبير الشهيرة.

(10) يرى بعض المؤرخين أن تهميش البورجوازية المغربية دفع بأبنائها إلى التكتل في تنظيمات وطنية ضد الاستعمار، وقد تصدق الملاحظة نفسها على تهميش عدد من ذوي الجاه السابق أيضا.

هكذا رجع الولد بفتنة حادثة في الرأس إلى بلد العلم الشفوي، عند منهومين من الحفاظ قلما تجاوز التأليف عندهم اجترارا يسفر عن كراسات من الشيوخ والحواشي(11)، وقلما تعدى المكتوب في حياة قومهم العامة «ألواحا»(12) من خشب محفوظة في إيكودارن(13). رجع الفتى السوسي ثملا بعقار حضري فسولت له نفسه أن يزعج الأحياء ويناجي الموتى ويكون ثغرة في جدار الصمت، وما أحوج تلك الربوع إلى مثل ثغرته لكي تهذر عبر فطرة كاتبة ونفسية شفافة.

فنفي المختار كان إلى عالم منفي، فلا غرابة، إن أسفر فيه الزمن المحتشم، زمن التاريخ، عن سرائره، فخلع نعاله وأطرح إزاره، مادام متيقنا أن ليس واحد من الأحياء هنالك. ولا عجب إن عبر فيه الكاتب الرقيق عن عنف شوقه بسورة الجوس «خلال الديار الجزولية»(14)، متنقلا بين ربوعها مفسدا لركودها ممتطيا بغلته حاملا «لقوالب» السكر من بين هداياه، متطوفا بأرباب خزائن الكتب السوسية، جامعا للأخبار، مفتضا للأبكار من عرائس تلك الآثار اللائي لم يطمثهن قبله مغوار، وكلما ولد منهن له كتاب ازداد تهالكا على الإنجاب حتى قضى نحبه ذات يوم بحمّاه(15).

جاءت حصيلة ذلك الجمع والإنشاء أعظم مما تألف لكاتب ينتمي لهذه الربوع التي تغرب عندها الشمس(16). فيالها من صدفة إسهال لم تحلم بها قرون من الإمساك في بلد العسل والسعتر، ويالها من عرائس في لحظة استعمارية سعيدة هي لحظة النفي المترسبة فوق صعيد تفاوت ثقافي بين شقي مجتمع ما برح فكه الأعلى يقرض فكه الأسفل ويستمريه مطمئنا إلى تأويل شرس لنصوص الأعشار والزكوات.

(11) معظم المؤلفات السوسية هي من قبيل الشروح والحواشي والمختصرات.

(12) الألواح بسوس وثائق أعراف أو تملكات أو غيرها مكتوبة على الخشب.

(13) جمع أكادير وهو الحصن مطلقا والحصن الجماعي الذي يحتفظ فيه بالأقوات والوثائق خاصة.

(14) أخبار تنقلاته تلك واردة في كتابه «**خلال جزولة**» المطبوع في أربعة أجزاء.

(15) ذلك ما توحي به شهادات تلاميذه ممن أعانوه في سنيه الأخيرة على اخراج كتبه من مسوداتها، فقد كان على حال من السباق مع الزمن، ومن الاهتمام المحموم. لكي يفرغ عصارة نفسه باكمال تلك المؤلفات التي لم تكن بالنسبة إليه مجرد حلية ارستقراطية، بل قضية مراهنة على المستقبل.

(16) يزيد عدد كتبه عن الثلاثين ما بين الجزء الواقع في بضع عشرات من الصفحات والكتاب الذي تضم أجزاؤه آلاف الصفحات. ما يزال بعض مؤلفاته مخطوطا، وقد اهتم ورثته في المدة الأخيرة بطبع عناوين جديدة. ولا يتعلق الأمر بالكم فحسب لأن مادة مؤلفات محمد المختار السوسي فيها التفات إلى الإنسان المغربي، اذا قورنت بكتابات أبناء جيله والأجيال السابقة.

ليس هنالك من شك في أن المختار الكاتب صنعته مصائر مختلفة أشرنا إلى بعضها، حتى تمخضت عن مسيرته فرصة متاحة لذاكرة مبتورة كانت بقية أشلائها ستضيع في السراب لولا أن تداركها بجمعه وقيد بعض أوابدها بتصنيفه ورسمه.

تحصلت لمحمد المختار من متقلبه في ربوع جزولة مادة صنع بها عشرات التصانيف في تاريخ سوس عامة وتاريخه التعليمي والأدبي خاصة. وقد نص في المقدمة على أن مشروعه تبلور في ذهنه بالتدريج وتطورت من مجرد الرغبة في تخليد ذكر قريته إلْغ إلى كتابة موسوعة تتناول كثيرا من أخبار الجهات السوسية. وحتى المشروع الأصلي كان بإيعاز من بعض أهل الكاتب(17)، ممن عز عليهم أن تضيع بالنسيان الأمجاد العلمية لأسرة الجد عبد الله التهالي الإلغي المتوفى سنة 1051ه(18). ومن الواضح أن كاتب «المعسول»(19) كان على استعداد لتلبية تلك الطلبة وهو الذي زامن مقامه في شمالي المغرب صدور مؤلفات موسوعية في التاريخ الثقافي والتعليمي لبعض الجهات المغربية الأخرى مثل كتاب «إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس»(20) لعبد الرحمان ابن زيدان، وكتاب «الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام»(21) للقاضي العباس بن ابراهيم، وكتاب «الاغتباط بتراجم أعلام الرباط»(22) لمحمد بوجندار.

وبالرغم من كون هذا الصنف من التآليف الذي أسهم به أصحابه في تاريخ الثقافة الاسلامية، طبيعي وتقليدي، وعلى منوال ما هو معروف من تخصيص بلدان وحواضر بكتب أخبار وتراجم وخطط ومعاجم كما خصصت بذلك مكة ونجد ودمشق والشام وبغداد والقاهرة وإفريقيا والقيروان وفاس ومراكش وغيرها، فإن خجل الكاتب من عمله جلي بين في المقدمة، ولا يستبعد أن يكون ما أبداه من تحفظ عائدا إلى ما هو مألوف من تلوم نفسي عند الورعين من أهل الثغور. فالكاتب شديد

---

(17) راجع المعسول : 1 : 23. حيث يذكر أنه الحسن بن أحمد البونعماني.

(18) راجع المعسول : الجزء الأول.

(19) مطبوع في عشرين جزءا.

(20) مادته أساسا من الوثائق الرسمية.

(21) مادته أساسا من كتب التراجم والتواريخ القديمة.

(22) راجعه في الخزانة الحسنية تحت رقم 1349.

الحرص على تبرير «فعلته»، وهو في سبيل ذلك متردد بين الإقرار بدور «النعرة الجزولية التي ثارت منه كما يمكن أن تثور في كل بشر نحو مسقط رأسه»(23) وبين إعلاء هذه النزعة الطبيعية بقوله : «وختاما أقول أن كل طلبتنا وراء هذا العمل أن يعرف أن هناك في قاصية الجنوب المغربي لعلوما عربية وآدابا مسترسلة منذ القرن الخامس الهجري، إذا أدرك القراء هذا أدركوا من ورائه أن من في تلك الزاوية الجنوبية المغربية شاركوا أيضا في النبوغ المغربي في العلوم العربية وآدابها فإن ذلك مقصودي الذي انقطعت له منذ سنين»(24).

ان الكتاب الأعظم الذي جمع فيه السوسي شتات أخبار العلم والدين والمجتمع والسياسة في الجهات الجزولية خاصة هو كتاب «المعسول». واختيار هذا العنوان يفرض على الناقد ألا ينسى للمؤلف بيئته الفائحة بما يصدر عن شجيرات زكية تحت تأثير شدة الجفاف، فالعنوان بعيد عن الخلط والاختلاط مثير للحياد مجاف للإعلان والإشهار الذي تتسم به عادة عناوين المؤلفات التقليدية في مواضيع مماثلة.

ان التفكير في تصميم هذا الكتاب، أي في المنوال الذي نسج عليه لا بد أن يدفعنا إلى البحث عن مصدر استيحائه حتى ولو كان خاضعا لمنطق قائم في الواقع نفسه، وليس من مجرد الطرافة أن نتذكر بهذا الصدد أن المنطقة الجزولية تحتضن غير بعيد جدا عن إلغ حاضرة تازروالت حيث كانت حركة الشيخ أحمد بن موسى وأبنائه(25). وقد كان لهذه الحاضرة نفوذ في عهد الشيخ وفي عهد أحفاده، وكان من معطيات هذا النفوذ تجارة السودان والروابط المتينة مع الدولة السعدية أيام ازدهارها. ومن الظواهر التي تخلفت عن تنظيمات مؤسسة تازروالت، واستمرت إلى قرننا هذا في شكل فولكلوري، ظاهرة الشباب الرماة الذين يطوفون على القرى حيث يقومون بحركات بهلوانية يعتقدون أن بركة الشيخ تقدرهم على إتقانها. وتقوم الحركة الجماعية الرئيسية في هذا التمرين على بناء هرم من البشر يتأسس على فرد واحد يردف فردا آخر على كتفيه ثم تتسع القاعدة تدريجيا بانضمام آخرين عن اليمين وعن الشمال وبذلك تتأتى إمكانية اتساع الطبقة التي تتأسس على أكتاف الرجال وتتأتى بالتالي إمكانية

---

(23) **المعسول** : 1: 23.

(24) **المعسول** : 20: 284.

(25) راجع : محمد المختار السوسي : **إيليغ قديما وحديثا**.

ارتفاع الفرد الواحد الذي في القمة، فإذا كانت القاعدة تتكون من ثمانية فالطبقة الأولى تتكون من ستة والثالثة من أربعة والرابعة من اثنين يردفان الواحد الذي في القمة.

إن هذا الهيكل الذي يبنيه رماة تازروالت يأتي على هيئة تصور الأنساب السلالية عند جزولة وعند المصامدة عموما، فرقة أو قبيلة أو أسرة كبيرة تنتهي إلى جد واحد، موقعه دوما على بعد بضعة أجيال معدودة، أضف إلى ذلك أن المتفرج على اللعبة التازروالتية لا بد أن يلاحظ السرعة الفائقة التي تبنى بها على شكل موسع أو مختصر، وبالتالي، سرعة تفكيكها جزئيا و كليا مما يوحي بخاصية أخرى لتصور سيرورة الحوادث في هذا المجال ألا وهي خاصية الاندثار بعد البناء حتى لا يبقى شيء واصل بين تلك الحلقات التي تتشابه مع ذلك.

ما أقرب هذا النموذج إلى الأسلوب الذي اختاره مؤلف «المعسول» لتصنيف كتابه. فهو لم يتبع أسلوب كتب الوفيات التي لا تجمع بين المدرجين فيها غير سنة الوفاة، ولم يتبع أسلوب الطبقات المهلهل أحيانا بتوزيع المترجمين حسب المذاهب أو الفنون، ولم يلجأ إلى أسلوب الحوليات ليخلد ذكر قريته وأهلها لأنه مقتنع، على ما يبدو، بأن منهج الحوليات أكثر توافقا مع الحوادث السياسية الكبرى المرتبطة بالدولة. وبعد هذا لم يكن ينتظر من المؤلف أن يتبنى ما يسمى اليوم «بالاشكالية الاجتماعية» لينظم بها تاريخ إلغ وما ارتبط به من أنحاء القطر السوسي على صعيد الثقافة والدين والسياسة والمجتمع. ولكنه سعى إلى أن يجمع أطراف التاريخ السوسي المرتبط بإلغ كمركز للإشعاع العلمي والصوفي. وقد توسل إلى نظم سلك هذا التاريخ بصنع هرم بشرى يتكون في الحقيقة من ثلاثة أهرامات متداخلة يوجد في قمة أكبرها الشيخ التهالي جد الأسرة الإلغية وكانت وفاته سنة 1051هـ ، وفي قمة الهرم الثاني يوجد محمد بن عبد الله مؤسس المدرسة الإلغية(26) المتوفى سنة 1303هـ، وفي قمة الهرم الثالث يوجد الشيخ علي الدرقاوي(27) والد المؤلف وهو صاحب الزاوية الإلغية الصوفية المتوفى سنة 1328هـ.

يضم «المعسول» أربعمائة وثمانين ترجمة لسوسيين من رجال العلم والتصوف

---

(26) راجع ترجمته في الجزء الأول من **المعسول**.

(27) راجع المختار السوسي : **الترياق المداوي في أخبار الشيخ سيدي الحاج علي الدرقاوي**.

والرئاسة، تشدهم إلى الشخصيات الثلاث المذكورة روابط المشيخة أو التلمذة أو الصحبة في العلم أو التصوف، ويمكن ترتيب المترجمين حسب البرنامج التالي :

الوفيات	الفترة	عدد المترجمين	ملاحظات
	القرن الثامن الهجري	1	ذكروا استطرادا قبل
	القرن التاسع	2	تأسيس الأسرة.
	القرن الحادي عشر	10	من بينهم التهالي
	القرن الثاني عشر	16	مؤسس الأسرة.
	من 1200 إلى 1270هـ	7	من بينهم مؤسس المدرسة
	من 1271 إلى 1330هـ	70	ومؤسس الزاوية.
	من 1331 إلى 1360هـ	150	
	من 1361هـ إلى وقت التأليف	143	
الأحياء	....	81	
		480	

أراد المؤلف أن ينجز بتصنيفه هذا عمل مؤرخ، لذلك حرص على أن يذكر لنا بصرامة أنه يريد أن ينسلخ من الأدب ويتحلل من قيوده حيث يقول : «وأسوق ما يصلح للمؤرخ الماهر وإن كان لا يصلح للأديب الماهر»(28) والحدود بين الأدب والتاريخ لديه هي الحدود التي بين الغث والسمين وبين السقيم والصحيح أي بين الشكل والمضمون، والقضية في نظره لا تعدو أن تكون قضية نفسية.ويمكن أن يعتبر هذا الموقف من قبل المختار السوسي موقف تجاوز بمعنى أنه اهتم بعلم يوجد في مكانة أدنى في تصنيف العلوم في نسقه الحضاري حيث العلوم الشرعية الاصطلاحية في المرتبة الأسمى، وحيث التعبير الراقي مرتبط بفنون الأدب المختلفة، بينما ظل التاريخ لا يعبر، في صيغة الحوليات غالبا، الا عن حاجة الأمة لحفظ أيامها وسيرها وأنسابها في أشكال محدودة وضمن اهتمامات استقرت مع الأيام على نمط من الأخبار التي تستحق الذكر لا يخرج عنها هذا النوع إلا عند ذكر بعض الحوادث المدهشة. أما ما يتعلق باليومي والفردي العادي والجماعي غير الرسمي في منظور مكبر أو مصغر، فقلما وجد مكانه في مصنفات كبار أصحاب الحوليات، وانما تسرب منه ما تسرب ضمن كتابات أشخاص لم يكن لهم باع لا في الفقه ولا في الأدب ولم يكونوا بالتالي

(28) راجع : **المعسول** : 20: 279.

مقيدين كل التقيد بحدود معنى الكتابة مضمونا وشكلا أي أنهم أقرب إلى الفكر العامي منهم إلى تكوين العلماء، يكتبون عن الرديء بالرديء قصورا منهم عن الكتابة «بالشكل الرفيع» عن «المضمون الرفيع» ولهذه القضية خطورتها اذا علمنا أن الثقافة اللغوية، كأداة، والتعبير الأدبي كقالب والتصورات المستنبطة بفكر مًا من المعتقدات كإطار للعالم هي أمور تتحكم في نهاية المطاف في ما يختاره المؤرخ ويحكم عليه بالاستحقاق للتسجيل كما تتحكم في الصياغة التعبيرية التي يقدم فيها هذا المختار من الوقائع والأحداث والظواهر.

ان تحطم الحدود المضمونية في الثقافة الانسانية قد تم في الغرب الأوربي بفعل ثورات فكرية في شتى الميادين، وقد ترتب عنه انفجار في القوالب الأسلوبية كذلك، وبذلك تأتت في ميدان كتابة التاريخ مثلا التفاتات جديدة وصياغات مناسبة لها، ولا شك أن تأثر المشرق والمغرب بهذا التطور بعد الاحتكاك بأوربا كان بطيئا جدا، لكن هذا البطء لم يمنع بعض الأذكياء، وان لم يطلعوا على نبذ من التاريخ الأوربي إلا من خلال الترجمة، من إدراك البعد الجديد للتاريخ الموظف في قضايا الأمم والجماعات، وهذه نقطة تمس جانبا من النهضة ليس هذا مكان الوقوف عندها. والقصد هو أن نلاحظ أن إلحاح المختار السوسي على تحديد صبغة مشروعه «التاريخي»، وذلك بتمييزه عن الأدب ولو بنسبته إلى الغثاثة والركاكة أي بالتركيز على الموضوع، هذا الإلحاح لا بد وأنه كان تأثرا بهذا التيار العصري الذي بلور إحساسا بضرورة تجاوز ثقافي لنسق مغلق بخلق ثغرات داخل النمط العام الذي عنوانه «الأدب» والذي يتحكم فيه الشكل قبل المضمون.

وكانت النتيجة الأولى لهذا القصد عند المختار السوسي هي التنزل إلى ما يقتضيه الالتفات إلى ما لم يكن يلتفت إليه، أي الاهتمام بشكل من التاريخ مخالف إلى حد ما لما كان متعارفا عليه، ويتضح ذلك الوعي في اقراره بأن كتابه «المعسول» «كتاب تاريخ يحشر فيه كل ما أمكن»(29). بل إنه يعبر عن وعي أكثر تطورا عندما يذكر أن في عمله تجاوزا لا للماضي فحسب، بل تجاوزا للحاضر أيضا لأن ما جمعه من «مادة» في كتابه إنما قصد بها «افادة المؤرخين **غدا**»(30).

---

(29) نفس المرجع والصفحة.

(30) راجع **المعسول** : 20: 287 : لقد ألف كتاب المعسول والحرب الكونية الثانية في عنفوانها. =

والعنصر الأساسي الذي يرتبط به هذا التطلع أو التجاوز عند المختار السوسي هو تصوره لمشروعه على أنه جمع «للمادة التاريخية» التي تصلح للمؤرخ، فهو بهذا التصريح يتملص من دعوى كتابة «تاريخ» قائم بذاته. لأن التاريخ الذي يمكن لغيره أن ينشئه من تلك «المادة» هو **استنتاج**. وهو لا يذكر لنا معنى هذا الاستنتاج كما يحجم عن ذكر الأسباب التي جعلته يتوقف عن القيام به بنفسه، وكل ما يذكره هو أنه يقدم مجموع كتابته «للمؤرخ الذي يستنتج من السقيم ومن الصحيح»(31)، وبإمكاننا بعد الإصغاء إليه أن نتساءل عما إذا كان تصوره للتاريخ يتعدى قضية أسرة (دور الأسرة الإلغية في نشر العلوم العربية بسوس) أو قضية الوطنية بصفة عامة. كما يمكننا أن نتساءل عما إذا كان «الاستنتاج» الذي يومىء إليه يتعدى مجرد **العبرة والإنطباع والإشهاد** ليكون شيئا آخر من قبيل الجدل المرتبط بإشكال تاريخي مكتمل العناصر.

لكن المؤلف كان على وعي بجزئية ترتبط بهذا التاريخ المكتمل، وقد عبر عنها بـ «**حشر**» أكثر ما يمكن من العناصر الاخبارية في كتاباته. وقد توسل إلى هذا الجمع بنصب شبكة تمتد خيوطها من الشخصيات الثلاث المذكورة أعلاه : مؤسس الأسرة ومؤسس المدرسة ومؤسسة الزاوية. وقد ربط بهم عن طريق المشيخة والتلمذة في العلوم والأخذ الصوفي والصحبة الرئاسية، عددا من التراجيم ذكر في ثناياها هذا **الحشر** من الأخبار متعمدا الإطناب لأنه يريد «تصيد الفرص»(32)، حتى يتمكن من التعرض لأكبر عدد ممكن له من الحوادث. فهو قد ألف كتابه «المعسول» لهذه الغاية بعد أن أضجره ما في مؤلفات السوسيين من أمثال الحضيكي والكرامي وغيرهم من ايجاز مخل. وهذا الاخلال، كما يحاول أن يتجنبه، بتر للذاكرة واعدام لما كان لا بد من أن يخلد.

فالتراجم نوع من الكتابة قد يتسع أكثر من غيره للاستطراد الذي هدف إليه

= والغد الذي يتحدث عنه المؤلف هو غد ما بعد المنفى وغد ما بعد الأزمة أي غد الاستقلال، فيربط بينه وبين مشروعه التاريخي الذي يقدمه سابقا لأوانه حيث يقول : «ولعل كل ما سودناه يكون له شأن فيكون أفضل هدية لمن سنفد عليهم غدا ان شاء الله يوم تنفرج الأزمة ان شاء الله».

(31) **المعسول** : 20: 277.

(32) **المعسول** : 18: 402.

المؤلف، ويمكن بالتالي من ذكر عناصر تمس الحياة اليومية ولو في حالة لقطات مشتتة، ولما كان المختار السوسي قد قدم مترجميه في صلاتهم بأسرة امتد ذكرها قرنين على الأقل عبر نشاط مدرسة علمية وزاوية صوفية فإنه قد تفادى التشتت المطلق وكثف تحرياته في مجال شبه محدد، ومع ذلك يظل مسعاه قاصرا عن ملامسة إشكالية تاريخية عدى قضيته الكبرى : إثبات دور هذه الأسرة في نشر العلوم العربية بسوس. ولعل إحساسه الغامض بذلك القصور هو الذي جعله يلح على الإقرار بأنه إنما يقدم مادة لمؤرخ الغد.

واذا كان ولوج باب التراجم يخضع عادة لشروط تحددها الأمجاد العلمية والسياسية والأنساب والمناقب والآثار الأدبية والانتماءات المذهبية فإن المختار السوسي كان بانطلاقه من الأسرة الإلغية وما لها من علاقات مشيخة وتلمذة وصحبة مضطرا إلى أن يفتح تلك الباب على مصراعيها حيث ذكر في مترجميه عددا من غير «المستحقين» عادة، وعلى هذا التوسع انتقده عدد من معاصريه المتشبتين بشروط الإدراج في «النمط» أي الذين لا يقبلون أن يقرأوا في الكتب أخبار أشباه العاديين من الناس. إلا أن المؤلف قد اشترط أن يكون المترجم له على قدر أدنى من الإلمام بقواعد العربية، أي أن النحو لم يغب بصفة كلية بل ظل رقيبا متساهلا على بويبة التاريخ. وإذا كان تشدده في تطبيق قواعد اللغة من جهة، وتساهله مع مترجميه من جهة أخرى، مما ينطوي على مفارقة، فإن فهمها ممكن، على ما يبدو، اذا أدخلنا العناصر التصوفية في تربيته، ويرجح هذا التأويل أن المؤلف أفرد كتابه «منية المتطلعين...»(33) لتراجم بسطاء المتفقرة من رواد الزاوية الإلغية، وهكذا فالميول الخاصية لدى المعتزين باحتكار أدوات الإنتاج اللغوي تعدلها في هذا المجتمع الميول العامية عند المتشبعين بحكمة الأوراد.

ان ما أنجزه مؤلف «المعسول» هو كتابة عدد من التراجم المتفاوتة في طولها حسب ما هو مبين في برنامج الكتاب. وقد جمع مادة تلك التراجم من الرواية الشفوية ومن تقاييد وكناشات وفهارس وإجازات وكتب تاريخية نادرة.

(33) «**منية المتطلعين إلى من في الزاوية الإلغية من المنقطعين**» جزء مطبوع. تحدث فيه عن عشرات الفقراء البارزين من تلاميذ والده الذين استحقوا التخليد بصلاحهم لا بعلومهم أو حيثيات اجتماعية أخرى.

I– أشياخ الإلغيين

	في العلوم	في التصوف	
8.7.6.5	(43)	(20)	4

III– أصحاب الالغيين (63)		**II– الالغيون**		
من العلماء	18	من العلماء	المرابطون (22)	1
والرؤساء	19	والرؤساء	السعيديون (45)	2
والمتصوفة	20	والمتصوفة	غيرهم (69)	3

IV– تلاميذ الالغيين

	في العلوم	في التصوف	
11.10.9	(92)	(125)	14.13.12 17.16.15

برنامج كتاب المعسول ـــ (43) = عدد التراجم ـــ 1 الأجزاء التي توجد فيها.

إن إصرار المؤلف على القول بأنه إنما يقدم مواد تاريخية «لمؤرخ الغد» يجعلنا نفترض لديه تصورا خاصا لهذا التاريخ في غير الصورة «الخام» التي تشكلها تراجم «المعسول»، بمعنى أنه لم يستطع تحقيق ذلك التصور الممكن التحقيق باستعمال المواد التي يقدمها إلينا، فتكون التراجم حينئذ، وحسب ما يقتضيه هذا المنطق، مجرد رزم قابلة للتفكيك، متى أريد توظيف عناصرها ضمن تصاميم «عصرية» تنطبق على تصور آخر للتاريخ.

إن هذا الاقتراح يثير إشكالا مرتبطا بالعملية التاريخية برمتها، أي بالحدود التي تخضع لها صياغة النص التاريخي بالضرورة. ويتضح هذا الإشكال إذا ما حاولنا أن نأخذ «المواد التاريخية» الواردة في المعسول قصد توظيفها في تأريخ بصياغة أخرى. فعندئذ تواجهنا عدة مشاكل منها تحديد طبيعة مادة قابلة للعزل داخل نص مًّا. فالمعلومات الكمية التي يبدو أنها يمكن أن تستل بسهولة، لا تقل ارتباطا بمجموع السياق من غيرها، وينطبق هذا الحكم حتى على المعلومات المتعلقة بالظواهر الطبيعية أو الأوصاف الجغرافية، لأن الصياغة التي تقدم فيها إلينا من انشاء الكاتب سواء كان

شاهدا من الدرجة الأولى أم لا. ويصدق هذا التحفظ بالأحرى على كيفية تقديم الوقائع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ذلك أن سياق هذه الحوادث يمتد في الغالب على النص بأكمله أو على جزء منه أو تطفو على سطحه منها بعض النتوءات، ويبقى استكمال تصور أسبابها ومعطياتها مستحيلا أمام فقدان العناصر الإحصائية والتحليلات الاجتماعية. فقد نجد في أي نص مثل نص «المعسول» فوائد كثيرة مما يبحث عنه المؤرخ الحديث، ولكننا لا يمكن أن نجد فيه كل ما نبحث عنه لأن مثل هذا الاستقصاء لا يتم إلا بداله تصور شبه شامل لعناصر بنية الوقائع المعقدة. بل يدخل هذا النقص في الإخبار والتحليل ضمن المنسي أو المغفل، بل يدخل في مجال ما لم يدرك أو ما لم يفكر فيه.

إن تجربة تفكيك النص، على فرض مشروعيتها، ممكنة تحت عناوين عامة، وذلك بإجراء قراءة شاملة بهدف استخراج مواد منفصلة تصنف ولو بشكل تعسفي إلى ما هو «سياسي» وما هو «اقتصادي» وما هو «اجتماعي» وما هو «ثقافي» إلخ.

ولا بد من ابداء ملاحظات تمهيدية لكل مشروع من هذا القبيل ومنها :

ـــ أن المشروع البنيوي أو الأركيولوجي وإن كان قمينا بأن يستكشف من خلال نص «المعسول» تلالا شاهدة وآثارا دالة على بنى واقعية أو متخيلة في الماضي لا يجد في هذا النص كل المواد التي تمكن من اعادة بناء صورة متكاملة للحياة في المناطق التي تناولها النص.

ـــ أن المؤلف يستعمل زمنين، زمن سرد الحوادث المتعلقة بالأشخاص المترجمين وبالجماعات المذكورة عرضا في التراجم، والزمن الممتد حيث يلتفت من حين لآخر إلى ما هو مطرد في بيئته ليقدمه لنا على أنه من «عادة» الجزوليين في كل زمن.

ـــ أن مشروع التاريخ الشامل لا يوجد في نص «المعسول» إلا على شكل شظايا، لأن المؤلف ابن بيئته يرى أُمورا ويغض الطرف عن أخرى ولا يظهر له البعض الآخر بالمرة، وما يصدق عليه بهذا الصدد يصدق بالأَحْرى على مصادره الشفوية منها والمكتوبة.

ـــ أن المؤلف ينبهنا في مقدمة الكتاب إلى أنه من «كتاب اليمين» الذين يثبتون الحسنات بخلاف «كتاب الشمال» (بكسر الشين) الذين ينقرون عن السيئات. ولا يخفى ما للبيئة الجزولية من أثر عليه بهذا الصدد، فهنالك يحمد للطفل أن يمشي

قاصدا غاضا من بصره. ولا تعدم هذه البيئة نفسها وجود مشرحين للبشاعة البشرية على مستوى الأدب الشفوي خاصة.

وبعد ابداء هذه التحفظات يمكن القول بأن تجربة التفكيك المشار إليها أعلاه قد تم انجازها بالفعل(34)، وقد أسفرت نتيجته الأولية عن حصيلة لا تتناسب مع حجم المادة المودعة في الكتاب، وذلك سواء من منظور الباحث التاريخي المنقب عن معلومات كمية تتعلق بالديمغرافية أو الاقتصاد أو الباحث عن ملامح اجتماعية أو ملامح السلوك السياسي في العلاقات داخل الجماعات أو فيما بينها وبين الدولة المركزية. ومع هذا كله فالكتاب منجم من المعلومات المتعلقة بالحياة التعليمية داخل أزيد من مائتي مدرسة وكذا بالنسبة للحياة الصوفية التي يذكر أزيد من مائة مركز من مراكزها.

ان القارىء حتى ولو لم يكن ناقدا فنيا لا بد أن يتجاوز إقرار المؤلف بأنه إنما يقدم «مادة تاريخية»، ليجد نفسه أمام قضية النص نفسه، قائما محفوظا ذا شخصية وذا لون ونكهة وميزة، فهناك غزارة واضحة وفي ثناياه حرارة ملموسة، وعلى هذا الأساس يهم القارىء عموما ولا يهم المؤرخ وحده. فالكاتب «ابن بلده» وقد طاوعته اللغة لكي يفرغ في القراطيس لا معلومات فحسب بل أحاسيس وتصورات في ثنايا تلك التراجم. فهذه الثنايا قوام حياة النص، وان كانت لا تهم الكاسر الذي يهمه أن يقتلع اللحم من بين عظام الجثة الهامدة وينصرف.

فلا بد من التماس الكاتب في نصه بصياغته لأن «المواد» التي يقدمها ليست ركاما حطاما بل هي هيكل صنعه لقريته إلغ ودخل فيه وعبر به إلينا سفينة في الاتجاه المعاكس لاتجاه الموت، لأنه ذاب في نصه كما يذوب المحبون والمنفعلون، فقد قبض قبضة من أثر الزمن الإلغي وقذف بها إلينا، ولا يدري أنه انقذف مع تلكم القبضة، فوصل إلينا في ثنايا تحدِّث شاعر معرة إذ يقول :

أمس الذي مضى، على قربه يعجـــز المرء عن رده

هناك نصوص يذوب فيها أصحابها من رقتهم، وهناك أقلام قد لا تحسن التاريخ صناعة وعلما ولكنها تستطيع أن تنقل الزمان فنا وانفعالا، وما أكثر ما يفضح انفعالها

---

(34) ضمن بحوث نهاية الإجازة في التاريخ بكلية الآداب بالرباط في السنة الجامعية 1976 ــ 1977.

الاستطراد، ومن ثمرات هذا النوع من الأقلام نصوص المختار السوسي، فهي أشبه بالغابة العذراء تصلح أشجارها لأشياء كثيرة مفيدة، بل ويدعي هو نفسه أنه غرسها لتلك الفوائد، ولكن أمرها تجاوزه ونصه تعداه، كما يتجاوز الانفعال رصانة الواقع، ولو استفدنا من أشجار تلك الغابة لما كان ذلك غصبا لها ولا إعداما لطيبتها، لأن هذه الطيبة هي الزمن المشع الذي أفلته المختار من الموت، فذلك النص أنفاس صاحبه، ولون ذلك الماء لون إنائه.

ليس من المعجز أن تفكك هذا النص إلى أخبار ومعطيات تاريخية لتدخلها في أي سياق آخر عن تاريخ بلاد جزولة أو تاريخ المغرب ككل بدعوى التجديد في الطرح الإشكالي، كما ليس من المستحيل أن تحول صفائح طيارة حديثة إلى ألواح لبناء بيت من القصدير في ضاحية، بل قد يكون من الطريف أن تقدم عصائد البر الإلغي في أطباق فندق عصري بدل أن تتناولها في قصاع تفوح منها نكهة الفخار.

لا يمكن إعلاء أي نص فوق التاريخ، ولكن إذا كان التأريخ هو توسيع ذاكرة الإنسان فإن المختار السوسي قد قام بهذا التوسيع في الحدود المتأتية له وضمن الآفاق المفروضة عليه. وقد صاغ تلك الكتابة في نص يحمل بصماته، فهو في كتابته يشرئب إلى المستقبل ويهفو. فقد أنتج أدبا ـــ تاريخا ـــ نصا موضوعه عالم محلي مليء بالمكبوتات والمغفلات والمكروهات الاجتماعية، وهو بالتالي عالم مليء حافل بالإعلاءات والرموز. فقد ترجم لأناس عاشوا حياتهم بمعان أخرى وقد اجتهد الكاتب في ترجمة تلك المعاني. فنصوصه لهذه الاعتبارات أصيلة لا ينتظر أن تمل قراءتها ولما تبدأ، ولا ينتظر أن يبليها التفكيك، وقد لا تصمد معه نصوص أخرى مما كتبه أهل وطنه من ذلك الجيل. فهي نصوص لها قيمة الوثيقة الفريدة عن إنسان منقرض أو في طريق الانقراض. انسان بحضارته وخيالاته وكدحه، تمتع بمقومات كاملة ترديها اليوم وتقتل أصداءها تبليطات الاسمنت المسلح في كل مكان، ويبقى الحنين إليها مشوبا بالغموض، ويبقى في كتابات المختار رجع صدى، لذلك يصعب الإقرار معه بأنها مادة خام، والواقع أن كل شيء مفكر فيه مكرر، بمعنى أنه يفقد «خاميته»، بل يصير كما سواه صاحبه ونفخ فيه. لذلك وجب تحريم التمثيل بالنصوص وتشويهها.

مشروع اعادة كتابة تاريخ المغرب في تصور محمد المختار السوسي

علي المحمدي

يعتبر محمد المختار السوسي شخصية ذات عطاء زاخر في مجالات متعددة. تلك المجالات التي لا نعرف منها سوى ما تضمنه المنشور من مؤلفاته، التي ما تزال في حاجة إلى قدر كبير من العناية لابراز شخصية محمد المختار في مختلف أبعادها، ولتقويم مختلف مساهماتها. غير أن التنوع الملحوظ في نشاط محمد المختار، والتقلبات التي اعترت حياته، لا سيما تلك التي جعلته ضمن نخبة المثقفين التي كانت تقود الحركة الوطنية المغربية منذ أوائل هذا القرن، تجعل دراسته ككل بشكل مفيد أمرا غير هين ؛ اعتبارا لذلك ارتأيت رصد شخصيته من خلال نقطة تقاطع مختلف اهتماماته، وموضع تجلي مؤثراته وتصوراته.

يعد التأريخ من أبرز نشاطات محمد المختار في مجال الفكر. ولما كان هذا المجال قد استقطب اهتمام كل من جهاز الحماية الفرنسية وأقطاب الحركة الوطنية، امكننا النظر إلى تقلب شخصية مثقف في غمرة الظرفية التي كان المغرب يمر بها في بداية هذا القرن، وكذا ابراز مدى تفاعل محمد المختار مع ظروف فترة عصيبة من حياة مجتمعه، اضافة إلى امكانية ابراز مصدر اصالة نظرته إلى التأريخ كنشاط فكري فعال ضمن وسائل مواجهة الفكر الاستعماري وما كان يستهدف تبريره من مخططات.

اهتم محمد المختار بالتأريخ قبل سنة 1937 ؛ إذا كان قد انكب، أثناء مقامه بمراكش، على انجاز مؤلف عن «مراكش في عصرها الذهبي». ويمكن اعتبار هذا المشروع، الذي كان النفي قد حال دون اتمامه، محاولة أولى لبلورة تصور كان محمد المختار قد كونه عن تاريخ المغرب كما تعكسه المؤلفات التاريخية. ولاستجلاء جوانب تصوره هذا يكون من الأفضل الانطلاق من تصريحه التالي : «[...]، وبعد فإن

تاريخنا لم يكتب بعد كما ينبغي حتى في الحواضر التي كتب عنها كثيرون قديما وحديثا. فهذه مراكش التي كتب عن رجالاتها الزائرين والساكنين شيخنا سيدي عباس، لم تفز بعد بمن يكتب عن نواح شتى من ادوارها التي تقلبت فيها»(1).

ان أهم ما يعكسه هذا التصريح هو شكل تعامل محمد المختار مع جانب من تراث وطنه. فهو ينم عن استقراء وتمعن، سابقين للتقويم، تقودهما حاسة النقد ومنظور مغاير لما ينبغي أن يخلد بالتدوين من جوانب حياة المجتمع المغربي. ويختلف في ذلك محمد المختار عن سابقيه وعن بعض معاصريه كعباس بن ابراهيم المراكشي الذي استهدف الترجمة لرجالات مراكش الزائرين والساكنين جريا على نهج سابقيه، وان كان قد تميز عنهم باثبات كل ما كان يتداعى لذكرهم من أخبار مدعمة باصناف من الوثائق. فالمراكشي كان يرى في مؤلفات من سبقه مصدرا لاستمداد مادة التدوين، أما الإشكال المنهجي عنده فكان يتلخص في ضرورة الحفاظ على كلام من تقدمه بنصه أو التزام المعنى دون المبنى. ومن ثم فمحمد المختار كان يرى أن الكثير من جوانب تاريخ مراكش لم ير النور بعد. بمعنى أنه في حاجة إلى من يجمع شذراته ويؤلف بينها بقصد ابراز الادوار الهامة التي لعبتها مراكش في تاريخ المغرب. غير أن القصور في ما كتب عن تاريخ المغرب يراه محمد المختار في تاريخ البوادي بصفة أكبر من الحواضر وإن كان ذلك التفاوت نسبيا.

إذا كان ما كتب عن تاريخ المغرب ليس بالتاريخ المطلوب، فما هو إذن هذا التاريخ المطلوب ؟ إن الاجابة عن هذا السؤال تقتضي تحديد مفهوم محمد المختار للتاريخ ؛ ذلك أنه يسم بالنقص ما كتب عن تاريخ المغرب عبر تصريحات ضمنها مقدمات مؤلفاته، بصفة خاصة، لكنه كان متذبذبا في تحديده للتاريخ المعني. فقد كان يتراوح في تعريف هذا التاريخ بين استعمال صفتين، فتارة يخصه بصفة العام(2) وتارة أخرى يعرفه بالتاريخ العلمي(3). لتجاوز هذا الغموض يكون من المفيد صرف النظر عن هذه التصريحات، والتوجه نحو استشفاف هذا المفهوم من خلال كتابيه : «المعسول» و«خلال جزولة». فالمعسول المكون من عشرين جزءا تناول فيه

---

(1) محمد المختار السوسي — سوس العالمة — المحمدية : مطبعة فضالة، 1960، ص. ج.

(2) نفس المصدر ص. هـ.

(3) نفس مصدر الاحالة 1 ص. أ.

تاريخ سوس، بصفة خاصة، عبر تراجم لشخصيات لعبت أدوارا في تاريخ سوس العلمي أو الديني أو السياسي. أما كتاب «خلال جزولة» فيتضمن أوصافا وأخبارا وتصورات. غير أن هذه المادة المتنوعة صبت في قالب أعلام يحتضن الجغرافي منها البشري. فمحمد المختار من حيث الشكل الذي قدم به تاريخ سوس ظل وفيا للاتجاهات التقليدية التي ظلت متبعة في كتابة التاريخ ليس في المغرب فحسب وانما في سائر انحاء العالم الاسلامي. لكن الجديد في منهجه هو مزج سائر أصناف المصادر التي أمكنه الوقوف عليها بغية تقديم أوفى صورة للموضوع المطروق عبر استعراض أكبر قدر ممكن من المعلومات. فعبر التداعي والاستطراد كان يداخل بين مواضيع متعددة الأمر الذي يتيح له تعديد زوايا رصد مختلف جوانب حياة المجتمع السوسي في مراحل تاريخه. فالتاريخ اذن لدى محمد المختار يقترن بالشمول بسائر أبعاده.

لما كان المقصود هو التاريخ الشامل ؛ فإن النقص الذي يسم به ما كتب عن تاريخ المغرب لا يقتصر على تلك المؤلفات التي عنيت بتراجم العلماء كما يفهم من بعض اشاراته، وانما يمتد ليشمل سائر الاجناس التي كانت تستقطب اهتمام المولعين بالتأريخ. فما هو اذن مصدر النقص الملحوظ ؟ وكيف يمكنُ تجاوزه ؟

الجواب عن هذين السؤالين يتضمنه مشروع بديل يستهدف كتابة تاريخ المغرب بالكيفية المطلوبة. لقد عرف محمد المختار جوانب هذا المشروع بقوله : «افيمكن أن يتكون التاريخ العام للمغرب تاما غدا اذا لم يقم ابناء اليوم — والعهد لا يزال قريبا ولما تغمرنا أمواج هذه الحضارة الغربية الجارفة، التي تحاول منذ الآن حتى افساد ماضينا بما يكتبه عنا بعض المغرضين من أهلها — بجمع كل ما يمكن جمعه، وتنسيق ما لا يزال مبعثرا بين الآثار ومنتشرا أثناء المسامرات. فإنه لو قام من كل ناحية رجال باحثون ببذل الجهود ؛ لتكونت بما سيهيئونه من التاريخ الخاص لكل ناحية مراجع عظيمة، سيتكيء عليها الذين سيتصدرون للتاريخ العام المستوعب في العلم العربي المغربي غدا بله الحوادث والأطوار المتقلبة. وما هذا الغد ببعيد وتباشير فجره تلوح الآن في الأفق»(4).

ان التأريخ الذي كان محمد المختار يخطط لتحقيقه هو ذلك التأريخ الذي

---

(4) نفس مصدر الاحالة 1 ص. أ — ب.

يستهدف ابراز التاريخ المغربي الشامل لسائر جوانب الحياة على اختلاف العصور. ويبرز من خلال مشروعه، هذا، أن السبيل لتحقيق هذا الواجب الوطني يتمثل في المرور بمرحلتين متكاملتين. تخصص أولاهما لجمع المواد اللازمة لكتابة التاريخ الشامل ؛ شرط أن يكون الاطار الجغرافي للبحث، أثناء هذه المرحلة، محدودا، بحيث لا يتجاوز البحث والتنقيب عن مصادر المعرفة التاريخية حدود الاقليم الواحد. ويراهن على تدارك ما لاحظه من نقص في التاريخ المعروف للمغرب بالكشف عن مصادر مكتوبة وبانتقاء المعلومات المبعثرة والتنسيق بينها استنادا إلى عامل تجانس طبيعتها ووحدة موضوعها دون المفاضلة في ذلك بين المتداول شفويا وبين المثبت كتابة. أما المرحلة الثانية فيرى محمد المختار ضرورة تخصيصها لاستثمار حصيلة سابقتها في اتجاه استشفاف صورة التاريخ المغربي التام. إن التاريخ التام لا سبيل لتحقيقه في غياب تواريخ جهوية تطمح لاستجلاء سائر جوانب تاريخ الحواضر والبوادي المغربية مدعمة بكل ما امكن جمعه من وثائق، على أن تنحصر مهمة الباحث في الجمع فقط إذ «**لاخير في مؤرخ جماع فقط من غير أن يظهر أثر فكره فيما يكتب**»(5). إلا أن هذه التواريخ الجهوية لا تعدو كونها مرحلة انتقالية يخضع تحقيقها كما يخضع تحقيق المرحلة التي تليها لارادة جماعية. فكتابة التاريخ المغربي المطلوب عملية تتجاوز مستوى الفرد الواحد بل قدرة جيل بكامله.

النقص الذي لاحظه محمد المختار في كل ما كتب عن تاريخ المغرب مصدره عدم توفر شرط أو أكثر من الشروط التي حدد بواسطتها التاريخ التام. ومادام تعريف المشروع آنف الذكر لا يتضمن سائر هذه المقاييس، يستحسن تلخيصها فيما يلي :

1 ــ مراعاة الخصوصيات.

2 ــ أن يكون التناول للحياة بالمجتمع شاملا.

3 ــ الاستناد إلى مادة تاريخية متنوعة.

4 ــ التزام الموضوعية.

5 ــ أن يتم التأليف في نطاق مشروع وطني تختلف فيه المساهمات تبعا

---

(5) محمد المختار السوسي ــ المعسول ــ الدار البيضاء : م. النجاح 1960 ص. و.

لاختلاف طبيعة التكوين العلمي.

لكن ذعوة محمد المختار إلى البدء بالتاريخ الجهوي كانت مدعاة لتأويلات أفصح عنها في مقدمة كتابه «سوس العالمة» حيث قال : «قد يخطر في بال بعض الناس القصيرى النظر أن السجلماسي أو الدكالي، مثلا، اذا تصدى كل واحد منهما لمثل هذا البحث في ناحيته أن ذلك من العنصرية الممقوتة التي لا يزال المستعمرون أمس يضربون في كل فرصة على وترها لجعل المغرب اشلاء ممزعة، مع أن هذا العمل ليس من العنصرية في شيء، فهل اذا توفر الطبيب للتخصص في بحث ما حول عضو من أعضاء الذات نلمزه بالعنصرية ازاء الأعضاء الأخرى ؟ [...]، أو هل الذين كتبوا عن فاس ومراكش واسفي وطنجة وتيطاون والعدوتين، وخصصوا كل مدينة على حدة يلمزون بالعنصرية ؟ ان هذا لخطل في الرأي، وخطأ في تقدير الأعمال، وسد الأبواب دون العاملين في ميدان خاص وتثبيط لأعمال المجتهدين.

إن لليوم غدا، وان في الميدان لافراسا مطلقة، وان ابواب العمل مفتوحة على مصاريعها أمام كل من يريد ان يعمل في أي ميدان من الميادين. وقد زالت الاعذار بالاستقلال، وأمكن لكل ذي عزيمة أن يعمل. فهل للكسالى أن ينتفضوا فيدخلوا في غمار العاملين، عوض أن يملأوا الجواء بالنقد الزائف»(6).

لقد تصدى محمد المختار إلى الرد على من رأوا في مشروعه نزعة اقليمية — عرقية، بالاعراب عن مجمل مبادئه التي تعكس فكرا وحدويا. لكن ذلك الرد ليس مقنعا مادام لم يحل على مضمون مؤلفات محمد المختار التي بلورت تلك المبادىء بما فيه الكفاية.

إن الفهم الخاطىء للدوافع الكامنة وراء المشروع المعني، قد يكون مبعثه التركيز على الشطر الأول منه مع اغفال أو تناسي شطره الثاني ؛ وقد يصدر عن مناقشة مشروع محمد المختار بمعزل عن سياقه التاريخي أو من خلال التصريحات التي نثرها في مقدمات مؤلفاته، التي تأخر نشرها إلى عهد الاستقلال، دون القيام برصد مصداقيتها عبر مضمون تلك المؤلفات ذاتها.

لمشروع محمد المختار تاريخ تعود بدايته إلى النصف الأول من هذا القرن(7).

(6) سوس العالمة — ص. ب.

(7) المعسول — ج 1 ص. د.

حيث كثر الاهتمام بكتابة تواريخ محلية. إذ المتمعن في المؤلفات التاريخية التي انجزت في النصف الأول من القرن الجاري سرعان ما يسترعي انتباهه ظاهرة الاهتمام بالتاريخ الجهوي. ويمكن تبين هذا التوجه العام من خلال الامثلة التالية :

ـــ محمد بوجندار ـــ مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح ـــ 1923.

ـــ عبد الرحمان بن زيدان ـــ اتحاف اعلام الناس بمن حل بمكناس ـــ 9129.

ـــ عباس بن ابراهيم ـــ الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام ـــ1936.

ـــ محمد بن سعيد الصديقي ـــ ايقاظ السريرة لتاريخ الصويرة ـــ 1930.

ـــ ابو عبد الله محمد العبدي الكانوني ـــ اسفي وما إليه قديما وحديثا ـــ1943.

ـــ محمد داود ـــ تاريخ تطوان ـــ 1957.

إلا أن التشابه بين هؤلاء من حيث توجههم جميعا إلى كتابة تواريخ محلية لا يعني أن هناك وحدة من الحوافز ووعيا عاما بطبيعة القضايا التي ينبغي التركيز عليها. فالتشابه الذي يكاد يكون تاما، كان قائما بين محمد المختار ومحمد داود الذي رسم مشروعا مطابقا لمشروع محمد المختار عند تصديه لكتابة تاريخ تطوان. ويمكن إدراك وجه التجانس بين تصور كل من محمد المختار ومحمد داود عبر ما التمسه هذا الأخير لكتابه من مسوغات حيث يقول : «أقول هذا وأنا أعلم أن قيام شخص واحد بكتابة تاريخ أمة كاملة في مختلف عصورها ومن جميع نواحيها، إن لم يكن مستحيلا عادة فإنه على الأقل من الصعوبة بمكان، خصوصا إذا كان تاريخ أمة لعبت أيدي الاهمال بالكثير من وثائقها ومستنداتها. فلهذا أرى من الواجب الوطني الآن أن يكتب كل من يستطيع الكتابة عن الناحية التي يعرفها، وفي الموضوع الذي يحسنه، وبالاسلوب الذي يتقنه أو يستحسنه. ومن مختلف تلك الكتابات والأساليب التي قد تجمع بين الغث والسمين، تجتمع المعلومات الكافية لكتابة التاريخ الوطني الجامع للنواحي الحربية والعلمية والأدبية والاقتصادية والاجتماعية»(8).

أكدت هذه المؤلفات، على الرغم مما بينها من تباين، ان التواريخ الجهوية لا وجود

(8) محمد داود ـــ تاريخ تطوان ـــ تطوان : كريماديس م 1 ص 25.

لها إلا في التاريخ العام للمغرب ؛ إذ التعرض لكثير من الجوانب كان متوقفا على التعرض لأحداث همت المغرب ككل. فالقواسم المشتركة بين التواريخ الجهوية المذكورة، كانت تتمثل في الكشف عن مساهمة كل جهة في العلوم المتصلة بفهم العقيدة الاسلامية، بما فيها اللغة العربية وفنون أدبها التي كانت دراستها تمثل سبيل اكتساب ملكة اللغة. كما كانت تتجسد في استعراض هذه التواريخ للأطوار التي تقلب فيها المغاربة خلال تاريخهم الضارب في القدم، مبرزة استمرار وحدتهم رغم ما هددها من مخاطر تارة يكون مصدرها أجنبيا وتارة أخرى يكون نابعا من المجتمع المغربي ذاته(9). فالخصوصيات التي كانت تميز المغرب عامة لم تكن لتلغي القواسم المشتركة التي ظلت توحد بينه وبين كل من العالم العربي والعالم الاسلامي. فما هو السر إذن في شدة الاقبال على استعراض مظاهر وحدة المجتمع المغربي عبر تواريخ محلية ؟

تزامن ظهور هذا الاتجاه في التأريخ مع مرحلة من تاريخ الحركة الوطنية تميزت بالتركيز على النشاط الثقافي، الذي كانت قد تفرغت له بعدة جهات مجموعات من المثقفين ؛ ومن ثم يجوز اعتبار هذا الاتجاه الذي كان مهيمنا في مجال التأريخ مظهرا من مظاهر النشاط الثقافي الذي كان موجها نحو دحض مزاعم الادارة الفرنسية كالقول بوجود خصوصيات تميز المناطق البربرية مثل اللغة والعرق وغلبة العرف على الشرع... تلك الخصوصيات التي حاولت تأكيدها مستندة إلى دراسات مونوغرافية خصصت للتعريف بالبوادي والحواضر المغربية وفقا لخطة محكمة، إلى جانب دراسات أخرى تركيبية اسندت إلى موطدين آخرين لدعائم الوجود الاستعماري أكثر عدة من ضباط الشؤون الأهلية أو المراقبين المدنيين(10). ولما كان تاريخ المغرب قد غدا مجالا لتأويلات مغرضة، كان لزاما على المثقفين الوطنيين التفكير في إعادة كتابة تاريخ المغرب بالشكل الذي تستدعيه الظرفية.

وهكذا وازت المونوغرافيات التي جند لانجازها عناصر تنتمي للجهاز الفرنسي الذي كان متوليا الاشراف على إدارة شؤون المغرب، مونوغرافيات قدمت القضايا،

---

(9) تميز الكانوني بشدة تركيزه على مظاهر استمرار الوحدة دون الوقوف عند فترات الانقطاع المؤقت الذي كان ينجم عن ضعف السلطة المركزية.

(10) راجع بشأن المفاهيم التي روجها هذا الصنف الأخير من الدراسات :

- **LAROUI(A).- L'Histoire du Maghreb : un essai de synthèse.- Paris : MASPERO, 1970.**

التي كانت محور الصراع بين الاقامة العامة والحركة الوطنية، من منظور وطني.

إن مشروع اعادة كتابة تاريخ المغرب يعكس جانبا من مساهمة محمد المختار في الحركة الوطنية، التي تصدت في مرحلة تاريخها لتنفيذ مفاهيم استعمارية وتأجيج روح الوطنية استنادا إلى التاريخ. كما يعكس مدى انفتاح محمد المختار على الفكر الغربي لاستلهام ما يمكن من مواجهة نقط الضعف في المنهج الذي كان متبعا في التأريخ(11). وقد أقر محمد المختار نفسه بما يعزز هذا الاستنتاج حيث قال : «فقد حرصنا أن لا ننكر إلا ما يستحق أن ينكر، وأن نحمد كل ما يمكن أن يحمد، واجتهدنا أن نساير العصر، فلا ننكر أخذ ما لابد من أخذه من أساليب الحضارة ونظمها وعلومها ؛ لان الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها»(12).

لم يقتصر محمد المختار في مؤلفاته التي تعكس خصائص المرحلة الأولى من مشروعه، على جمع وتقديم المادة التاريخية المتعلقة بسوس، وانما مزج بين مختلف عناصرها وفقا لنسق يبرز التميز في اطار الوحدة — بخلاف الاتجاه الاستعماري الذي كان يهدف إلى تأكيد وجود وحدة في نطاق التميز — التي تتعدى دائرتها في مؤلفاته المغرب والعالم العربي لتشمل العالم الاسلامي. ومن ثم فجوانب مشروع محمد المختار تفصح عن مدى استيعابه للتيارات الفكرية والسياسية التي كانت سائدة في عصره.

---

(11) يتبين ذلك من خلال عقد مقارنة بين خصائص المرحلة الأولى من مشروعه، وخصائص المونوغرافيات التي أنجزت تحت اشراف مؤسسات كانت تابعة للاقامة العامة مثل «لجنة الدراسات البربرية»، تلك المونوغرافيات التي اهتمت خاصة بالوصف وبانتقاء مادة متنوعة لنشرها مترجمة ومذيلة بشروح وتعليقات.

(12) المعسول — ج 1 ص. ج.

جانب من حياة الرائد محمد المختار السوسي

للأستاذ أبي بكر القادري

في 29 جمادى الثانية 1383 الموافق 17 نونبر 1963 فقد المغرب علما من أعلامه، ورائدا كبيرا من رواد نهضته، وعالما فذا من علمائه، ومؤرخا ثبتا من مؤرخيه، وباحثا منقبا من أوسع الباحثين المعاصرين دراية بالتاريخ المغربي. ذلكم هو أخونا المرحوم السيد محمد المختار السوسي.

واذا كانت ثماني عشرة سنة مضت على وفاة هذا الرجل الفذ فمن حقه علينا أن لا ننساه، وأن نعرف بشخصيته الأجيال الجديدة التي لا تعرف عن روادها الأولين إلا النزر اليسير.

لقد نشأ المختار السوسي في «إلغ» وهي قرية من قرى سوس تقع في ناحية «تازرولت» في الجنوب المغربي، وفي هذه القرية القاحلة القفراء البعيدة عن العمران، الجافة الطبيعة تلقى دروسه الأولى عن والدته أولا وعن معلمي القرية الذين كانوا يلتفون حول والده باعتباره شيخا مربيا من أكابر الشيوخ المربين في سوس.

ولما اشتد عوده، وتخطى العقد الأول من عمره، انكب على دراسة العلوم العربية التي كان لها شأن وأي شأن في الأراضي السوسية، وهكذا أخذ عن جلة علمائها الأعلام، أمثال شيخه الطاهر الافراني الذي كان يعتبر شيخ الأدب العربي والاستاذ السيد عبد الرحمان البوزاكاري المستشهد بالرباط وغيرهما من الشيوخ والاساتذة الكبار.

وكان ينمي معلوماته بكثرة مطالعاته الأدبية والتاريخية على اختلافها، فكان كما

قال عن نفسه، لا يختم كتابا إلا ويشرع في آخر، فمن ألف ليلة وليلة التي طالعها وهو ابن عشر سنين إلى المستطرف وحياة الحيوان وابن خلكان ومروج الذهب، ونفح الطيب إلى قلائد العقيان والاستقصا ونزهة الحادي إلى كل الكتب التي تتصل بالأدب والتاريخ والتي تصل إليها يده، وكان لسان حاله — كما قال — ينشد قول ابن المعتز :

قلبي وثاب إلى ذا وذا   ليس يرى شيئا فيأباه
يهيم بالحسن كما ينبغي   ويرحم القبح فيهواه

لقد كان طموحه أن يصبح عالما مشاركا مثل أساتذته الذين أخذ عنهم، وزاد هذا الطموح بمطالعاته التاريخية التي استطاع من خلالها أن يتعرف على كثير من الجهابذة الأعلام، سواء منهم السوسيون أو غير السوسيين، وان اعجابه الشديد ببعض العلماء والمصلحين أمثال عبد الله بن ياسين والامام ابن حزم والجاحظ ينم على أن الرجل وهو في ميعة الشباب كان يتطلع إلى أعلى المقامات في العلم والاصلاح، كما كان ينظر إلى آفاق متعددة وتخصصات متنوعة، ودور في التاريخ يؤديه.

وشاءت الأقادر أن يذهب إلى «مراكش» وهو في سن العشرين ليوسع من ثقافته ومعلوماته وليستمع إلى أساتذة آخرين، كان في طليعتهم المحدث الأشهر الشيخ أبو شعيب الدكالي رحمه الله فكانت دروس هذا الشيخ بالنسبة له ولغيره «اجافة لباب، وفتحا لباب آخر» وهكذا رأى في دروس أستاذه الجديد، ما خلب لبه، وأطار صوابه، فصمم على أن يرتوي من معينه، ويحتذى حذوه في املاء الحديث الشريف، والغوص على أسرار التشريع، والتمسك بهدى القرآن والسنة، ورمي الأفكار الجامدة التي ما أنزل الله بها من سلطان، ومقاومة الخرافات والأوهام التي كانت عالقة بكثير من الأذهان.

ولما قدر له أن يزور «فاس» ويستقر فيها، انقلبت أفكاره ظهرا على عقب، وتطورت شخصيته تطورا ظاهرا فصار كما قال عن نفسه : «فبدلت أخلاقا غير التي عهدت من قبل، وأنا في مراكش وأحواز مراكش. فقد تلقحت في جو فاس بما لو لم أتلقح به، لما كانت لي فكرة، ولا تحركت بي همة، ولا نزعت بي نفس عزوف تقول بملء فيها :

لي همة عاليـــة فـــذة طموحها ليس لـه منتهى
لو ملكت كل الثرى لا عتلت إلى امتـــلاك سدرة المنتهى

لقد أثرت عليه «فاس» بجوها ودروسها وشيوخها وصداقاتها، فوجد فيها ما كان يفتقده، وجد فيها العلماء الأعلام، والطلبة المجدين المتفتحين، والأفكار السلفية الصافية، والروح الوطنية المتأججة، وكل ذلك كان يتطلع إليه، فإذا ما كان ارتوى من معين أساتذة متبحرين في الأدب القديم، وإذا ما كان هام بالجاحظ وابن عبد ربه، والمقرى وأضرابه، فإنه الآن أمام سيل من علماء وأدباء من صنف جديد، انه أمام محمد عبده ومحمد فريد وجدي وشوقي وحافظ ابراهيم والمنفلوطي وخليل مطران ومن في طبقتهم، يتغنى بأشعار الشعراء منهم، ويتأثر بأفكار المصلحين المجددين فيهم. انه أمام ثورة فكرية عارمة، استجابت لها نفسه الطموح إلى الكمال، انه أمام تجديد فى فهمه للثقافة وللأدب وحتى للدين، فليس الدين مجرد عبادات، وأداء مناسك، ومجاهدة للنفس، ولكنه بالاضافة إلى ذلك عمل متواصل لصالح الوطن، ودفاع مستميت عن العقيدة السمحة، وتخطيط سليم للحفاظ على لغة القرآن، واعتزاز كبير بحضارة البلاد وقيمها وماضيها المجيد، ومقاومة قوية للوجود الاستعماري بكل الطرق الممكنة.

لقد تغيرت مفاهيمه عن الحياة في فاس، فأصبح يفكر التفكير العملي، ويومن بضرورة العمل لصالح بلاده، سواء في الناحية العلمية التي لا تخفى ضرورتها في بناء الأوطان، أو في الناحية السياسية التي لا بد من خوض معمعتها لتطهير البلاد من الاستعمار.

وهكذا نراه مع جماعة من اخوانه في فاس، ينظم جماعة ثقافية يترأسها وتسمى «بالحماسة» ويشارك في تأسيس جماعة سياسية يترأسها الزعيم المرحوم علال الفاسي رغم أنه كان أصغر الجماعة سنا.

وصارت الجماعتان تقومان بواجبهما، وتؤديان رسالتهما، فمن القاء دروس في المدرسة الناصرية وغيرها إلى بث الافكار الاصلاحية، ونشر الوعي بين جماهير الطلاب، ومن مطالبة بإصلاح المنهج الدراسي فى القرويين، إلى مقاومة الأفكار الخرافية والشعوذة التي كان يتزعمها بعض الخرافيين. وكان «مختارنا» يقوم بواجبه مع اخوانه العاملين، يعطي الدروس، ويستحث الهمم، وينظم القصائد، ويكثر

من الاتصالات، ويشجع كل وسائل النهوض، وكان من مشاغله الأساسية منذ مطلع عمره، إلى أن أدركته الوفاة، الدفاع عن لغته العربية، ومكافحة كل أنواع الاستعجام، واستنهاض الهمم لنشر العلم والمعرفة، وتأسيس المدارس وتشييدها.

لقد ألقى وهو بفاس اذ ذلك قصيدة جاء فيها :

بأي خطاب أم بأي عظات ... أوجه وجه الشعب شطر لغاتي
بأي فعال أم بأية حكمة ... أنشرها من أعظم نخرات
وكيف وأني يا إلاهي وانني ... عييت وعييت حيلتي وأداتي
فأي لسان أرتضيه لنشرها ... وألسننا صيغت من العجمات
تركنا بها كنزا نفيسا فأقبلت ... على غيره الأفكار مبتدرات
نمد أكفا ــ قطع الله راحها ... إلى غيرها من اللغى السمجات
ونترك منها روضة تخلب النهى ... بطلعتها المخضلة الزهرات
فلو أننا نلنا من العقل ذرة ... ونالت طوايانا أقل حياة
وأمعن كل طرفه في أصوله ... وأنعم في أحواله النظرات
رأينا جميع العز تحت حياتها ... بها يترقى الشعب في الدرجات
ففي غيرنا لو كان فينا مفكر ... عظات ولكن أين العظات
سأستعجم الأعواد في كل مجمع ... وأستطلع الأفكار في الخلوات
وأسبر أغوار الرجال وأفتلي ... عقول جميع الناس في الجلسات
وأعرض في كل الذين أراهم ... خطابي وأبدي بينهم حسراتي
وأدعو إلى رأي وأعلن أنه ... نجاة لما يبغي طريق نجاة
إلى أن يواتيني الزمان فألتقي ... بمنشودتي رغما عن العقبات

ويقول في قصيدة جعل عنوانها : الهلاك ولا الجهل.

حتى متى شعبي يعبده الجهل ... كأن لم يكن قطب السيادة من قبل
كأن لم يكن يوما مديرا لتلكم ... مماليك يحمي ما يشاء ويحتل
كأن لم يكن بين الشعوب محكما ... اذا قال يحنى الرأس من رأسه يعلو

إلى أن يقول :

أجل ! اننا كنا وكنا وهكذا ... يقول لسان العلم من قوله القول
ولكن اذا ألقيت يومك نظرة ... فكم لوعة تذكو وكم زفرة تعلو

تشاهد مايرفض قلبك حسرة عليه ويستدري الدموع فتنهل
لتسقط على الأرض السماوات ولتقم قيامة شعبي فالهلاك ولا الجهل

انها فترة حاسمة في تاريخ استاذنا المختار، وجهت حياته وأعماله كلها في المستقبل، وجعلته يشعر بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه، سواء وهو بفاس أو بعد انتقاله إلى الرباط أو بعد استقراره الثاني بمراكش.

لقد كتب عن هذه الفترة من حياته يقول : «ثم لما أبت من فاس، وقد ألممت بالرباط حيث احتفظت أيضا علوما وفهوما وانظارا وبحوثا، لم أقع عليها إلا في الرباط، وفي مشايخ الرباط، حللت بالحمراء وقد ألقيت فيها مرساتي، وأنوي أن أقضي الواجب علي لديني ولوطني ولشعبي، ما بين تلميذ يهذب، وبين درس ارشاد يلقى، وأنا في جانب ذلك أناغى اليراع، فيما عسى أن يرجع من شأن هذه الأمة، من أحياء ما اندثر من آثار ماضيها، ومن المحافظة على العربية الفصحى التي أراها اذ ذلك في انهيار، ففي هذه الميادين الثلاثة قضيت أزمانا تكشفت عن أعمال كان فضل الله علي فيها عظيما».

لقد تغيرت اتجاهاته في فاس تغيرا ملموسا، عبر عنه في شعره وكتابته، وأكده فيما كتبه من مذكرات.

ولقد كانت مرافقته للجماعة الوطنية الأولى ذات تأثير عليه، وكان حضوره في الدروس التي كان يلقيها العلامة المصلح الكبير والداعية السلفي الشهير الفقيه سيدي محمد بن العربي العلوي الذي كان يقول عنه انه «موقظ الهمم» كان حضوره في دروس ابن العربي مدعاة لمراجعة تفكيره فيما نشأ وتربى عليه من أفكار ومعتقدات صوفية محضة، فأصبح فكره الصوفي سلفيا، وأصبح اتجاهه في الحياة وطنيا، والوطنية في نظر مترجمنا المختار وفي نظر الرعيل الوطني الأول، ليست كما يتصورها بعض المحدثين المقلدين لكل ما أتى من الغرب مطلق تعلق بالوطن ودفاع عنه، ولكنها مع ذلك مرتكزة على دعامتين أساسيتين : الدين والأخلاق، هاتان الدعامتان كانتا تتجليان في الجماعة الوطنية الأولى التي كان أفرادها كما يصفهم في كتابه : «الالغيات» «نخبة في العفة والدين».

وهكذا نلاحظ أنه استجمع الشروط التي تؤهله لأداء رسالته في الحياة، وصار يفكر عمليا في أداء هذه الرسالة، لقد حصل على ثقافة واسعة في مختلف العلوم

التي كانت تدرس، سواء بسوس أو مراكش أو فاس أو الرباط، ولقد احتك بالعلماء والمصلحين والشباب الطموح إلى المجد والرقي، ولقد اعتمد على نفسه ومطالعاته في ادراك ما كان يفتقده في المناهج الدراسية، فلم يبق أمامه إلا أن يتكل على ربه ليؤدي واجبه نحو دينه ووطنه وشعبه كما التزم بذلك في قرارة نفسه.

ولقد كان يقول وهو يحدث إلى اخوانه ورفاقه : انه خلق للعلم، ولم يخلق لغير العلم، وهل دينه يطلب منه أن يكون أكثر من معلم، ألم يقل الرسول الأمين الذي يعتبر الاسوة الصالحة له ولغيره من المصلحين الصادقين : إنما بعثت معلما فليتكل على الله وليذهب إلى مراكش ليؤسس مدرسة تصنع الرجال، وتربي المناضلين وتكون المنافحين عن لغة الضاد.

لقد قصد الزاوية التي أسسها والده المرحوم بباب دكالة وجعل منها نواته الأولى لتعليم الأطفال والشبان وتربيتهم وتكوينهم على أساس من التعلق بالمبادىء الاسلامية المثلى، واذا ما قلت أنه كان يربيهم التربية المثلى، فإني أعني ما أقول، انه لم يأسس مدرسة مثل بقية المدارس، ولكن مدرسته كانت فريدة في بابها، فكان الذين يقصدونها من المراكشيين وغير المراكشيين يأخذون زيادة على الدروس العلمية المعهودة، دروسا أخرى في الصبر على شظف العيش وتحمل المتاعب وأداء الواجبات الدينية في أوقاتها، وتمضية أغلب الأوقات في المطالعة والمراجعة. لقد كان نظامها يشبه النظام العسكري، فالانتباه من النوم يكون قبل الفجر باستمرار، والنوم بعد صلاة العشاء بقليل، واليوم كله درس ومراجعة ومذاكرة، والمختار مع تلاميذته في كل الأوقات يعطي الدروس العلمية، ويعطي الدروس بالمثال والاسوة الصالحة لا يتميز عنهم في شيء، لا في مأكله ولا في مشربه، ولا في أي شأن من شؤونه.

ويتراءى لي أن نشوءه في وسط طرقي، باعتبار أن والده كان شيخا مربيا، أثر عليه كثيرا في مختلف أطوار حياته سواء في هذه المرحلة التي نتحدث عنها أو فيما سيأتي من مراحل، وهكذا أراد أن يجعل من مدرسته زاوية يربي فيها المريدين من تلاميذته مثل ما كان يفعل والده المرحوم. كما يتراءى لي أن اعتزازه العظيم بأحد العظماء الذين أنبتتهم «جزولة» وهي المنطقة التي كتب عنها وتحدث كثيرا، وأعني به مؤسس الدولة المرابطية وزعيمها الأول عبد الله بن ياسين الذي

كان يلقبه بصقر «سوس» تشبيها بعبد الرحمان الداخل الذي كان يلقب بصقر قريش، ان اعتزازه بعبد الله بن ياسين واعجابه بالأعمال التي قام بها، والطريقة التي سلكها في المراحل الأولى قبل تأسيس دولة المرابطين، جعلته يقلده في طريقة التكوين والحرص على التربية حتى يستطيع أن يكون جماعات يخوض بها معركته ضد الجهل والانحراف ونشر المبادىء الاسلامية وصيانة اللغة العربية من كل دخيل، واحلالها المقام اللائق بها في ربوع هذه البلاد.

ومن جهة أخرى نلاحظ أنه كان معجبا كل الاعجاب بالاستاذ الامام الشيخ محمد عبده. ومن المعروف عن هذا الامام أنه كان يومن بأن المرحلة الأولى في الاصلاح، ومقاومة المستعمرين، تكون عن طريق تكوين الفئات من الشباب التكوين الصحيح، واعدادهم الاعداد السليم، ليقوموا بواجبهم في تغيير الأوضاع، واصلاح الأحوال.

لقد أصبحت مدرسته أو زاويته مقصد الكثيرين من الشبان الذين يتواردون عليها، حتى أخافت الاستعماريين وأذنابهم، فصاروا يدبرون له ولها المكايد، وصاروا يفكرون في اغلاقها بكيفية أو أخرى، لقد عرضوا عليه الوظيف ليترك مدرسته فأجابهم قائلا : «انما أنا رجل دين وارشاد عام كما كان والدي ولا غرض لي فيما يحولني عن ذلك» فلما ادركوا أنه ليس من أولئك الذين يجرون وراء المناصب، أو يؤثر فيهم الاغراء بالوظيف، كشفوا عن حقيقة ما كانوا يرمون إليه، فقرروا نفيه وابعاده عن مراكش إلى قريته التي ولد فيها «الغ» فكان هذا نفيه الأول، والامتحان الذي لابد منه لمن يريد أن يؤدي أية رسالة سامية في الحياة.

كان نفيه أواخر سنة 1355 (1936) بداية مرحلة جديدة في حياته، فبعد غياب عشرين سنة قضاها في تنمية ثقافته وتنويعها واكتشافه آفاقا علمية جديدة في مراكش وفاس والرباط، وربطه اتصالات محكمة مع رفاق صادقين، واخوة مكافحين، ها هو ذا يعود إلى مسقط رأسه «إلغ» الموطن الذي قضى فيه زهرة طفولته وبداية شبابه فيتذكر حياته الأولى وينطلق لسانه قائلا :

إليكم بني أمي أئيب ركائبي فياليت شعري هل أنا غير آئب
فقد غبت أحقابا طوالا وذا أنا أعود كأن لم أغد قط بغائب
صدفت إلى من كان ميلي إليكم ورجعاي هذا اليوم احدى العجائب

كأن لم يكن «إلغ» بلادي التي بها   سموت به فوق الذرى والمناكب

إلى أن يقول في قصيدته الطويلة :

رأينا المعالي كلها في مرادها   فطرنا إليها بالنفوس الرواغب
فغادرت «إلغا» والشبيبة غضة   ووجهي وغصني مثل أبيض قاضب
أريغ العلا بالنص في كل فد جد   تضل به الخريت شتى المشاعب
أعرض حر الوجه نحو سمومه   فيكسوه من أثواب سود غرايب
فجبت الجبال الشامخات وخضخضت   سراب البطاح الفيح هوج ركائبي
فخيمت بالحمراء حينا وسابقت   من أبناء فاس آونات سلاهبي
وطورا أراني في الرباط وقد طمت   على غيوث الهامعات السواكب
فأفرغت في هاتي وتلك وتلكم   جهود مجد في التفوق راغب

لقد أراد بهذه القصيدة الشعرية أن يخاطب «الالغيين» بلغتهم العربية القحة التي كانوا متمكنين منها حق التمكن، وقصده كما عبر عن ذلك بنفسه أن يفتح الباب بينه وبين أدبائهم وعلمائهم ومثقفيهم و«إلغ» اذ ذلك مثل بقية بلاد جزولة، منبت فحول الشعراء، وموطن العلماء المحققين، وهكذا انثالوا عليه بقصائدهم وأشعارهم ومساجلاتهم فاندفع يجيب كل واحد منهم بقصيدة من نفس الوزن والقافية التي ترد عليه بها القصيدة، وهكذا كيف حياته الجديدة بالمنفى تكييفا جعل منفاه نعمة على «سوس» بل على تاريخ المغرب كله. فسبب هذا المنفى وبسبب بعده عن زخارف ومغريات الحياة الحضارية في المدن، استطاع أن يؤلف ما يناهز خمسين جزءا عن علماء سوس وأدبائها وأخبارها ونوادرها وعن حياتها الاجتماعية وحرفها واعيادها وأمثالها.

وكتابة المختار السوسي عن «سوس» لا يمكن أن تجعله في صفوف أولئك الاقليميين العنصريين الذين لا ينظرون إلا إلى مواقع أقدامهم، والذين يخدمون ــ شعروا أم لم يشعروا ــ أهدافا استعمارية بغيضة ترمي إلى تجزئة الشعب المغربي وتمزيقه طرائق قددا.

إن كتابة المختار السوسي عن سوس، كتابة رجل وطني مسلم عربي مغربي وحدوي، يقصد التعريف بجزء من موطنه أتاحت له الأقدار أن يكتب عنه مالم يستطع غيره أن يفعله ولو قدر له أن يعيش في جزء آخر من المغرب لكتب مثل

ما كتب عن سوس، فهو لا يفرق بين سوس وبين تافيلالت، ولا بين جبال الأطلس وسهول دكالة والشاوية انه كما يقول : «من الذين يرون المغرب جزءا لا يتجزء، بل يرى العالم العربي كله، من ضفاف الأطلس إلى ضفاف الرافدين وطنا واحدا، بل يرى جميع بلاد الاسلام كتلة متراصة من غرب شمال إفريقيا إلى اندونيسية، لا يدين بدين الاسلام الحق من يراها بعين الوطنية الضيقة التي هي من بقايا الاستعمار الغربي في الشرق وكدليل عملي على تجرده من الفكر العنصري البغيض كان يجمع مواد لكتاب عن مراكش في عصرها الذهبي، يسجل فيه الدور الذي قامت به هذه المدينة الأصيلة في مجال السياسة والعلم والأدب والاجتماع، ولكن ظروف نفيه حالت بينه وبين تحقيق ما كان يطمح إليه، انه ينادي مطالبا الكتاب والمؤرخين أن يكتبوا كل واحد عن الناحية التي يوجد فيها، فيعرفون برجالاتها وأحداثها وعوائدها فهو يقول: «فليسمع صوت هذا السوسي كل جوانب المغرب من أعظم حاضرة إلى أصغر بادية فلعل من يصيحون يندفعون إلى الميدان، فنرى لكل ناحية سجلا يضبط حوادثها، ويعرف برجالاتها ويستقصي عاداتها، فيكون ذلك ادعى إلى وضع الأسس العامة أمام من سيبحثون في المغرب العام على منضدة التاريخ المغربي العام».

إنه يعتبر الوطنية الضيقة خيانة للفكر الاسلامي والعقيدة الاسلامية، فالإسلام أذاب كل الأفكار العنصرية الخبيثة وقضى عليها. واعتبر المسلمين أينما كانوا وحيثما حلوا أمة واحدة متلاحمة لا فرق بين أبيضها وأسودها، ولا بين عربها وبربرها إلا بالتقوى والعمل الصالح. فليفهم هذا دعاة العنصرية الضيقة الذين يتأثرون لدعايات الاستعماريين والصليبيين والذين يريدون أن يثيروا داخل بلادهم قلاقل مفجعة، وأحقادا دفينة، وتطاحنات لا مصلحة فيها إلا للمتربصين للمغرب، العاملين على القضاء عليه، مستعينين ببعض الأجانب من الصليبيين الذين يبذرون بذور الفتنة والتفرقة ويشجعون الأفكار العنصرية المقيتة، حقدا على الجماعات الاسلامية المتماسكة، وتقوية لخطتهم الصليبية الجهنمية.

لقد أعطى أستاذنا المختار المثال الكامل على أن انتماءه لسوس الحبيبة إلى قلبه وقلوب كل إخوانه في المغرب، لا يمكن مطلقا أن ينسيه انتماءه لوطنه وعروبته واسلامه، وبذلك سد الطريق أمام المتلاعبين بالأفكار، الداعين إلى الفرقة، العاملين للتشتيت.

تسع سنوات قضاها في المنفى، كان فيها مثال الرجل الواعي بمسؤولياته، المنكب على الدراسة والتأليف، المتتبع ولو من بعيد للأحداث التي تقع في بلاده والتي أصبحت تتوالى بعد منفاه فمن مطالبة بالحريات العامة وتحقيق المطالب إلى الاحتجاج ضد مشاركة الاستعماريين في تقرير مصير البلاد، ومن المظاهرات الصاخبة في الشوارع إلى محاكمة الوطنيين وملء السجون بالمعتقلين والمنفيين ومن اعلان الحرب العامة الثانية، إلى الهزيمة الشنعاء التي عانت منها فرنسا بالذات.

لقد كان يتابع كل ذلك عن كثب وان لم يشارك فيه بالفعل لان النفي حال بينه وبين ذلك من جهة، ولأنه اختار أن يواجه الاستعمار عن طريق نشر العلم والتربية من جهة أخرى.

لقد استأذن الحاكم الفرنسي ذات مرة أن يزور بعض مريدى والده بتادلة، فأذن له بذلك، ولكنه اغتنمها فرصة فقصد الدار البيضاء، متنكرا، وصادف الحال ان كان الظرف ظرف المطالبة بالاستقلال، والتطورات التي حدثت بعد تقديم وثيقة الاستقلال إلى جلالة الملك المرحوم محمد الخامس فصار يتتبع الأحداث عن كثب ويستجمع المعلومات، سواء بواسطة الجرائد القليلة التي كانت تصدر أو بواسطة بعض تلاميذته الذين كانوا يأتونه بالأخبار، ولما علم أن فرنسا ركبت رأسها واختارت طريق العنف والسجن والنفي والقتل فألقت القبض على أحرار الوطنيين ونفت الأمين العام لحزب الاستقلال إذ ذلك الأستاذ المجاهد الحاج أحمد بلا فريج قال كلمة عظيمة حدثنا عنها أحد تلاميذته البارين هو الأستاذ محمد الروداني في المقدمة التي وضعها «لايليغ قديما وحديثا» قال المختار : قد قضى الأمر، وتفرقعت القنبلة، فقد كانت فرنسة تحاول أن تخلق بين المغاربة من يقبل أن يفاوضها على شيء ما دون الاستقلال، كبعض الاصلاحات الداخلية، اما الآن وقد قيلت كلمة الاستقلال، فكل من قبل ان يتفاوض على ما دونها، سيراه الشعب المغربي خائنا، استعماريا، لكن اذا قتل الفرنسيون الحاج أحمد، فسيتأخر استقلالنا كثيرا، أما اذا أعماهم الله عنه، فتركوه حيا، فإن الاستقلال لن يتأخر أكثر من عشرين سنة.

وشاء الله أن يعمى الفرنسيين، واستجاب سبحانه لدعوات المومنين، وتضحيات المجاهدين الصادقين، فتحقق الاستقلال بعد احدى عشرة سنة من

تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال، وحقق الله وعده، ونصر عباده، وهزم الاستعماريين واذنابهم وحده.

ورجع الحاج أحمد واخوانه من منفاهم وسجونهم ليواصلوا المعركة، ويدافعوا عن وحدة البلاد وثقافتها ولغتها وحضارتها وقيمتها. وكان مترجمنا من جملة الذين افرج عنهم ليواصل معركته في نشر الثقافة والعلم وتكوين الأجيال، وتوطدت العلاقة بينه وبين محمد الخامس نور الله ضريحه فعينه في وفد الحج الذي قصد الديار المقدسة سنة 1365، كما عينه في عضوية وفد أحباس الحرمين الذي قصد تونس سنة 1367.

وبمناسبة ذهابه في وفد الحج أذكر أنني تلاقيت معه قبل سفره، فحملته رسالة خطية طلبت منه رحمه الله أن لا يفتحها إلا ساعة مواجهته للحضرة النبوية الشريفة والسلام على الرسول الأمين عليه السلام. وكانت الرسالة خطابا روحيا وتحية حارة وتعبيرا صادقا عن تعلقي المتين بالجناب النبوي الشريف عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

بعد رجوعه من منفاه في «الغ» استقر بمراكش للمرة الثانية يؤدي رسالته العلمية، سواء عن طريق مدرسته أو عن طريق الدروس التي كان يلقيها بالمساجد، وفي تلك الأثناء قامت بالمغرب بتأيد من جلالة محمد الخامس نهضة علمية تجلت في الاقبال على تأسيس المدارس العربية الحرة في مختلف أنحاء البلاد، وهكذا تأسست لجنة بمراكش ترأسها مترجمنا فعملت على بناء مدارس محمد الخامس «ببني دغوغ» ثم ترأس مكتب الجمعية الخيرية الاسلامية بنفس المدينة وهكذا اقبل يهتم كما هو شأنه دائما بالناحية العلمية والثقافية والخيرية معتقدا أن تكوين الأجيال وتثقيفها أساس بناء كل نهضة، ومؤكدا أنه رجل علم لا رجل سياسة ولكن انكبابه على نشر المعرفة، وتثقيف الأذهان، لم يرض رجال الاستعمار، فما أن اشتدت الأزمة بين رجال الحركة الوطنية الممثلين في حزب الاستقلال وجلالة الملك المرحوم محمد الخامس من جهة وبين الادارة الاستعمارية من جهة أخرى، والتي نتج عنها القاء القبض على قادة الحزب ونفي جلالة الملك وأسرته الكريمة إلى جزيرة «مدغسكر» حتى كان من جملة الذين امتدت إليهم أيدي الاستعمار فنفي إلى «اغبالو نكردوس» مع جمهور غفير من اخوانه في المبدأ والعقيدة، ولم

يطلق سراحه إلا بعد أن بدت طلائع الانفراج، المنبئة بتحرير البلاد واسترجاع الاستقلال،ورجوع جلالة الملك إلى عرشه، حاملا الاستقلال في يد، والديموقراطية في اليد الأخرى، ومرددا قول الباري تعالت قدرته :« الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور».

وانغمَر الاستاذ المختار فيما انغمر فيه اخوانه في العمل لبناء الاستقلال وتشييد الدولة المغربية المستقلة الحرة والموحدة، ورغما من أنه كان يكره الوظيف، ويعتبره عبودية فقد ابت عليه وطنيته الصادقة إلا أن يقبل تعيينه وزيرا للاوقاف ثم وزيرًا للتاج.

والمختار السوسي في وظيفته كوزير لايختلف مطلقا عن وظيفته كمعلم، فحياته هي حياته وأخلاقه هي اخلاقه وتواضعه هو تواضعه لم يغره الوظيف و لم يستكن للرفاهية التي طالما كانت سببا في انتكاس رجال على أعقابهم، بل بقي صامدا في أخلاقه، ثابتا في عقيدته، مكافحا عن مبادئه، مقبلا على كتاباته وتآليفه، زائرا لأصحابه وخلانه مذاكرا لهم في كل ما من شأنه أن ينهض بهذه الأمة، ويرفع من مكانتها، ويقيها من العثرات، وان أنس فلا أنسى أياما أكون جالسا بمكتبي فيرن جرس الهاتف لاستمع فيه إلى صوت أستاذنا المختار بنبرته السوسية الخاصة التي يمد فيها على الواو من «أبو بكر» مدا زائدا ليخبرني بأنه سيزورني بالمدرسة أو بالبيت، فلا تمضي إلا بضع دقائق حتى يكون عندي ليعلق معي على أحداث، أو ليستفسر عن وقائع أو يلاحظ على قرارات، وفي هذا المجال لا بد أن أثبت هنا أنه يرحمه الله زارني ذات يوم بالمدرسة ورجا مني أن أذهب وإياه إلى ساحتها، وكان من عادته أن يتحدث إلى اخوانه وهو يسير واياهم ذهابا وجيئة، قابضا على أيديهم يفركها فركا ــ لقد كان حديثه في هذه المرة حول التعليم وتأسيس المدارس بناحية سوس متسائلا ومتألما في الوقت نفسه لماذا نعمل في عهد الاستقلال ما لم تستطع فرنسا أن تقوم به في عهد الاستعمار ؟ لماذا نقوم بنشر اللغة الأجنبية (الفرنسية) لابنائنا في سوس بعد أن كانت هذه اللغة متقلصة في عهد الاستعمار ؟ أليس نشرها في تلك الاصقاع سيكون على حساب اللغة العربية التي كان لها شأن وأي شأن في مدننا وقرانا السوسية، فنبدلها الآن باللغة الاعجمية ؟ ما هي مصلحة أبنائنا الصغار في هذه الازدواجية التي ستضيع عليهم

معرفة لغتهم، وتقلل من اهتمامهم بدراسة دينهم وقرآنهم ؟. لقد كان متألما حقا من هذا الحماس الذي أعطاه عهد الاستقلال للغة المستعمر.

وكان يرى أن «سوس» يجب أن تبقى حصنا حصينا للغة العربية والعلوم الاسلامية تدرس فيه جميع الفنون المتعلقة بها، سواء منها العلوم الأدبية على اختلافها وتنوعها أو العلوم الشرعية على تعدد مناحيها الفقهية والحديثية والتفسيرية.

لقد كان يريد أن تتمتع «سوس» بمدارس مثل المدارس التي كانت في عهدها السابق فيتخرج منها أمثال الشخصيات التي ترجم لها في كتابه الضخم «المعسول» و«سوس العالمة» وغيرهما وكان يريد أن يبقى السوسيون معتنين بالعلوم التي كانت تدرس عندهم والتي عددها في كتابه «سوس العالمة» فبلغت واحدا وعشرين علما بما فيها علوم المنطق والهيأة والفرائض والحساب والطب. زيادة على علوم الآلة والتفسير والفقه والحديث.

وكان يرى أن اختصار البرامج تغييرها سيضعف ويقلل من نشر هذه العلوم بدل أن يقويها، وهكذا تتضاءل خاصية «سوس» العلمية والدينية.

ولكي نتبين ما كان يشير إليه، نرجع إلى كتابه «سوس العالمة» الذي يتحدث فيه عن النهضة العلمية في سوس خصوصا ابتداء من القرن التاسع الهجري حيث يقول : «جاء القرن التاسع بفاتحة خير، وطلع بفجر منير، وسفر عن وجه يقطر بشاشة وبشرا حقا كان القرن التاسع قرنا مجيدا في سوس، ففيه ابتدأت النهضة العلمية العجيبة التي رأينا آثارها في التدريس والتآليف وكثرة تداول الفنون، وقد تشاركت «سملالة» و«بعقيلة» و«رسموكة» و«آيت حامد وأقا» و«الجرسفيون» و«الراسلواديون» وغيرهم فيها، ثم جاء القرن العاشر فطلع بحركة علمية أدبية أوسع مما قبلها، تشده كل مطلع، فقد خرج العلماء إلى الميدان الحيوي والمعترك السياسي، فشاركوا في الأمور العامة، واستحوذوا على قيادة الشعب، فكانوا سبب توطد الدولة السعدية، ثم جازتهم هي أيضا بدورها، فكان منهم أفراد بين الكتاب والشعراء الملازمين للعرش، والسفراء ورؤساء الشرطة وقواد الجند والحرس الملكي الخاص، فزخرت سوس علما بالدراسة والتآليف والبعثات تتوالى إلى فاس ومراكش وإلى الأزهر، فكانت تؤوب في ذلك العهد بتحقيقات اليسيتنى والونشريشى وابن غازى ونظرائهم، حتى كان كل ما يدرس في القرويين يكاد

يدرس في سوس. قولة لا تنفج فيها، وانها لحقيقة ناصعة، يقر بها كل مطلع (وما يوم حليمة بسر).

وبعد أن يتحدث عن التطورات العلمية في عهد الملوك العلويين ابتداء من المولى اسماعيل إلى الحسن الأول، واعتناء هؤلاء الملوك بعلماء سوس، واكتظاظ المدارس بالطلبة في جزولة بالأخص يقول : «ولكن نشاط العالم الجزولي لم ينطو، ولم يذهب عصره، فالمعارف زاخرة، والمدارس طافحة، والبعثات إلى تامكروت وإلى فاس ومراكش بل وإلى الأزهر أيضا تتوالى، والقبائل ترى كل واحدة منها ان من الواجب عليها اشادة مدرسة علمية خاصة بها، يدرس فيها العلم العربي، فتقوم بها بثلث أعشارها، وبأحباس من أثريائها وبأشياء أخرى من صميم أموال بنيها «إلى أن يقول : لان اقامة المدارس وعمارتها بطلبة المعارف وبالتدريس للعلم العربي، صارت ميادين فخر تتسابق إليه كل القبائل، حتى ليكون كبيضة الديك والكبريت الأحمر، ان تجد قبيلة سوسية كبيرة أو صغيرة ليس لها معهد علمي بسيط مشاد بين ظهرانها».

ومن المعلوم ان العلماء في سوس كانوا هم المرجع في كل القضايا والفصل في الخصومات، وبفضلهم بقي السوسيون متمسكين بدينهم، ملتزمين شريعتهم، لا يتحاكمون إلى أعراف ما انزل الله بها من سلطان، مثلهم مثل اخوانهم في بقية انحاء المغرب، خاضعون للشريعة الاسلامية في أحكامهم، راجعون إليها في رفع المظالم عنهم، حتى أن المنظلمين منهم كانوا يعبرون عن تظلماتهم بهذه العبارة التي يقول عنها الاستاذ المختار، انها عبارة مشلحة (أنا بالله والشرع).

لقد كان مختارنا السوسي يعتبر اللغة العربية مقوما أساسيا في هذه البلاد، لا باعتباره اللسان القومي لها فحسب، ولكن باعتباره ركيزة من ركائز وحدة الشعب المغربي، لاتضاهيه إلا عقيدة الاسلام التي صهرت الوحدة المغربية، وجعلت المغاربة جميعهم أمة واحدة متماسكة ودولة واحدة قوية.

لقد كان ألمه شديدا، وحزنه عميقا، عندما لاحظ بعض التفريط في اللغة العربية وفي بعض المثل العليا التي حافظ عليها المغاربة طوال تاريخهم، فكتب يقول : «نكاد نعيش الآن على هامش الحياة العادية التي اندفع إليها هؤلاء الذين يملكون ناصية الحياة الاجتماعية بعد الاستقلال وأعظم ما نهتم له شيئان : أحدهما التفريط

في المثل العليا التي لا ترسخ في الشعوب إلا بعد جهود قرون، ومتى اجتثت من أي شعب بمثل هذه الاندفاعات العمياء فإن أبناء ذلك الشعب، سرعان ما ينحرفون عن الصراط المستقيم في الحياة، وثانيهما : التفريط في المحافظة على اللغة العربية وآدابها التي هي شعار المغرب، وكنزه الموروث، المحافظ عليه كلغة رسمية حتى يوم عممت تركيا لغتها في جميع أنحاء بلاد العرب منذ أوائل القرن العاشر الهجري، وليت شعري لماذا كنا نحرص على الاستقلال إن لم تكن اهدافنا المحافظة على مثلنا العليا المجموعة في أسس ديننا الحنيف، والمحافظة على هذه اللغة الوحيدة في البلاد ومعلوم ما للمغراويين والمرابطين والموحدين والمرينيين من تمجيد هذه اللغة وهي دول بربرية صميمة».

لقد كان يعتبر اللغة العربية، اللغة الوطنية الوحيدة والموحدة للبلاد، وهو بذلك يؤكد على ضرورة الحفاظ على هذه الوحدة الوطنية التي تتجلى في اللغة والعقيدة والتربة، ومن هنا نراه يهتم كل الاهتمام بقضية الصحراء المغربية، فيكتب عنها صفحات في كتابه «المعسول» ويتتبع المواقف التي وقفها الملك الحسن الأول ضدا على الانجليز عندما احتلوا مدينة «طرفاية» حتى اخرجهم عنها، والامدادات التي كان يمد بها الشيخ ماء العينين عندما كان مقره بالساقية الحمراء وتوالت هذه الامدادات للشيخ ماء العينين في عهد المولى عبد العزيز عندما صار يقاوم الوجود الاستعماري في الصحراء، وبعد انتقال الشيخ ماء العينين إلى تزنيت «ارسلت الأسلحة والدخائر إلى الصحراويين من طرف خفي، وعينت شخصيات صحراوية بظهائر شريفة كقواد يمثلون سلطان المغرب هناك، مما يدل على أن المراد أن يعرف الصحراويون المعينون على قبائلهم من طرف سلطان المغرب، انهم نوابه في الدفاع عن الصحراء التي هي جزء متم لأرض المغرب».

لقد كان رحمه الله يتابع قضية الصحراء في عهد الاستقلال متابعة الخبير وكان يعتبر الساقية الحمراء ووادي الذهب وتيندوف وتوات أجزاء لا تتجزأ من الأراضي المغربية، ولقد كتب في جريدة صحراء المغرب التي كان يصدرها الزعيم علال الفاسي رحمه الله مقالا أثبت فيه بالحجة الدامغة والدلائل القطيعة مغربية تيندوف الجزء المقتطع من بلادنا، والملحق ببلاد الجزائر في عهد الاستعمار.

ان الحفاظ على كيان المغرب وذاتيته وشخصيته وحضارته وثقافته من القضايا

التي اهتم بها ونصب نفسه للدفاع عنها، فلقد كان يرى أنه سيأتي يوم تحاسبنا فيه الأجيال اذا ما نحن ضيعنا أية قيمة من المقومات التي بنيت عليها ذاتيتنا وسجلها تاريخنا، ولقد كتب يقول : «نحن نوقن أنه سيأتي يوم يثور فيه أولادنا أو أحفادنا ثورة عنيفة ضد كل ما لا يمت إلى غير ما لآبائهم من النافع المحمود، ثم يحاولون مراجعة تاريخهم ليستقوا منه كل ما في امكانهم استدراكه».

ولعل هذا ما دفعه إلى أن يهتم ذلك الاهتمام العديم النظير بالتاريخ المغربي عامة وتاريخ سوس خاصة، حيث كان يرى أن الأمة التي تنسى ذاتيتها وتاريخها وحضارتها، تفقد وجودها، وتذوب في غيرها.

والتجارب التي مرت عليه في حياته، سواء وهو في «سوس» أو عندما انتقل إلى مراكش وفاس والرباط وغيرها من الأنحاء المغربية والاتصالات والعلاقات التي ربط مع كثير من الشخصيات، وبالأخص عندما كان بفاس، جعله كل ذلك يفتح عينيه على كثير من الحقائق فهو من جهة محافظ كل المحافظة على ما تركه الأجداد من أسس حضارية وقيم اخلاقية وتمسك بجوهر الدين، وهو من جهة ثانية ادرك ادراك الخبير أنه لا بد من اقتباس ما أتت به الحضارة الغربية الحديثة؛ «لكن هذا الاقتباس يجب أن يكون في حدود ما يفيد وما يساعد المغرب على السير في الحياة الجديدة التي لا بد منها لمن يريد أن يساير ركب الحياة ولعل أخوف ما كان يخافه ان تجرفنا هذه الحضارة المادية التي بعد عهد آبائنا وأجدادنا بها، فنقبل عليها دون تمييز، وننهل منها دون رقيب، وهكذا نضيع من جملة ما نضيع قيمنا وتقاليدنا وعقائدنا وأفكارنا.

ان نشوءه الأول في قرية نائية، بعيدة عن الحضارة والحركة والتأثر بالتأثيرات المختلفة وانتقاله بعد ذلك إلى جو حضاري جديد يختلف بعض الاختلاف عن الجو الذي عاش فيه لأول وهلة، جعله يدرك أن القدرة على الانتقال من طور إلى طور في الحياة، والتمييز بين الصالح والطالح في هذا الانتقال، لايستطيعه إلا المتبصرون الواعون، فالحياة الجديدة المتفتحة قد تعمي الأبصار عن رؤية كثير من الحقائق، وقد تنسى الانسان كثيرا من وجوده الخير.

فلنستمع إليه يصف لنا ما وقع فيه المغرب بعدما دهمه الاستعمار بخيله ورجله، بحضارته وعلومه المادية، بعوائده وتقاليده، بأفكاره ومذاهبه. لقد كتب

يقول : دهم علينا الاستعمار بخيله ورجله، بلونه وفكره، بسياسته ومكره، بحضارته المشعة، بعلومه الحيوية المادية، بنظامه العجيب، بمعامله المنتجة السريعة بكل شيء يمت إلى الحياة الواقعية، فتوقع لنا كما وقع لأصحاب الكهف يوم رجعوا إلى الحياة، فوجدوا كل مايعرفون قد تغير تغيرا تاما، وحين كان المغرب لقنا حاذقا سريع التطور، مندفعا إلى كل ما يروقه، أقبل بنهم شديد على التهام كل ما في هذه الحضارة الغربية العجيبة، التي تغير على جميع نواحي الحياة، فتحدث من التغيير ما يجرف التقاليد والأفكار، وكل ما يمت إلى العادات، فإذا بالمغرب يتحول في عهد قصير، إلى مغرب آخر، يغاير كل ما كان معروفا منه في الأمس، فإذا بأمثالنا نحن الذين كنا نعيش في شرخ شبابنا في المغرب المستقل قبل 1330 هـ قد كدنا نكون غرباء في طور شيخوختنا في المغرب المستقل من جديد 1375 هـ فقد حرصنا أن لا ننكر إلا ما يستحق أن ينكر، وان نحمد كل ما يمكن أن يحمد، واجتهدنا أن نساير العصر، وأن نتفهمه فلا ننكر أخذ ما لا بد من أخذه من أساليب الحضارة ونظمها وعلومها لأن الحكمة ضالة المومن، يلتقطها انى وجدها، ولكننا مع ذلك نشاهد اسرافا في التحول السريع الذي لم يراع فيه ــ حسب انظارنا نحن المسنين ــ حكمة ما بين التفريط والافراط، فنحاول أن نجمع بين محاسن أمس واليوم، ناصبين ميزان القسط، فإذا بنا نكاد نعيش الآن على هامش الحياة العادية التي اندفع هؤلاء الذين يملكون ناصية الحياة الاجتماعية بعد الاستقلال.

انه لا يرفض التطور والاقتباس والاستفادة من الحضارة الغربية، ولكنه يرفض الرفض القاطع الاقتباس الأعمى، والافراط في التقليد انه يتألم شديد الألم من هؤلاء الذين امتلكوا زمام التسيير بعد الاستقلال، فلم يستطيعوا أن يفرقوا بين الغث والسمين، ولا بين الصالح والطالح، بل اندفعوا يقلدون الغرب الاستعماري في كل ما أتى به، وما سارت فيه حضارتهم التي امحت فيها الحياة الروحية محوا اصبحوا يجنون ثمار آلامه اليوم، لقد قلدوا الغرب الاستعماري في لباسهم في اختيار تأثيثهم في عوائدهم وحتى في مقاييس أخلاقهم وأذواقهم وأفكارهم، لقد كانت للمغرب مقاييسه وتقاليده ومعاييره في كل ما ذكر وفي غيره، فهل عفى الزمان على كل تلك المقاييس ؟ وهل ثبت أنها غير صالحة للحياة ؟ فلماذا نبدلها هذا التبديل ولماذا نهجرها هذا الهجران ؟ انه وباء التقليد الأعمى الذي لا يفيدنا في

شيء، فهل التطور هو التنكر للقيم والمقاييس التي كان عليها الآباء والأجداد مهما كانت صالحة ومفيدة وضرورية للحياة المستقيمة : ؟ وهل الاقتباس هو أخذ ما أتى له الأجنبي الدخيل مهما كان ضارا وغير ملائم لدينا وتقاليدنا الصالحة ؟

إن التزام هذه الأمة المغربية بدينها الاسلامي منذ القرن الأول الهجري، فرض عليها السير في منهاج للحياة لا يمكن مطلقا أن ينحرف عن المنهاج الذي أتى به رسول الاسلام فالمقاييس والمثل العليا لا تؤخذ إلا من الاسلام، والتحاكم لا يكون إلا للاسلام، والتطور لا يكون إلا في دائرة الاسلام، واذا كان الاسلام دين العلم والفكر والتقدم والخلق، واذا كان الاسلام لا يتنكر لكل صالح مفيد أتت به مختلف الحضارات، فلماذا نبتعد عن مقاييسه ونستبدلها بمقاييس ومعايير أخرى ؟ ان هذا هو الخسران المبين.

ان شخصية المختار السوسي متعددة الجوانب، ولكن الطابع الذي غلب عليه، هو الطابع العلمي الأدبي التاريخي، فهو عالم باحث أديب مؤرخ، وهو كاتب شاعر مؤلف، وهو مع ذلك سلفي موجه، تأثر بصوفية والده، فكان لها انعكاس على حياته، وأعجب بسلفية استاذيه الدكالي والعلوي فسار على نهجهما في مقاومة البدع المنكرة التي تخالف جوهر الدين، ولا تتلاءم مع قدسيته ونصاعة مبادئه وحقيقة دعوته التوحيدية.

ان الحديث عن كل جوانب المختار السوسي يتطلب صفحات أكثر، ودراسة أوعى، خصوصا علمه وأدبه وشعره وتآليفه التي بَزَّ فيها الأقران وحقق ما لم يستطع غيره أن يحققه مدى الأعوام، فلأكتف الآن بهذه الارتسامات عن حياة فقيدنا العزيز ولأدع الله أن يكافئه على ما قدم من الصالحات، ويبوئه مقعد صدق عنده.

أبو بكر القادري

ملاحظات حول
محمد المختار السوسي وأعماله

علي صدقي

إن المتتبع لحياة محمد المختار السوسي يلاحظ أنها تنقسم ـــ بصفة عامة ـــ إلى مرحلتين كبيرتين هما :

1 ـــ مرحلة التعلّم والتدريس.

2 ـــ مرحلة التأليف والنشر.

وسوف لا أتعرض هنا إلا للمرحلة الأولى، لأن العروض الأخرى تشمل المرحلة الثانية.

تمتد المرحلة الأولى ـــ بصفة عامة ـــ من ولادته سنة 1318هـ /1898م (1) إلى اليوم الذي نفته فيه السلطة الاستعمارية من مراكش إلى مَسْقط رأسه بِإِلْغ مفتتح عام 1356هـ /1936م (2) [أخذ من بيته بالزاوية (مراكش) يوم الخميس 28 /12 /1355هـ] (3). ورغم أنه مارس التدريس، بعد رجوعه إلى مراكش في أواخر سنة 1364هـ (1945)، فإنه لم يزاوله في مدرسته الحرة التي أنشأها قبل النفي، بل اكتفى بإعطاء دروس في مسجد باب دكالة إلى أن ارتحل إلى الدار البيضاء سنة 1370 (1951) حيث مارس التدريس أيضا في المسجد المحمدي ثم في مسجد درب ابن العالية(4). قبل أن يعتقل مرة أخرى بعد سنتين من إقامته هناك.

(1) انظر الالغيات، ج1، ص 213 ـــ 214.

(2) من أفواه الرجال ج1، ص 7.

(3) الالغيات، ج1، ص 35 ـــ 39. وج2، ص 231.

(4) معتقل الصحراء ص 16.

وأرسل إلى منفى أغبالونـكردوس بناحية تافيلالت وقضى فيه سنة ونصف السنة(5).

محمد المختار بين إلغ ومراكش

قضى محمد المختار السوسي العشرين سنة الأولى من عمره في منطقة سوس مع إقامة قصيرة في أولاد بوسبع بناحية مراكش حيث تلقى بعض الدروس سنة واحدة قبل التحاقه بمراكش(6) عام 1338هـ (1918) (7). وكان مستواه الثقافي آنذاك مستوى مكنه ــ كما قال ــ من أن يكتب «مقطّعات ورسائل أولية كانت إرهاصا لما أتى بعد»(8). وفي السنوات الثلاثة الأولى من إقامته بمراكش صدر عنه ــ كما قال ــ «ما يمكن أن يحمل سمة الأدب نثرا وشعرا»(9) رغم أنه ــ على حد قوله ــ لم يكن يهتم بالدروس الرسمية، بل كان يقضي جل أوقاته منعزلا مع كتبه الأدبية(10). غير أنه ابتداء من سنة 1342 (1922)، بعد حضور دروس الشيخ أبي شعيب الدكالي تنبه «للتفريط الذي مر به في العلوم المختلفة»(11)، فأقبل عليها إقبالا كليا. ثم ارتحل إلى فاس في أوائل سنة 1343هـ (1924) (12).

محمد المختار في فاس والرباط

أقام السوسي بفاس أربع سنوات، وغادرها في أوائل سنة 1347 (1928)، ليلتحق بالرباط التي قضى بها سنة ثم عاد إلى مراكش سنة 1348 (1929) (13).

خلال هذه السنوات الخمسة، اتسعت آفاق محمد المختار الفكرية

(5) معتقل الصحراء ص 21 وما بعدها.
(6) الالغيات ج2، ص 221.
(7) الالغيات ج2، ص 223.
(8) الالغيات ج2، ص 220.
(9) الالغيات ج2، ص 224.
(10) الالغيات ج2، ص 224. أما عن أسباب انعزاله فتعود إلى ما يصيبه الفينة بعد الأخرى من «زوابع صوفية» كما يسميها (الإلغيات ج2، ص 223 ــ 224). وقد تعود كذلك إلى القلق العميق الذي أصيب به بعد خصامه مع أخيه الأكبر والذي يسميه «من رباني» (الالغيات ج2، ص 220 ــ 222).
(11) الالغيات ج2، ص 225.
(12) الالغيات ج2، ص 225.
(13) الالغيات ج2، ص 227.

والسياسية(14). لأنه تمكن هناك من الاتصال بالأفكار الجديدة، سواء عن طريق الدروس التي تتبعها كدرس محمد بن العربي العلوي الذي قال عنه : «فقد كان مجلسه ندوة الفكرة الدينية الجديدة(...)، فإذ ذاك سكرت بتلك الفكرة...»(15)، أو عن طريق المناقشات والندوات الخاصة(16)، أو بواسطة ما كان يقرأه من جرائد ومجلات وكتب حديثة(17).

التدريس في مراكش

بعد وصوله إلى مراكش، ركز كل مجهوده على التدريس. فأنشأ أول مدرسة حرة بمراكش في زاوية أبيه المعروفة قرب مسجد باب دكالة. وكان جل تلاميذته الداخليين من النازحين القرويين (كان يسميهم الأفاقيين)(18) وفي نفس الوقت كان يعطي دروسا أخرى في مختلف مساجد المدينة. وخاصة في مسجد باب دكالة، وسيدي عبد العزيز والكتبية(19). بالإضافة إلى نشاطه المجتمعي كالجمعية الخيرية، والجمعية المشرفة على تأسيس مدارس حرة أخرى في مختلف احياء المدينة، واستمر كذلك إلى أن نفي إلى إلْغ بسوس.

ملاحظات أولية حول هذه الفترة من حياة الرجل.

1 — أول ما يلاحظ هنا هو أن محمد المختار السوسي تمكن في العشرين سنة الأولى من حياته من حفظ القرآن وتحصيل علوم اللغة، والاطلاع على جوانب من مادة الأدب والشعر والعلوم الدينية. كل ذلك قبل الالتحاق بالمراكز الحضرية المعروفة آنذاك بتمركز التعليم العالي فيها وهي مراكش والرباط وفاس(20).

هذه الملاحظة تظهر بوضوح ان المدارس العلمية في سوس كانت حتى بداية القرن العشرين — رغم كل المظاهر — قادرة على تلقين أسس العلوم المعروفة آنذاك.

(14) الالغيات ج2، ص 225 وما بعدها.

(15) الالغيات ج2، ص 226.

(16) الالغيات ج2، ص 226 — 227.

(17) الالغيات ج2، ص 226.

(18) إيليغ قديما وحديثا. ترجمة المؤلف (محمد بن عبد الله الروداني) ص «يز»، وص «ك» والالغيات ج1، ص 24.

(19) الالغيات ج1، ص 8 و34.

(20) الالغيات ج2، ص 219 وما بعدها.

وبالتالي فإن الطالب المجد يمكنه أن يرقى إلى درجات عليا في مجال العلم دون أن يكون مضطرا إلى مغادرة المنطقة في اتجاه المدن. وهذا لا يمكن أن يتأتى إلا بوجود مدارس كثيرة في كل أرجاء سوس، وأساتذة مقتدرين مع توفر الكتب الكافية لاشباع رغبات المتعطشين إلى المطالعة والدرس. وكل هذا كان متوفرا بشهادة مصادر تاريخية كثيرة(21)، بما فيها كل ماكتبه المختار السوسي نفسه، وخاصة في كتابه «سوس العالمة».

ومع ذلك، فالملاحظ المتتبع لحركة التعليم في البادية المغربية، وفي الجنوب بصفة خاصة، لابد أن يشعر بوجود تقهقر تدريجي في مجال التعليم العالي في هذه المناطق منذ القرن السابع عشر على الأقل. فبانتهاء الزاوية الدائية وسقوط إيليغ، تلقت المؤسسات التعليمية الجامعية في البادية المغربية أول ضربة قاضية. ورغم أن الزاوية الناصرية بتَامْكرُّوت بقيت محافظة على مستوى تعليمي لائق إلى منتصف القرن الثامن عشر، فإنها بعد ذلك بدأت، هي بدورها، تعرف تراجعا ملحوظا بقي مستمرا إلى بداية القرن التاسع عشر(22). بل أن التعليم فيها بدأ فعلا في التدهور منذ أواخر القرن الثامن عشر (23). وبذلك فإن المراكز الحضرية الكبرى بدأت — ولأسباب تاريخية أخرى — تنفرد شيئا فشيئا باحتكار المأسسات التعليمية العليا. وتجذب إليها — أكثر فأكثر — الطلبة القرويين وكثيرا ما تستهوى نسبة كبيرة منهم، فيستقرون بها بعد تخرجهم. وهذا التطور تقدم بسرعة هائلة بعد دخول الاستعمار الفرنسي، وانشاء مؤسسات التعليم العصري في العواصم الكبرى أولا، وأقدم أبناء الحضريين عليه، في حين لم تعرفه البوادي — وخاصة بوادي الجنوب — إلا بعد عشرين سنة على الأقل، نظرا لاستمرارها في مقاومة المستعمر إلى حوالي 1934. هذه الحقيقة طبعت مغرب ما بعد الاستقلال بطابع كانت له نتائج على المستوى المجتمعي والسياسي والثقافي لا تزال بارزة إلى اليوم.

---

(21) انظر رحلة الوافد. عبد الله بن ابراهيم. تحقيق صدقي علي. ص 93 — 142 وغيرها. 261 وغيرها. (غير منشور).

(22) انظر محمد المنوني «**حضارة وادي درعة**» فصله من «دعوة الحق» عدد 2 و3 السنة 16 (1973) ص 19.

انظر كذلك: Marcel Bodin, **La Zaouia de Tamegrout**, in les Archives berbères v. 3 Paris 1918, fasc.4 p. 273 note 1.

(23) المنوني، المرجع أعلاه. الصفحة نفسها.

2 ـــ الملاحظة الثانية هي أن محمد المختار السوسي أدرك ما أدرك من علوم وآداب داخل حدود المغرب أي أنه لم يكن في حاجة إلى السفر إلى المشرق لاستكمال تكوينه ـــ كما كان الأمر قبل ذلك ـــ وهذا دليل على أن المغرب حقق اكتفاء ذاتيا على المستوى التعليمي على الأقل. غير أنه لا ينبغي أن يفهم من هذا أن هذا الاكتفاء الذاتي لم يتحقق إلا من الفترات الأخيرة. فإذا اعتمدنا الحالات المشهورة فحسب فسنجد أن مرحلة الاستقلال هذه بدأت منذ عهد الموحدين. وبالتالي فإن المجهود العلمي الذي بذله المرابطون والموحدون ثم المرينيون، مكن المغاربة ـــ وخاصة بعد سقوط الأندلس نهائيا ـــ من تكوين أطرهم الخاصة في ميدان العلوم الدينية والأدبية جعلتهم يستغنون عن مراكز الثقافة الإسلامية بالمشرق. ولكن الكتاب كان دوما متداولا حاضرا. إذ كان المغاربة المهتمون يحرصون دوما على اقتناء أهم الكتب التي تصدر في المشرق وخاصة من مصر، وكان موسم الحج مناسبة تمكنهم من الاطلاع على الأخبار العلمية هناك. وكثيرا ما كانوا يعرجون على مصر ويقيمون بها مددا مختلفة قصد الاتصال بالعلماء البارزين أو استنساخ الكتب القيمة(24).

فإذا كان عبد الله بن ياسين قد قضى سبع سنوات في الأندلس قبل أن يعود إلى بلاده بجزولة، ويبدأ مغامرته السياسية الناجحة(25).

وإذا كان محمد بن تومرت قد سافر إلى الأندلس والمشرق قبل أن يشرع في عمله العظيم، مع أننا ـــ رغم ذلك ـــ يمكن أن نفترض أن هذين كانا ـــ كما كان المختار السوسي ـــ متقدمين جدا على المستوى العلمي قبل خروجهما من المغرب وان كل مااستفاداه هو الاطلاع على ما جد في الفكر السياسي والمذهبي... مكنتهما ظروف الازمة المغربية ـــ كلا على حدة ـــ من تطبيق أفكارهما بعد الاستيلاء على السلطة.

أقول إذا كان المغاربة ذووا الطموح العلمي الكبير يسافرون إلى المراكز الثقافية الاسلامية في الأندلس والمشرق ثم بعد ذلك إلى المراكز الحضرية المغربية فإن المراكز الجامعية القروية خرَّجت شخصيات علمية وأدبية فذة دون أن تستعين بطريقة مباشرة

(24) محمد بن ناصر الدرعي أقام بالقاهرة مدة طويلة، واشترى منها عددا كبيرا من الكتب ـــ تعداد الكتب في هذه الخزانة قدر في بداية القرن XX بـ 10.000 مجلد انظر Marcel Bodin المرجع السابق، ص 273، تعليق 1.

(25) انظر **البيان المغرب** لابن عذاري ج4، ص 10 (بيروت 1967) والناصري، **الاستقصا** (1954) ج2، ص 7 وما بعدها، والمختار السوسي، **سوس العالمة** (1984) ص 17.

بالمراكز المذكورة. وكمثال على ذلك نذكر عَلَميْن من أعلام المغرب المشهورين. الأول منهما عاش في القرن الثالث عشر وهو محمد بن محمد الحيحي المعروف بالعبدري صاحب الرحلة المغربية (خرج من بلاد حاحة للرحلة عام 1289)(26). والثاني عاش في القرن السابع عشر وهو الحسن ابن مسعود اليوسي صاحب المحاضرات.

لقد تطرقت إلى هذه المسألة لأن محمد المختار السوسي يدخل في اطارها استنادا إلى ما ذكر في أول هذا العرض بخصوص تكوينه ورحلته العلمية. ولأنها كذلك نوقشت في كتابه «سوس العالمة»(27)، حين حديثه عن انبعاث الأدب في تارودانت أيام محمد العالم وقبله. بل أنه دافع عن هذه الفكرة في أماكن مختلفة من مؤلفاته. وعمل على اثباتها، عن طريق كتاباته. ولأنني كذلك أعتقد أن محمد المختار السوسي واعماله يجسدان بشكل واضح، على مستوى آخر لم يقع التركيز عليه لحد الآن هذه الازدواجية المغربية الصامتة، القديمة ــ الحاضرة، الواقعية ــ المهملة من قبل الباحثين المغاربة والمتمثلة في البادية والمدينة وطبيعة العلاقة بينهما ودور كل منهما في التاريخ الوطني(28). إنها ازدواجية معقدة وعميقة، يمكن أن تعطينا ــ إن هي درست دراسة علمية شاملة ــ نموذجا مثاليا للتراكب والتراتب والتوازي في آن واحد، سواء على مستوى المفاهيم أو الممارسات اليومية.

وإذا كان الحوار الاضطراري بينهما سائدا دائما فإنه لم يكن متكافئا على المستوى النظري على الأقل لأن مفاهيم وتصورات، وبالتالي اختيارات الطرفين لم تكن على نفس المستوى من البلورة النظرية. ولذلك أدى بالضرورة إلى نوع من المثاقفة البطيئة شملت المؤسسات المجتمعية والثقافية والسياسية. وبذلك أصبحت البوادي ــ عن طريق مؤسساتها التعليمية على الخصوص ــ تحاول بجد أن تنافس المدينة مُمَثّلةً في مثقفيها، لتُظهِر لهم أنها قادرة على انتاج نفس الرموز الثقافية وباستعمال نفس الأدوات اللغوية، وبِطَرْقِ نفس المواضيع المتداولة.

وهذا هو الاطار الذي جمع فيه محمد المختار السوسي ما جمع، وكان هدفه هو رد الاعتبار لاقليم كان دوما متهما بالانزواء والسلبية المضادة، رغم أن تاريخه السياسي والثقافي يثبت بوضوح عكس ذلك.

(26) انظر **رحلة العبدري**. تحقيق محمد الفاسي (الرباط 1968)، تقديم ص «ح».

(27) المختار السوسي، «**سوس العالمة**»، (1984) ص 64 وما بعدها.

(28) انظر الانغيات ج2، ص 100 وما بعدها. وقارن مع اليوسي في رده المشهور على الرسالة الاسماعيلية.

فإذا كانت البادية المغربية وخاصة منها التي تقع جنوب الأطلس ــ من تافيلالت إلى درعة إلى سوس والصحراء ــ تتحكم إلى حد بعيد ــ ولأسباب موضوعية بعضها معروف الآن ــ في الديناميكية السياسية على مستوى المغرب كله، في أطوار الأزمات على الخصوص، وذلك إلى حدود النصف الثاني من القرن السابع عشر، فإن كل محاولاتها منذ ذلك الوقت باءت كلها بالفشل. وهذا موضوع لم يدرس بعد، غير أننا يمكن أن نقول أن العوامل الخارجية ــ وأقصد هنا التدخل الاوربي بأي شكل من الأشكال ــ لعبت دورا كبيرا في قلب التوازن الداخلي لصالح المراسي الأطلسية والعواصم الادارية. وكان التدخل الفرنسي الفعلي في بداية القرن تكريسا نهائيا لتفوق المراكز الحضرية شمال سلسلة جبال الأطلس.

هذه هي الوضعية التي شهد محمد المختار آخر مراحلها، وأكثرها سرعة، وبالتالي أكثرها ازعاجا له ولأمثاله. وفي هذا الموضوع قال : «وفي هذا اليوم دهم علينا الاستعمار بخيله ورَجْلِه، بلونه وفكره، بسياسته ومكره، بحضارته المشعة (...) فوقع لنا كا وقع لأصحاب الكهف يوم رجعوا إلى الحياة، فوجدوا كل ما يعرفونه قد تغير تغيرا تاما (...) فإذا بالمغرب يتحول من عهد قصير إلى مغرب آخر يغاير كل ما كان معروفا منه بالأمس...»(29).

وكان رد الفعل لديه هو الرجوع إلى الماضي المشرق لوطنه، لا للقبوع فيه، ولكن لابرازه حتى يتسنى لمن يريد أن يستلهمه لتغيير الحاضر وبناء المستقبل. وهذا ما قاله في الموضوع : «كذلك مضت الأربعون سنة (من عمره) وكانت السنتان الأخيرتان منها لسوس، فاحييت منه ما كان ميتا، وبعثت منه ما كان مرموسا، وها نحن أولاء الآن فوق هذه القمة وقد حُجِب عنا المستقبل. نلقي نظرة على الماضي، لعل فيها شحنا للقريحة للمستقبل إن كان لا يزال في العمر امتداد»(30).

ويبدو أنه كان أول من استنار به قبل أن يشرع في كتابة ما كتب، وهذا ــ في نظري ــ من بين أمور أخرى، هو ما يمكن أن نشرح به سلوكه النضالي في اطار الحركة الوطنية وخارجها.

وسأكتفي هنا بالاشارة إلى أن جل الحركات السياسية الكبيرة التي أتت من الجنوب

---

(29) انظر المعسول ج1، ص «ج» من المقدمة.

(30) انظر الالغيات ج2، ص 231

كانت زعاماتها المنشئة لها زعامات علمية ــ دينية (عبد الله بن ياسين، محمد بن تومرت أحمد الهيبة) وكل هذه الحركات كان محمد المختار السوسي يعرفها حق المعرفة. وتأثيرها عليه لا يمكن أن يكون إلا كبيرا.

3 ــ الملاحظة الثالثة، وهي تتعلق أساسا بتقلبات حياة محمد المختار السوسي خلال المرحلة الأولى من حياته. والتي نحن الآن بصدد ابداء ملاحظات حولها.

لقد نشأ محمد المختار في حضن عائلة كبيرة من حيث عدد أفرادها (اخوته واخواته : 9 ذكور و6 إناث) (31) وكذا من حيث الجاه الذي كان لها كأسرة دينية وعلمية تتزعم الزاوية والمدرسة. هذا الانتماء سيكون له ــ كما سنرى ــ تأثير كبير على حياته النفسية وعلى تكوينه وممارساته العملية.

حينما ولد محمد المختار كانت زاوية أبيه قد ازدهرت واتسع نفوذها في كثير من أصقاع سوس وغيره (32) وهذا أدى بالضرورة إلى انشغال أبيه عنه بفقرائه وطلبته وسياحاته القصيرة والطويلة(33). ولكنه ترعرع في وسط لم يشعر فيه بخصاصة. بالاضافة إلى ما كان يتمتع به من عناية ووقار من قبل أساتذته ومريدي أبيه الشيخ(34). كل هذا أدى به من جهة أخرى إلى التهاون في تحصيل الدروس(35)، ولكنه كان مولعا بمطالعة الكتب الأدبية على الخصوص(36) ورغم أنه راجع نفسه مرات متعددة وحثها على المثابرة في تحصيل العلوم المختلفة فإنه يعترف أنه لم يحقق في هذا المجال كل ما كان يصبو إليه(37). وفي هذا الصدد يقول : «وباختتام تلك السنة (1347 /1928) انقضى ما تيسر أن آخذه في دور تعلمي الذي امتد نحو تسع عشرة سنة، ولكن غالبها أو جلها ذهب ضياعا بين صبا ومرح، وبين أفكار مختلفة».(38).

وبعد وفاة أبيه (عام 1328 /1908) كان عمره لا يتجاوز عشر سنوات،

(31) الالغيات ج2، ص 217
(32) أسست الزاوية سنة 1302هـ انظر المعسول ج1، ص 223.
(33) المعسول ج1، ص 230 وما بعدها.
(34) الالغيات ج2، ص 215 وما بعدها.
(35) الالغيات ج2، ص 217 وما بعدها.
(36) الالغيات ج2، ص 219 ــ 220 ــ 221 ــ 223 وغيرها.
(37) الالغيات ج2، ص 224.
(38) الالغيات ج2، ص 228.

وكانت هذه أول صدمة تلقاها، وطبعته طوَال حياته. وكان يعتبر أن يتمه كان هو السبب في تعثره في الدراسة. فقال : «... وما ذاك إلا نتيجة لشييء واحد هو أنني نشأت يتيما مفرطا في ، لم يكن هناك من يهتم بإرشادي»(39). ومع ذلك فإنه استفاد كثيرا من اعانات فقراء زاوية أبيه طوال مدة دراسته. وخاصة في الفترات الأولى منها(40)، وهذا مكنه كذلك من شراء الكتب الكثيرة، وخاصة حينما كان بمراكش(41).

هناك جانب آخر من حياة محمد المختار السوسي، له ارتباط وثيق بتربيته الأولى، هو هذا التجاذب الذي ينتابه مرة بعد أخرى بين التصوف من جهة واكتساب العلوم الظاهرة من جهة أخرى(42). واذا كان هذا التردد بين الاتجاهين واضحا بينا في السنوات العشرين الأولى من حياته، فإنه أصبح كامنا بعد ذلك، وخاصة بعد التقائه مع الفقيه العالم سيدي سعيد التناني (43)، ومولاي عبد الرحمان الدرقاوي.(44).

إننا نعرف اليوم أن محمد المختار غَلَّبَ الاتجاه الثاني وأعطى ما أعطى سواء في مجال التعليم أو في ميدان التأليف. غير أن سلوكه الشخصي والمجتمعي بقي طول حياته مطبوعا بطابع الزهد والتواضع والإيثار. وهذا في اعتقادي — هو العامل العميق الذي حال بينه وبين احتلال مركز الصدارة — في نظر من لا يعلمون على الأقل — كزعيم سياسي بالشكل المعروف المبتذل.(45) رغم أنه كان من أوائل مؤسسي الحركة الوطنية(46). ومن أكثر الوطنيين الرواد الذين تعرضوا لقمع المستعمر واذنابه(47) وهو بهذا السلوك لم يخرج عن المعتاد من هؤلاء السوسيين الابرار الذين كانوا منذ زمان يفضلون بصفة عامة أن يكونوا جنودا أوفياء لوطنهم وراء زعامات كثيرا ما كانوا هم الذين يصنعونها.

(39) الالغيات ج2، ص 228.
(40) الالغيات ج2، ص 217 — 219 — 220 وبعدها.
(41) الالغيات ج2، ص 221.
(42) الالغيات ج2، ص 216 وما بعدها، 224 — 225.
(43) الالغيات ج2، ص 223.
(44) الالغيات ج2، ص 224.
(45) الالغيات ج1، ص 29.
(46) الالغيات ج2، ص 227.
(47) قضى احدى عشرة سنة ونصف في المنفى.

وقد تكون هناك أسباب أخرى ربما تظهر فيما بعد إذا نشرت كل كتاباته. وكل أوراقه (المراسلات أو المذكرات من نوع آخر إن كان قد كتبها) أو عن طريق شهادات رفاقه وأصدقائه.

4 ــ الملاحظة الرابعة وتتعلق بما أقدم عليه ــ في طور الأستاذية ــ من تحويل زاوية أبيه بمراكش إلى مدرسة ذات نظام داخلي(48).

إن هذه العملية رغم بساطتها الظاهرية ذات أهمية قصوى بالنسبة إلينا، لأنها تترجم بوضوح التحولات العميقة التي وقعت في تفكير محمد المختار. وسأكتفي هنا بذكر شيئين اثنين لأنهما ــ في نظري ــ أبرز هذه التحولات كلها.

أولا : إن تحويل الزاوية إلى مدرسة دليل على أن محمد المختار طلق بصفة نهائية العمل الطرقي الذي كان أبوه واحدا من المؤمنين به والعاملين به. وإن فعل هذا فلأن ابن الشيخ تكونت لديه نظرة أخرى إلى الأشياء تخالف نظرة أبيه وأخيه الأكبر (محمد) الذي أصبح مكلفا بالزاوية الأصلية بإلْغ على منوال أبيه. فوجد اتجاهين متباينين داخل أسرة واحدة، ليس إلا تجسيما مصغرا لما وقع في المجتمع المغربي من تحولات فكرية ابتداء من العشرينات والثلاثينات.

ان اتجاه محمد المختار هذا قد تكون له ــ في البداية على الأقل ــ أسباب عائلية(49). ولكنها ليست وحدها كافية لشرح موقفه هذا. فلا بد إذن من البحث في اتجاه مغاير علنا نعثر على شرح آخر يساعدنا على الاقتراب من الحقيقة.

ثانيا : إن الثلاثين سنة التي انقضت من عمر محمد المختار مكنته من التأمل العميق في الحالة العامة داخل وطنه الذي أصبح محتلا من قبل الاستعمار. ولا شك أنه فكر مليا في أنجع وسيلة لتغيير الأوضاع أو التهييء لتغييرها على الأقل. وفي نفس الوقت فكر في الدور الذي يمكنه القيام به شخصيا كمواطن مغربي عرف مأساة بلاده وشعبه، وعرف أسبابها في الحاضر، واطلع على الماضي المجيد لوطنه بواسطة قراءاته في التاريخ. فهذه المقارنة بين الحاضر والماضي تفرض نفسها على المثقف ــ غير الانتهازي ــ فتقض مضجعه، وتملأ قلبه بالحماس، وتجعله يحتقر الصعاب، ويستصغر التضحيات، فيتحول ــ نتيجة لذلك ــ إلى زاهد من نوع آخر : إيجابي

(48) الالغيات ج1، ص 7 ــ 8.

(49) خصامه مع أخيه الأكبر. انظر الالغيات ج2، ص 220 ــ 222.

فعّال مناضل. وهكذا كان محمد المختار.

أما الوسيلة الناجعة في نظره، فهي نشر العلم بين أفراد الأمة، لأنه يرى أن «نفع الأمة (...) قطبه التعليم»(50). ولهذا كرس حياته كلها للتعليم سواء عن طريق المدرسة والدرس أو عن طريق الكتابة والتأليف(51).

وكأن لسان حاله كان يقول، إن سبب ما نحن فيه من صَغَار ومذلة، مرجعه إلى الجهل والأمية، فلنبدأ باجتثاث الداء من أصله. وفي هذا الصدد يقول (عام 1936) : «نجهل بلادنا جهلا، الكسل، الجبن، التزمت، الانزواء، كل هذه المصائب والنوائب جعلتنا نرزح في الجهل لما في مغربنا، وعدم اهتمامنا بزيارة مجاهل المغرب»(52).

فالعمل الثقافي عند المختار وسيلة نضالية فعَّالة لتغيير الواقع. لأن أي واقع لا بد أن يستند إلى أسس ثقافية معينة تشد وتساند هيكله المادي. وللقضاء عليه لابد من انتاج أو استنهاض قيم ثقافية مضادة. وهذا عمل طويل الأمد، لا يتم إلا بالوسائل التعليمية. ولا يتصدى إليه إلا العظماء الأفذاذ الذين لا تغريهم الشهرة الآنية، ولكنهم يطمحون إلى الذكر الخالد(53). ومن هذه الطينة كان محمد المختار السوسي.

يستنتج مما سبق أن محمد المختار لم يكن ينظر إلى العلم كهدف في حد ذاته، بل كوسيلة مزدوجة الهدف في البداية، ولكن غايتها القصوى واحدة في النهاية.

فهو أولا يساعد على توعية الناس بطبيعة أوضاعهم المجتمعية والسياسية، وبالتالي يمكنهم من تقويمها تقويما صحيحا. وآنذاك فقط يتأتى استنباط الوسائل الناجعة لتغييرها أو تحسينها على الأقل. وهو ثانيا يؤدي بالضرورة — وفي غالب الأحيان — إلى طرح تساؤلات، والبحث لها عن أجوبة. تساؤلات تنصب — بصفة خاصة — في مثل هذه الحالة على الماضي، على التاريخ. وحينما يصل المرء إلى هذا المستوى، فلا بد أن يجد في تاريخه، تاريخ أمته، عناصر نهوضه، عناصر نهوض أمته. لأن التاريخ هو السر المتحكم في الحاضر من جميع الحالات. وهذا صحيح ما دامت الحالة الحاضرة

(50) الالغيات ج1، ص 41.
(51) الالغيات ج1، ص 38.
(52) مجلة الايمان، عدد 113 — 114 (1982) ص 116.
(53) الالغيات ج1، ص 10 وما بعدها.

لكل مجتمع، بكل علاقاتها، مرتبطةً بخيوط متينة بما كان في السابق.

أما الغاية التي تجمع في النهاية هذين الهدفين، فهي تحقيق نهضة شاملة، مبنية على الأصالة، ومستفيدة من مكتسبات العصر في ميادن العلوم العصرية. هذا هو ـــ في نظري ـــ السلوك الفكري لمحمد المختار في تعامله مع الواقع المعاش. وهذا السلوك هو الذي يلقي أضواء أخرى على سلوكه في إطار الحركة الوطنية.

محمد المختار السوسي تجسيم لـ : «الصوفية الوطنية»

إن عبارة «الصوفية الوطنية» ليست مني. ولكنها من الفقيه الجليل محمد بن عبد الله الروداني، الذي عاشر محمد المختار السوسي مدة طويلة وعرفه حق المعرفة(54).

إنها تصف سلوك محمد المختار في ميدان النضال الوطني، ولكنها لا تحدده. فإذا كانت وطنيته صوفية فلأنها كانت عميقة متأصلة، تعطي ولا تأخذ، بعيدة المدى، جذرية المَقْصِدِ، لا تهدف فقط إلى طرد المستعمر من البلاد، ولكن ترمي كذلك وفي نفس الوقت إلى تهْيِيء البلاد للشروع من بناء نهضة شاملة ثابتة الأسس.

فوطنية محمد المختار ـــ رغم أنها امتزجت في أعماقه بالصوفية المتأصلة الصافية ـــ لم تكن ذاتية جامدة، ولكنها كانت فعّالة عاملة بعيدة المرمى، انصبت كلها ـــ ظاهريا على الأقل ـــ على التعليم. قلت ظاهريا لأن هناك إشارات متعددة، منبثة في كتبه، تثبت انه كان يقوم بدور آخر. لا يقل أهمية عن التعليم.

وفي هذا المجال أيضا سأكتفي بابداء بعض الملاحظات التي تكونت لدي بعد قراءة سريعة لبعض مؤلفاته المنشورة.

أولا : إن الغيرة الدينية على الوطن لم تكن جديدة على محمد المختار. لأن والده الشيخ كان في أواخر حياته من الدعاة المعروفين في سوس باستنهاض الناس إلى الجهاد ضد المستعمر بعد نزوله بالدار البيضاء ونواحي وجدة.(55) كما أن محمد المختار شهد ـــ وهو صغير ـــ الهزة الكبيرة التي ملأت كل أرجاء سوس عند قيام حركة أحمد الهيبة في تيزنيت (1330هـ) والتي كان السوسيون عمادها المتين. ولولا

---

(54) إيلغ قديما وحديثا، تقديم. ص «يز» وللتعرف على هذه العلاقة يقرأ هذا التقديم كله.
(55) انظر المعسول ج1، ص 301.

غيرة هؤلاء على وطنهم لما اتبعوا أحمد الهيبة رغم كل عيوبه(56) فهو اذن لم يتعلم الوطنية من أحد لأن وطنيته من دينه لا العكس كما قال(57). ولكن الذي وقع — وهذا شيء طبيعي — هو أن دروس بعض الرواد السلفيين كأبي شعيب الدكالي(58)، ومحمد بن العربي العلوي(59)، بالاضافة إلى قراءاته الكثيرة، واطلاعه على أفكار الحركات المصرية والتركية والسورية والهندية والافغانية والايرانية والتونسية(60)، أيقظت وطنيته الكامنة، وأعطتها توجيها عصريا(61) يرتكز أساسا على التوعية المنظمة، والعمل الدؤوب في مجال التكوين الثقافي والسياسي اللذين كانا يكونان وجهين لشيء واحد خصوصا في الفترات الأولى من تاريخ الحركة الوطنية.

ثانيا : كان اتصال محمد المختار بالمراكز الحضرية وابنائها قد احدث تحولا كبيرا في آرائه وأفكاره. ولكنه لم ينجرف كل الانجراف مع الحياة العصرية. وهذا ما قاله في الموضوع : «فإن الدعاية العصرية تمكنت مني بسرعة. فطار غيرها شَعَاعاً. ولولا ما كنت عرفته قبل ذلك، وألِفته من الصلاة، ومن الاعتقاد الحسن في أهل الخير، لكنت ككثيرين من غيري»(62). ويقول كذلك : «استبدلت فكرا بفكر، فتكون لدي مبدأ عصري على آخر طراز، قد ارتكز على الدين والعلم والسنة القويمة»(63) إن هذه الأقوال ذات أهمية كبيرة — في نظري — لأنها تلقي الأضواء على شخصية محمد المختار السوسي من حيث تعامله مع الحياة العصرية، التي لا يرفضها ككل ولكنه — في الوقت نفسه — لم يتبنّ كلّ مظاهرها (الملبس مثلا، كل أو جل زعماء الحركة الوطنية تخلصوا من اللباس الوطني، ولبسوا الاوربي)، ولم يَقْتَمِش قُماشَها كما فعل غيره من بعض رُواد الحركة الوطنية. أي انه حافظ على مظهره وعمقه الديني كمغربي مسلم. دون أن يؤدي به ذلك إلى التزمت الفكري. هذا من جهة. ومن

(56) انظر «حول مائدة الغذاء» المختار السوسي ص 90 وما بعدها وكذلك، «طاقة ريحان من روضة الافنان» لنفس المؤلف. ص 10 وما بعدها.
(57) الالغيات ج1، ص 59.
(58) الالغيات ج2، ص 225.
(59) الالغيات ج2، ص 226.
(60) الالغيات ج2، ص 226 — 227.
(61) الالغيات ج2، ص 225 — 226.
(62) الالغيات ج2، ص 225.
(63) الالغيات ج2، ص 226.

جهة أخرى فإن الاقوال المذكورة أعلاه، يمكن أن نشتم منها نوعا من النقد لسلوك بعض رفاقه الأوائل في الحركة الوطنية، وخصوصا أولئك المتواجدين في فاس. (لأن هذه الأقوال كتبها حينما كان يتحدث عن مقامه في فاس). والذين تعاملوا ــ على ما يبدو ــ مع الحياة العصرية تعاملا آخر ربما أدى إلى المس ببعض المقومات الدينية. وهذا ما لم يستسغه السوسي ابن الزاوية. وقد يكون هذا الاختلاف في وجهات النظر ــ في هذا المجال ــ من بين الأسباب التي خلقت لديه نوعا من التحفظ من الذين يمارسون العمل السياسي بشكله العصري، واختار هو ممارسة «**الفكرة الوطنية المتركزة على الدين والأخلاق السامية**»(64). ومع ذلك فإنه لم يقطع الصلة معهم، بل يبدو أنه كان محركا أساسيا في هذا المجال (خصوصا في مراكش). كما سنرى، ولكنه اختار أن يقوم بذلك من موقع أسْدل عليه هو كثيرا من الظلال، حُوِّلَت فيما بعد إلى ستار قاتم طمس دوره الخطير في مجال السياسة والتكوين السياسي، حتى أن بعضهم ــ ممن يعرفون كل ما قام به من أعمال جليلة ــ تجرأ وقال عنه : «إن فلانا (يعني المختار السوسي) إنما هو فقيه الجرومية»(65).

ثالثا : إذا كان محمد المختار يستغل كل فرصة سانحة ليتبرأ من السياسة ومن العمل السياسي، ويؤكد دائما أنه «رجل العلم لا رجل السياسة»(66) فإننا نشك في مايزعمه. وستكون حجتنا في ذلك هي بعض ما عثرنا عليه من عبارات وردت في كتبه. رغم أننا لم نستقصيها كلَّها. وسنضيف بعد ايراد هذه الأقوال بعض الاستنتاجات.

وهذه أقوال محمد المختار :

ــ «... وقد **أسسنا** هناك (فاس) جمعيتين : الأولى جمعية الحماسة [وهي جمعية ثقافية]. وقد اتخذني الأعضاء رئيسا لأنني أول من دعا إلى ذلك(...). والثانية جمعية سياسية سرية، **أسسناها** في 12 رجب 1344 (1924ــ1925). (...) وقد كان لهذه الجمعية فروع...»(67).

---

(64) الالغيات ج2، ص 226.
(65) الالغيات ج1، ص 22.
(66) الالغيات ج1، ص 21 ــ 22 ــ 39 ــ 51.
(67) الالغيات ج2، ص 227.

ــ «فقد كنا نعمل أعمالا ما كنا نَقْدُرُها قدرَها ثم انكشف الغيب عن أنها من الأعمال الجسام (...) فما اسعد من عاش لربه ولشعبه، وما أحظى من لفظ نَفَسَه في الذي يُرضي به دينه وأمته»(68).

ــ وكتب معلقا على استنطاقه من قبل البياز خليفة باشا مراكش آنذاك، بعد أن نفى له كل علاقة مع عبد الله ابراهيم وعبد القادر حسن : «**الواقع انني معهم في جمعية سرية، ولكنهم يظهرون بالسياسة وأنا لازمت حالتي العلمية**، وقد دخل معنا أناس كمولاي أحمد المنجرة والعربي بنيس وآخرين، وكل هؤولاء كونوا أنفسهم بأنفسهم، **وان كان الناس إذ ذاك يقولون : إن فلانا كونهم. ومن هو فلان حتى يكون غيره ؟**»(69).

ــ «... وكان بيني وبين الأول (عبد القادر المسفيوي) فوق ذلك شيء آخر زائد، حتى إننا لكروح واحدة في جسمين، لا أخفي عنه ولا يخفي عني شيئا، **وقد دخل مع العاملين سرا** (...) فحين جمعتنا أيضا هذه الجامعة (أي العمل الوطني السري) ازداد بعضنا ببعض ثقة واعتمادا. فكنت بعد كلما تلاقينا أقول له ــ **وأنا وهو نرى ما نحن فيه من هذه الاجتماعات المتموجة من الشباب** ــ أتدري أنه لا بد لنا من يوم قَمْطَرِير ؟ وأن هذا كله، وان كان غالبُ ما نَجُول فيه دروسنا، لابد ان يناط بنا غدا، **بل يناط بي أنا على الخصوص** (لأنه هو المؤسس رغم أنه لايقولها تعففا). ولكن رأيي أن الانسان يجب عليه في أمثال هذه الظروف أن لا يُحنيَ هامته»(70).

ــ «... على أنني أتيقن من بعيد، منذ جعلت هدفي الوحيد هو نشر التعليم الصحيح، **وبَثُّ التفكير** في مراكش **بواسطته** انني مُبْغَضٌ مشنوء (...) فالمشتغل بهذا أشد عندهم ممن يشتغل **بصريح السياسة**. وانما قلت بصريح السياسة اتباعا للذي كان متعارفا عند الناس. وإلا فكل من يهتم بأي شيء مما يتعلق بمقومات الأمة كيفما كان **حتى الاهتمام بالجرومية مثلي** (إن محمد المختار لم ينسى هذه العبارة التي تدل على أكثر من معنى. وقد أشار إليها في أكثر من مكان في الالغيات بصفة خاصة). فإنه عند هؤلاء المستعمرين مشتغل بالسياسة»(71).

(68) الالغيات ج2، ص 233.
(69) الالغيات ج1، ص 21، الواقع أن قرائن كثيرة تثبت أنه كونهم. انظر تعليق 78.
(70) الالغيات ج1، ص 30.
(71) الالغيات ج1، ص 38.

ــ «... **فكنت** وأنا أريق الماء (في طريق النفي ــ في ويركان ؟) أتناول رسالة من الأخ علال كان كتبها لي بالامس جوابا عن شيء طلبته، وفيها تحريضي **وتشجيعي** على أن يندمج في الشباب كل المخلصين للوطنية...» [مزق الرسالة ودفنها خوفا من التفتيش](72).

ــ «... فلئن خفتم [والخطاب هنا موجه إلى المستعمرين] من انتشار الوطنية فإنها لا بد منتشرة **بي** وبغيري على رغم أنوفكم»(73).

وفي آخر الفصل الذي تحدث فيه عن منفاه، والذي أخذْتُ منه جل الأقوال المذكورة أعلاه، كتب ما يلي : «...**وأوجزت أيضا في أسباب أخرى، واغفلت بعضها عمدا إلى فرصة أخرى، لأن هناك خبايا في زوايا ندعها، والتاريخُ غيرُ المسجَّل الآن**»(74)

[هذه الفقرة تعتبر أكبر دليل على أن محمد المختار لم يقل كل شيء بخصوص دوره الحقيقي والخطير في النضال الوطني. ولو اطلعنا على كل الحقائق لانقلب كل ما هو متداول الآن عن الحركة الوطنية، ودور كل واحد ممن ينسبون إليها. ولتأكدنا بشكل لا يقبل أي جدال ان الخبايا الموجودة في الزاويا، ستطيح ــ لو عرفت ــ بكثير من الرؤوس المارقة التي اشتغلت أو لم تشتغل «بصريح السياسة»].

وحينما تحدث عن الضجة التي أحدثها الظهير الاستعماري (16 ماي 1930) [وهنا أشير فقط إلى أن الذين يسمون هذا الظهير المشؤوم بالظهير «البربري» يرتكبون عن قصد أو عن غير قصد، جريمة كبرى في حق كل الامازيغيين المغاربة. لأن الذين لا يعلمون ــ وما أكثرهم ــ يعتقدون أن هذا الظهير الاستعماري من صنع هؤلاء. مع أن الحقيقة هي عكس ذلك. بل أن أكبر ضحية لهذا الظهير هم الامازيغيون أولا وأخيرا. رغم أنهم حاربوه بكل قواهم، بل أنهم حاربوا الاستعمار منذ دخوله إلى ما بعد صدور هذا الظهير لأن مناطق سوس لم تضع السلاح مرغمة إلا حوالي 1934 رغم كل ذلك فإنهم يذكرون به دائما وكأنهم صانعوه].

أقول حينما تحدث عن الضجة التي أحدثها هذا الظهير ذكر أن التهامي المعروفي

(72) الالغيات ج1، ص 41.

(73) الالغيات ج1، ص 45.

(74) الالغيات ج1، ص 60.

(وكان كاتبا في إدارة المحافظة بمراكش) اقام المدينة وأقعدها بالدعاية الحارة لاعلان اللطيف ضد الظهير الجائر. وأضاف : «ولم يكن إلا أيام قليلة حتى قَفَّ الشَّعْرُ من الناس، وعزموا على فعل ما فعله اخوانهم من أهل الحواضر، ثم ارسلت إليه ادارة الشرطة، **فألزمته بالخروج في الحين من الحمراء، وقد كان جاء إليَّ قبل أن يقوم بذلك لأني أنا الذي شجعته**. فلما أُمر بمغادرة مراكش جاء إلي بسرعة بكثير من حَاجه ثم سافر في الحين. ومن أثناء هذا والعيون **تحوم حولي** لما لي مع(حول مائدة الغَدَاء. ص 7) المذكور من الاتصال الدراسي [الاتصال الدراسي هنا يغطي العلاقة الحقيقية. وهي العلاقة السياسية] لأنه يأخذ عني بعض الدروس **ويرافقني. وقد كنا اتفقنا معاً على أن يقوم هو بذلك الدور، كما اتفقنا مع الأخ العربي بنيس على أن يفرق مناشير في الموضوع. ففرقها سَحَر يوم فملأ بها المساجد وقباب الصالحين...**»(75).

سأختم هذه النقول التي تدل دلالة واضحة على أن محمد المختار لم يكن فقيه الاجرومية كما قيل عنه، بل قطبا من أقطاب الحركة العلمية والسياسية في المغرب كله، وفي الجنوب بصفة خاصة. وهذا دليل آخر أنقله من رسالة وجهها إليه صديقه الأول في فاس وهو مولاي الصديق العلوي. وهي منشورة بآخر كتاب مطبوع للمرحوم محمد المختار السوسي، تحت عنوان «ذكريات».

تقول الرسالة : «الأخ العزيز سيدي محمد المختار السوسي، غادرت (فاسا) **فغادرها قطب اجتماعات متواصلة الجهود، ما كانت لتكون لولاك**. ألم تكن أنت سبب الوصلة بين نشء متحفز للمعالي ناظر إلى بعيد.

ألم تكن أنت الذي دعوتنا إلى الاتحاد في المبدأ، فكان الغازي وعلال والكتاني وهذا العبد، ومكوار كحلقة مفرغة لا يدرى أين طرفاها. فإن ننس لا ننس جمعية «الحماسة» التي ترأسها، فندرس فيها ديوان الحماسة والسيرة النبوية، ثم كان ذلك هو السبب حتى حييت اللغة ونبغ الأخر علال وعرف الناس ما هي السيرة، ، انني لا أعترف لك عن غيري إلا بمثل ما أعترف لك به عن نفسي (...) يا من لا يصلح إلا لجمع القلوب على المنفعة العامة، ثم ينسى هو نفسه بينهم، فلا يظهر إلا بمقدار. (...)»(76).

---

(75) حول مائدة الغذاء ص 8.

(76) ذكريات ص 16.

وهذه شهادة أخرى من شخص معروف في مراكش بماضيه النضالي، هو عبد القادر حسن، تؤكد هي بدورها أن محمد المختار السوسي، كان وراء كل التنظيمات السياسية الأولى في مراكش سواء منها السرية أو ذات الطابع المجتمعي المحض في الظاهر.

يقول عبد القادر حسن : «**وعندما اتصلنا مثلا بالمختار السوسي اتسع نطاق عملنا لاندماجه في الحركة «الوطنية»**(77). وجوابا عن سؤال عن السنة التي تم فيها هذا الاتصال قال : «ما بين سنة 1935ـ1937، أي قبل نفيه، وان كان اتصالنا به، بدأ سنة 1934 عندما أسس «الزاوية الدرقاوية» بباب دكالة درب الزاوية، كما أسس في الوقت نفسه مدرسته. وأخذ يعطي بعض الدروس في كلية ابن يوسف ومسجد باب دكالة **وكنت أحضر بعض دروسه، وكنا ننظم سهرات في منزله قبل بروز الحركة الوطنية واتساعها، وكان يلح دائما ان يبقى في السر...**»(78).

تلك كانت بعض الاقتباسات والشهادات التي تثبت بشكل لا يتطرق إليه الشك أن محمد المختار السوسي كان هو المحرك الرئيسي للحركة الوطنية في مراكش(79)، رغم أنه حاول، بكثير من الحرص، أن يخفي نشاطه السياسي هذا، لا عن السلطات الاستعمارية واذنابها فحسب، بل حتى عن المغاربة الذين لم يعرفوه في ذلك الميدان. انه كان يتجنب الحديث عن أعماله السياسية ـــ عكس ما فعله غيره ممن قاموا بشيء أو لم يقوموا به ـــ وهذا لا يمكن شرحه إلا بشيء واحد، هو أن محمد

---

(77) انوال الثقافي، 19 يناير 85 ص 9.

(78) المرجع نفسه، ص 9. نشير هنا إلى أن عبد القادر حسن كان عمره لا يتجاوز العشرين حينما اتصل أول مرة بمحمد المختار السوسي. ويبدو أن عبد الله ابراهيم كان هو كذلك في سن رفيقه. أما محمد المختار، فقد تجاوز آنذاك الخامسة والثلاثين من عمره، وأصبح استاذا، وذا تجربة سابقة في تأسيس الجمعيات الثقافية والسياسية السرية (فاس). الا يمكن بعد هذا كله، واعتمادا على كلام عبد القادر حسن نفسه، أن نستنتج، وبكثير من الثقة، أن محمد المختار كون هؤلاء المناضلين، ودفع بهم ـــ وباتفاق ورضى الجميع ـــ إلى ممارسة السياسة الصريحة. في حين بقي هو في الظل ؟

إن نفي محمد المختار، والضجة التي أحدثها هذا النفي سواء على صعيد مدينة مراكش أو على صعيد الوطن كله، لدليل قاطع على أن للرجل دورا خطيرا في الحركة الثقافية والسياسية في مراكش. (انظر، مجلة «العلم» سلسلة مغرب 84 (خاص مراكش) عدد 2 دجنبر 1984، ص 21 ـــ 22).

(79) أثبت هذه الاقتباسات والشهادات داخل نص هذا المقال ـــ واستسمح القارىء على ذلك ـــ لسببين هما :

1 ـــ تمكين المهتم من التعرف عليها بسهولة أي دون تحميله عبء الرجوع إليها في مضانها.

2 ـــ درء كل شرح مغرض لما أقول، باستغلال جهل الناس بالنصوص التي أوردتها.

المختار كان ينظر إلى كل ما قام به في هذا المجال نظرة تختلف عن نظرة جل رواد الحركة الوطنية. فوطنيته من دينه، وليس دينه من وطنيته كما قال. وبما أن المومن لا يتبجح بتدينه، فإن محمد المختار تحاشى التبجح بأعماله الوطنية في ميدان السياسة، لأنه يعتبرها واجبا دينيا لا يقصد به إلا ارضاء ربه وضميره.

واعتقد أن هذا يكفي ردا على الذين يزعمون ــ عن سوء نية ــ أن محمد المختار السوسي لم يكن إلا فقيه الاجرومية(80). وأنه أصيب «بالفشل أو العجز الذاتي في ميدان العمل السياسي (...) هذا الإخفاق سيدفع بصاحبنا من جهته إلى «الهروب» والاحتماء بالعمل «الاكاديمي» في مجال التاريخ خصوصا»(81).

إن هذا الحكم السريع المغلف بكثير من العبارات المنمقة الجوفاء، على رجل كرس حياته كلها للعمل الوطني بشقيه : السياسي والثقافي ــ وهذان لا يمكن فصلهما في كل عمل سياسي حقيقي ــ إن هذا الحكم يخفي كثيرا من الخلفيات البئيسة لا مجال للتعرض لها هنا. ولنذكر فقط أن صاحب المقال المذكور اتهم محمد المختار السوسي بأن فكره : «لا يمكن أن يخرج عن حدود الافق الاستراتيجي ايديولوجيا وسياسيا للمؤسسة الرأسمالية الاستعمارية نفسها...». وقال عنه أيضا ــ في نفس المقال : «سيجد المختار نفسه يفكر تفكيرا فرنسيا رغم أنه بلغة عربية...»(82).

هذه الاتهامات التي لا تستند إلى أي اساس من الواقع نفثها صاحبها، لا لشيء إلا لأن السوسي كتب كل ما كتب عن سوس. وهكذا كُتب على محمد المختار أن يزعج الاستعمار في حياته، والاغرار في مماته. ولكنه اسدى خدمات جُلّى لوطنه وأمته، ستبقى خالدة في الصحف التاريخية، التي ستحفظ للاجيال الحاضرة واللاحقة من أبناء هذا الوطن المجيد، أحسن ذكرى عن زعيم المغرب الزاهد محمد المختار السوسي، رحمه الله آمين.

صدقي علي إزايكو

---

(80) انظر عند التعليق 65. نتوفر الآن على شهادات حية، من أصدقاء محمد المختار وتلاميذه، تثبت أنه تألم كثيرا حين وصف بهذا الوصف، الذي لا يعتبره قدحا في حد ذاته، ولكن لانه اعتبره ذا خلفيات تنم عن سوء نية، وحسد كبيرين.

(81) انظر مجلة «الثقافة الجديدة» عدد 22 السنة الخامسة (1981)، ص 129.

(82) المرجع السابق ص 124 ـــ 125.

شخصية المختار السوسي ما بين الدين والسياسة

عبد الغني أبو العزم

إن جرد المفردات اللغوية عند محمد المختار السوسي ودلالتها، يمكن أن يقودنا إلى عدة أبحاث ودراسات من شأنها أن تكشف عن جانب هام من المفاهيم التي كانت سائدة في فترة تاريخية، وهنا تكمن الأهمية البالغة لتراثه.

وأشير هنا فقط إلى جزء من هذه المفردات التي تشكل مركز اهتمامي كمشروع رؤية ومدخل لفكر محمد المختار السوسي : النقد — العروبة — الإسلام — المدينة — البادية — الزنا — الحلم — التصوف — العلم — السياسة — التعليم — الكتاب — الكتابة — النفي — الوطنية — الاستعمار — إلخ...

وما أقدمه كموضوع لهذه الندوة ما هو إلا خلاصة تتعلق بفترة النفي والاعتقال، وهذا الإختيار جاء لكون هذه الفترة تعد من أخصب مراحل حياة الرجل انتاجا وقد بلغ عدد مؤلفاته فيها أكثر من عشرين مؤلفا وبما تتضمنه من أجزاء، فهذه المرحلة بالنسبة إلي نقطة انطلاق، وطبعا لن أتناول كل مؤلفاته، بل سأقتصر فقط على الالغيات ومعتقل الصحراء، لأن هذا الانتاج الذي جاء على شكل مذكرات وشبه سيرة ذاتية يعكس صورا ومواقع ومفاهيم وشبكة من العلاقات لا حد لها يبرز محمد المختار السوسي من خلالها كقوة فاعلة تمس قضايا فكرية وسياسية واجتماعية لها علاقة مباشرة بالتاريخ المعاصر وبفترة محددة.

إن تجربة النفي والاعتقال عند محمد المختار السوسي، بقدر ما هي تجربة صوفية وخلوة واعتكاف وانعزال فهي في الوقت ذاته محاولة للاندماج بمحيط الاعتقال والاستفادة منه فكريا وعمليا، فهو من جهة مجال فسيح لاستمرار رسالته التعليمية

والتربوية ومن جهة أخرى مجال أوسع للتأمل والتذكار والكتابة والقراءة.

لقد كان النفي الذي استمر تسع سنوات في إلغ من 1936 إلى 1945 فرصة ثمينة في حياة الرجل ليسجل كل ذكرياته وخواطره وزفراته وآهاته، فتحولت الكتابة بذلك إلى مجال للاستغراق، كما أن الاعتقال الذي استمر سنة ونصف 1952 — 1954 كانت تتوزعه لحظات الخلوة والتصوف من جهة وساعات للتعليم والقراءة واعطاء الدروس لتأكيد الاستمرارية الوظيفية من جهة أخرى.

وهكذا فإن النفي كلحظة من لحظات الإكراه والضغط لم يترك له مجالا للاختيار، فولد من الإكراه والضغط المسلطين عليه بفعل إرادة خارجية إكراها وضغطا ذاتيا فرض عليه انضباطا علميا وممارسة نموذجية، فوجه نفسه إلى الاعتكاف والاستغراق في الكتابة.

وبذلك جاء النفي محطة انطلاق لمشروع ضخم أراد به محمد المختار السوسي أن يؤرخ لمنطقة سوس وأن يسجل في الوقت ذاته جانبا من الممارسة الوطنية، وقد أنجز فعلا جانبا هاما من هذا المشروع، وان كان قد توقف بعد النفي لانشغاله بمهام التدريس بعدما استقر من جديد بمراكش، وبعد اعتقاله سنة 1952 يجد نفسه مرة أخرى داخل الاستمرارية الوظيفية، وبذلك فإن حياة المعتقل لم تغير شيئا من عاداته ومن الاطار الذي حصر نفسه فيه، والأهداف التي خطط لها وسعى إلى تحقيقها وبلورتها خلال مراحل حياته، وهذا جانب جوهري في خطة محمد المختار السوسي، بارز في كل كتاباته.

لقد جاءت الإلغيات (مرحلة النفي بإلغ) تحت وطأة الغربة، غربة في مسقط الرأس وبين الأهل، وهذه أقسى حالات الغربة، وهذا ما كان يحكمها، فتشكلت صياغتها الأدبية سوانح من الاخوانيات ومن خوالج النفس ونوازي وما أحس به محمد المختار السوسي من ضيق وهم وكآبة، ولأن هناك ارادة عن سبق اصرار تحاول ابعاده عن المحيط الذي يود ايقاظه وتحول بينه وبين رسالته، ولقد عبر عن هذه الغربة تعبيرا مركزا ومباشرا بقوله : فخرجنا تلك العشية إلى إلغ فوجدتني غريبا عمن هم أهلي وأقاربي أجنبيا مبدأ وفكرا وخلقا.(1)، فهناك تفاوت بين ما هو ذاتي وموضوعي، وهذا التفاوت ناتج عن الأوضاع السائدة في القرية والتباعد الموجود بينها وبين المدينة، وان

(1) الإلغيات جـ I ص 5

ابن القرية قد انفتح على عالم آخر هو عالم المدينة، وأصبحت له رسالة فيه، ولم تكن الالغيات بأجزائها الثلاثة إلا تعبيرا عن هذا الشعور، وهذا عامل من عوامل خصوبتها فلم يكن الدافع إلى كتابتها مجرد الحنين إلى المدينة وما هو عليه من غربة كما يقول «إذا جاش بي تذكر اخواني بمراكش وزلزلني ما أنا فيه من الغربة بإلغ»(2) ولكنه أراد من خلال هذه الغربة أن يعود إلى إحياء نشأته وتربيته وأن ينظر إلى جو عائلته وأجواء شيوخه بإلغ بعد انقطاعه عنها مرحلة، وأن يعود كذلك إلى تاريخها وتاريخ سوس واشعاعه، وهو جزء من هذا الاشعاع.

واذا كان هذا هو اطار الالغيات فإن الأمر يختلف بالنسبة لمذكرات معتقل الصحراء، لأن الكتابة لم تكن هما إلا ما كان من القصائد التي أراد بها احياء شخصية الصوفي القابعة في أعماقه في خلوة تنجداد وما كتبه فيما بعد، وبعد سراحه المعلق، ولأن ما كان يهدف إليه هو مجرد شهادة تاريخية وقد أفصح عن ذلك بوضوح.

وهنا يمكن أن نطرح سؤالا أوليا لتحديد بعد هذه المداخلة، هل ما جاء في الإلغيات ما أجزاء ومعتقل الصحراء يمكن اعتباره سيرة ذاتية ؟ مع العلم أن كلا من التجربتين لها دوافعها النفسية والتاريخية. وهما معا يصبان في رافد واحد.

طبيعي أننا إذا أردنا أن نأخذ بالمقاييس والمعايير السائدة والمتعارف عليها في مجال النقد الأدبي فيما يخص السيرة الذاتية وعلى أنها هي كل ما يتصل بالفرد منذ الولادة وظروف نشأته وتربيته وما عاشه كاتبها من أحداث وما قام به من أدوار إلى الفترة الأخيرة من حياته وبشكل متناسق، ومن فترة إلى فترة، فإننا يمكن أن نستبعد فنيا ما كتبه في فترات الاعتقال والنفي من مجال السيرة الذاتية. ولكن ما لا يجب أن يغيب عن أذهاننا هو أن أغلب كتابات محمد المختار السوسي هي جوانب من فترات سيرته انطلاقا من كتاب «الترياق الحمداوي في أخبار الشيخ سيدي الحاج علي الدرقاوي» الذي تناول فيه سيرة والده وحياته الصوفية وتكوينه السلفي، مرورا من «أفواه الرجال» و«منية المتطلعين إلى من في الزاوية الالغية من المنقطعين» والذي تعرض فيه لأزيد من 170 شخصية من كانوا في صحبة الالغي وهم من بين أولائك الذين شكلوا رؤيته السلفية نسبيا وتربيته الاولى، هذا بالاضافة إلى تراجم أساتذته الحضريين

---

(2) نفس المرجع ص 5

وانتقاله إلى عالم المدينة، ووصولا إلى الالغيات ومعتقل الصحراء، وبذلك فإن كل هذه الكتابات التي أنجزها هي جوانب من سيرته الذاتية ومن خلالها يمكن أن نقف على مراحل حياته وأطوارها «وإن أحسن ترجمة وتلخيص لحياة محمد المختار السوسي هي قوله : «هذا العمل كله إنما هو ترجمة نفسي وقصة حياتي» عندما سئل عن سبب عدم كتابة ترجمة ذاتية له رغم أنه لم يترك أحدا من شخصيات منطقة (سوس) كان كبيرا أو صغيرا دون أن يترجم له»(3).

من هذه الزاوية يمكن أن نتعامل مع كتابات محمد المختار السوسي متجاوزين اشكالية مفهوم السيرة الذاتية، وعلى أن مؤلفاته هي محطات زمنية في فترات تتراوح ما بين الضيق والهدوء النسبي والخلوة والاحتداد والانفراج والأمل وخيبة الأمل.

ونحن في هذه الجلسة لن نقف إلا عند الكتابات المتعلقة بمحيط النفي والاعتقال مع العلم أن الفترة الفاصلة ما بين النفي 1936 ـــ 1945 والاعتقال تشكل امتدادا لما سبق وتفتح أبوابها لفصل آخر هو فصل الاعتقال، ومن هذه الوجهة يمكن أن نعتبر أن الالغيات ومذكرات معتقل الصحراء ما هي إلا محطة للتأمل، وفصلا من فصول السيرة الذاتية للمختار السوسي تتداخل فيها فترات تاريخية سابقة يندمج فيها المنظوم والمنثور ويتداخلان، وهنا أحب أن أشير فقط انه لو تمكنا من ترتيب القصائد الشعرية المتناثرة في كتبه ترتيبا زمنيا والتي صاغها حول أحداث الطفولة والشباب والأحداث السياسية وعلاقاته بالآخرين ورؤيته للأشياء وظروف النفي والاعتقال وما تخلل ذلك من مواضيع ومناسبات مختلفة لكنا أمام أول سيرة ذاتية شعرية في الأدب العربي على الاطلاق.

وأعتقد أن هذه هي إحدى القضايا التي تواجه الدارس والناقد الذي سوف ينكب على دراسة سيرة محمد المختار السوسي في محاولة لتصنيفها نظرا لتحطيمه للقوالب الفنية وغياب الترتيب المنهجي فهو لا يخضع إلا لعفويته وتلقائيته، ولأن ما كان يسعى إليه هو تسجيل وتصوير انفعالات اللحظة بما لها وما عليها مشحونة بمعلومات وأخبار، ليقدم مادته للباحثين الاجتماعيين(4) ولهذا فإن مقاييس الكتابة والمعايير الفنية تصطدم أحيانا بالطرق والتي اختارها للتعبير عما يريد إيصاله،

(3) بلكبير عبد الصمد محمد المختار السوسي. دروس حول الحركة السلفية منشورات الجامعة. السلسلة الفكرية 1.

(4) من أفوان الرجال جـ I ص 5

والالغيات ومذكرات الصحراء لم تشذ عن هذه القاعدة. وما هو جدير بالذكر أن محمدٌ المختار السوسي كان على وعي كامل بهذه الاشكالية، فلا غرابة أن يكون أول من يلفت النظر إليها عندما يؤكد بقوله : «والمقصود من كل ما يضمه الكتاب أن يكون صوانا للمذكرات ولكل ما سنح حولي هناك كيفما كان من الاخوانيات، وان لم تكن في أعين النقاد ثقيلة في الميزان، ومن خوالج النفس ونوازعها وما أحس به من ضيق»(5) هذا ما يقوله في الالغيات ويؤكده في معتقل الصحراء بقوله : «فما لا ينشرح له صدر الأديب فقد ينشرح له صدر المؤرخ»(6) ونفس الفكرة يكررها في الالغيات «ما لم يصلح للأديب يصلح للتاريخ» وهذا التعامل مع الكتابة واللحظة الآنية يجعل من الالغيات ومذكرات معتقل الصحراء وثيقة تاريخية يغلب عليها الجانب الأدبي لأن لغته لغة أدبية يتداخل فيها الشعر والنثر في آن واحد، ويركز على ما توحي به الساعة والحدث مستوحيا من التراث كل قيمه ونماذجه غير عابىء بالمنهجية والترتيب.

وهذا النوع من الكتابة هو ما كان يرتاح إليه صاحبنا ولهذا نجده يلح على توضيح هذا المنحى في مقدمة كتاب «من اخوان الرجال» بقوله «ان هذا المجموع الساذج المائع البسيط من جميع جهاته أفضل وأحلى وأغلى عندي من كل ما كتبته بعده»(7) وفي رأيي أن هذا الاختيار يتلاءم وبساطة الرجل ويخضع إلى منطق الأشياء عنده، هذا مع التأكيد على شعوره واحساسه ولعل هذا الجانب مع طبيعة تكوينه الصوفي هو ما ينبغي أخذه بعين الاعتبار ونحن نتناول كتابات محمد المختار السوسي سواء التاريخية منها أو الأدبية بالاضافة إلى ضرورة رصد الكوامن الداخلية والأهداف التي قادته إلى مجال الكتابة، ولأن ما كان يهمه هو تأريخ فترة معينة ومنطقة معينة عن طريق المذكرات وجمع المعلومات الميدانية، وهي تحمل في نهاية المطاف خطابا اجتماعيا وتاريخيا يهدف إلى اعطاء مادة خام للمؤرخ المعاصر ولعالم الاجتماع، وهذه المادة على أهمية كبيرة لأنها تؤرخ لمنطقة سوس من جهة ولمرحلة تاريخية من النضال الوطني والمنطقة والمرحلة هما معا يعيشان فقرا في مجال الكتابة والتعريف فجاءت الكتابة عن المنطقة اضافة فنية إلى التاريخ المغربي. أما الكتابة عن المرحلة فلقد تميزت باكتشاف

(5) الإلغيات جـ III ص 3

(6) معتقل الصحراء ص 5 ونفس الفكرة يرددها في الإلغيات ص 224 جـ 1.

(7) من أفوان الرجال جـ I ص 5

أصناف الرجال الذين قادوا معركة النضال الوطني ايديولوجيا وتنظيميا وخلقيا، وهذا ما نكتشفه من خلال التراجم والحكايات والمواقف التي قام بها محمد المختار السوسي بجردها ونقلها بأمانة لا يشك في نزاهتها وإخلاصها.

وكخلاصة أدبية يمكن القول أن مذكرات الالغيات جاءت تكشف عن نشأة الكاتب وتربيته وتكوينه وثقافته وعن الأجواء التي كان يعيش بداخلها والرجال الذين تعرف عليهم، بالاضافة إلى علاقته بالمدينة وقد ألقى بذلك أضواء على فترة تاريخية هامة من مراحل تكون الوعي الوطني منذ تأسيس أول جمعية سياسية سنة **1924** والتي كان رئيسها أصغر عضو فيها هو علال الفاسي(8) ومما لا شك فيه أن هذه الجمعية كانت هي النواة الأولى للحركة الوطنية بالاضافة إلى تسجيل أحداث الصراع في الثلاثينيات بمراكش مع السلطات الاستعمارية وباشا المدينة.

أما مذكرات معتقل الصحراء فهي تمثل منحى آخر كفصل مكمل لسيرته الذاتية، فهي تؤرخ لفترة تاريخية قصيرة جدا (سنة ونصف) إلا أنها غنية برموزها وما حملته من مفاجآت، ولأنها شكلت انعطافا في حياتنا السياسية، وحددت ملامح شخصيات تحملت المسؤولية الوطنية في البناء الوطني مباشرة بعد فترة الاعتقال.

وهكذا فإن الالغيات ومذكرات معتقل الصحراء قد استطاعت بعفويتها أن تكشف عن عدة جوانب من شخصية محمد المختار السوسي :

— جانب الشخصية العلمية وتمرسها بالعمل الوطني /ميلاد الفقيه الملتزم.

— الجانب الثقافي والتعليمي ومستواه في كل من إلغ ومراكش وفاس والرباط.

— جانب المصادر العلمية والتعليمية والأدبية.

— الجانب السياسي وتكون ملامح الوعي الوطني.

— الجانب الخلقي والاجتماعي واهتمامات رجالات المرحلة.

وهذه الجوانب التي نجدها في الالغيات ومذكرات معتقل الصحراء تعكس واقع الحال لمن عاش في تلك المرحلة وتتداخل فيما بينها، وهي لا تقف فقط عند مفاهيم وعقلية صاحب السيرة بل تتعداه لتنقل إلينا المناخ العام الذي كان سائدا في مسقط

---

(8) الإلغيات جـ II ص 227 — جـ I ص 197

رأسه بإلغ والذي تحول إلى منفاه، وما كان يروج فيه من أدبيات ومحادثات ومجالسات وكرامات وهي بعيدة عن اشعاعات هذا العصر(9) والعينات والمفاهيم التي كانت سائدة في حيز الاعتقال بتنجداد وأغبالو كردوس، بالاضافة إلى إلقاء الضوء على سلوك وممارسة وأخلاق المعتقلين، وكأنه يؤكد على أن فهم معطيات مرحلة تاريخية في ضوء الصراع لا يقف عند حدود المبادىء والمثل العليا والأفكار المعلن عنها في عموميتها وتجريدها، بل يرتبط ارتباطا وثيقا بفهم رموزها وسلوك شخصياتها وأعتقد أن هذا الجانب الحي الذي تقدمه الالغيات بطريقة غير ضمنية وتقف عنده مذكرات معتقل الصحراء وتشخص الحالات مع اشارات ناطقة وبدون تعرية وافتضاح، وهذا ما يشكل اضاءة لمن يريد أن يؤرخ لمرحلة النضال الوطني، وعندما يصل بالتحديد إلى الفترة التي تناولها محمد المختار السوسي في مذكراته.

من الطبيعي في أية سيرة ذاتية ان كاتبها يشكل أحد الرموز البارزة وهو المثال والقدوة أو هو على الأقل يتحدث عما ينبغي أن يكون عليه البطل كنموذج، والعلاقات وطبيعة المجتمع المراد تأسيسه.

فكيف استطاع محمد المختار السوسي أن يصور ذلك من خلال بعض جوانب سيرته الذاتية بالقياس إلى ما هو متعارف عليه في مجال السير والهدف المتوخى منها ؟

إن من مميزات هذه الشخصية وكما تبدو في كل صفحة من صفحات مؤلفاته هي التواضع الذي قمنا بجرده واحصائه تختلف طبيعته في مجال العلم والدين عن مجال السياسة، وأعتقد أن المقارنة بين المجالين ضرورية لتوضيح معالم شخصية صاحبنا.

ان السياق العام لفكر محمد المختار السوسي وقابليته للتطور نحو ما هو عصري في حدود المرحلة وخروجه شيئا فشيئا — ولو كان ذلك بشكل بطيء — من محيط الزاوية جعله يلتقي مع أهداف أبناء الحركة السلفية لتأسيس أرضية جديدة على قاعدة اسلامية فكريا وثقافيا من أجل التحرر والانعتاق وبناء المجتمع الاسلامي الصالح، وهذا التوجه هو ما كان يحدد طبيعة عمله وفكره.

وفي أي سيرة ذاتية فإن أهم ما نقدمه هو محاولة الوقوف على مدى توافق الشخصية مع التوجه العام والمبادىء التي تقوده. فما هي اذا ملامح هذه الشخصية ؟

---

(9) الإلغيات جـ I ص 3

ان السمة الرئيسية لشخصية محمد المختار السوسي هي سمة دينية علمية تصوفية وتبرز من خلالها صفة الفقيه البطل النموذج والمطيع لأوامر ربه والمنفذ لشعائر الشرع حرفيا والحارس على أوقات الصلاة في الشدة كما في الرخاء، واذا كانت هناك ارادة خارجية تحول دون ذلك فهو يؤيدها بقلبه، وهو المحافظ على تلاوة الحزب في الصباح الباكر وفي المساء والناهي عن ارتكاب الموبقات، وهو ان عرف خضوعا «فللأقدار التي لا مرد لقضائها» «فيا لله ولحوادث هذا الدهر ويا للصبر الجميل»(10) وعندما تتعقد الأمور فإن الخلوة ومناجاة الروح هي ملجأ كل الفقراء المغلوبين على أمرهم والذين يشعرون بأنهم يحملون مسؤولية الحفاظ على السنة وتراث السلف الصالح والمعاملات، وهذا شأن محمد المختار السوسي، وهو في هذا المجال قليلا ما يعرف معنى للتواضع لأنه يحس بثقل تأثيره كشخصية فذة، ويعمل على تقويتها وترسيخها بالرؤى والحلم والكرامات سواء تلك الصادرة عنه أو المستقاة من شيوخه أو من والده كاستمرار لسلطته الروحية والأدبية، وهذا ما يعكسه بقوله «وكانت السنتان الأخيرتان بسوس فأحييت منه ما كان ميتا وبعثت منه ما كان مرموسا». وهكذا يصبح عمله السياسي والاجتماعي وما يفرزه من ارهاصات وضغوطات واكراهات ونفي واعتقال عناصر اضافية في ميزان الفقيه البطل النموذج لتثبيت أقدامه في مجال التأليف. وهذا ما نشعر به في كل أجزاء الالغيات التي أراد بها أن يرسخ صورة الفقيه الذي يكرس حياته لعبادة خالقه والعمل على توفير المناخ الملائم لهذه العبادة وهذا المناخ الذي يريد توفيره هو ما قاده إلى العمل السياسي والاجتماعي والثقافي وأدى به إلى النفي والاعتقال فهو ان كان يضيق من جو الارهاب فإن ذلك لم يفقده ايمانه بالقضية فهو كما يقول «فإن هذا النفي ان استرجعته فيه جنة لا نفي ومدرسة داخلية لا قفر خال وفقنا الله لذلك»(12) وتكثر التصورات وتتوالد وتتواتر وتتداخل فيما بينها في فترة النفي، إلا أن التصور الذي يبرز إلى السطح هو أن هناك قدرة إلهية اختارت له هذا المنحى، فإذا هناك اصطفاء وعناية ربانية ويعبر عن ذلك بقوله «فقد أتيت بعبدك هذا إلى إلغ فكان ذلك منك سببا عجيبا فانطت به صفحات أخرى من الأعمال لم يكن يأملها ولايحلم بها حتى غار أناس آخرون وتمنوا أن لو كانوا هم المنفيين ليكتسبوا ما نفسوه

---

(10) الإلغيات جـ I ص 5 — جـ I ص 7

(11) الإلغيات جـ II ص 231

(12) الإلغيات جـ II ص 231

على من أصبح منفيا»(13) فما وصل إليه مكتوب في اللوح المحفوظ، وهذه القناعة فوق انها دينية وقدرية فهي تتضمن أمثولة واصطفاء واختيارا والخير فيما اختاره الله للمختار، وحتى اسم المختار كان هو أول من سمى بهذا الاسم في قبيلته (14) وقد ذاع بعده، وهذا الاصطفاء مصحوب بالعناية الالهية وهو يوضح ذلك بقوله «ولولا عناية الله به لكان في أحد مسارب المياه في منفى حقيقي وبيده مسحاة أو فأس»(15).

ونستنتج من الالغيات ومذكرات معتقل الصحراء أننا لسنا أمام شخصية عادية بل شخصية ترتقى عن غيرها ولها دور تاريخي لا بد أن تلعبه إلا أن الاشكالية المطروحة على الدور التاريخي تبرز حدتها عندما يتداخل الدور الديني بالدور السياسي، وهل الدوران متساويان يسيران بدون تعارض أو أن أحدهما يكمل الآخر أو أن العلاقة بينهما حميمية اندماجية أو أنهما يسيران في خطين متعارضين.

من حيث عمق الأشياء في فكر محمد المختار السوسي وموقفه، فلقد اختار أن يخدم دينه أولا ومبادىء الحزب ثانيا(16)، مبادىء الحزب بمعنى خدمة الوطن وتخليصه من الاحتلال والذل والمهانة فهناك تراتبية لا مفر من الخضوع لها، وهي تخضع إلى ظروف النشأة والتكوين وهذا شيء طبيعي من شخصية في مستوى محمد المختار السوسي، وهذا التفضيل يخضع لجدلية حددها مسار فكره.

إلا أن طبيعة هذه الجدلية وتصريفها هي التي طرحت عليه اشكالات كبيرة وهو يمارس عمله العلمي والتربوي الذي قاده ضمنيا إلى العمل السياسي. ومن خلال هذه الممارسة نجده يصطدم بالسلطات الاستعمارية فما أوقعه بالضرورة في حبال العمل السياسي مرغما مع العلم أنه اختار مع شلة من الاخوان بفاس أن يؤسس جمعية سرية سياسية في مرحلة مبكرة كما أشرنا إلى ذلك سابقا، فهذا التوتب يختفي في كتاباته ويرفض الافصاح عنه إلى درجة ينكر فيها اشتغاله بالسياسة لأنه لم يخلق زعيما وكما يعبر عن ذلك بقوله «ولو كانت عزيمة المختار عزيمة صلبة لكان أحد الزعماء الذين

(13) الإلغيات جـ II ص 210

(14) الإلغيات جـ II ص 214

(15) الإلغيات جـ II ص 210

(16) معتقل الصحراء ص 20

يدوى بهم المغرب كله حقيقة ولكن لم يخلق المختار زعيما»(17). ولكونه لم يكن يشعر بداخله بروح الزعامة ظل متشبثا بالسرية الكاملة فيما يخص علاقاته السياسية وهو في هذه النقطة يظهر تواضعا لا حدود له. وهذه الميزة تشكلت على قاعدة عدم تضخيم الحدث واعطاء لكل حدث حجمه الحقيقي، وهكذا ظل محمد المختار السوسي يؤكد أنه مجرد شخصية تحت الظل وان لا علاقة له بالسياسة المباشرة وانه ذنب من أذناب الوطنيين(18) وكان يظهر عكس ما كان يفعل في هذا الصدد ويبدو تواضعه أحيانا اسفافا إلى درجة الحضيض وأنه لا شيء، ويتعجب لكون أنظار المستعمرين تشير إليه بالأصابع وتراقب دروسه ويتعقبه الجواسيس أينما حل وارتحل وهو مجرد رجل علم لا رجل سياسة، ولتوضيح هذا الجانب بما فيه الكفاية ننقل هذه الواقعة لما لها من دلالة وهو يرويها كما يلي :

عندما أرسله جلالة الملك في وفد إلى تونس عالم 1367هـ للحضور في مؤتمر الحرمين الشريفين تحت رئاسة ابن غبريط الذي قال بعدما تأنس به أهكذا أنت فما كنت أظنك إلا زعيما سياسيا منذ رأيت الفرنسيين يأبون كل الاباء أن تكون عضوا في الوفد والملك يلح حتى قال لهم انني لا أوافق على ذهاب الوفد إذا لم يذهب فلان وحين رأيتك الآن ساكن النامة تعجبت في غلطهم(19). هذه الواقعة تطرح كثيرا من التساؤلات حول طبيعة الدور الذي كان يلعبه الرجل في الحقل الوطني وتكشف عن الغموض الذي كان يحيط بشخصيته وهو يحاول أن يبعد عنه أية شبهة في مجال عمله السياسي وقد استطاع ايهام رجل دولة وبأنه مجرد فقيه، هل الموقف الفرنسي كان موقفا اعتباطيا إلى هذه الدرجة ؟ ويمكن أن نفتح أقواسا حول هذه النقطة، ألم تكن هناك علاقة تنظيمية سياسية على مستوى عال يشكل محمد المختار السوسي أحد خيوطها مع أخذ بعين الاعتبار ما كان يقوله بأن مهمته علمية وكانت تنحصر في القاء الخطب في المجتمعات بدار الباشا فيسوء ذلك المستعمرين(20) بجانب الدعوة إلى تأسيس المدارس الحرة، مدارس ابن دغدغ ومدرسة ابن جرير ومدرسة العيادى ومدرسة في درعة وفي تلوات وتاليوين ومسفيوة ؟

(17) الإلغيات جـ I ص 29

(18) معتقل الصحراء ص 9

(19) نفس المرجع ص 11

(20) نفس المرجع ص 11

انه لمن الصعب تحديد إجابة دقيقة عن طبيعة التزامه السياسي، وهذه المسألة لها علاقة بحدود فهمه للدور السياسي الذي ينبغي أن يلعبه العالم وأين تقف حدوده ؟

مع العلم أن هذا الدور حاول أكثر من مرة أن يوضحه بما فيه الكفاية وفي كل مناسبة مؤكدا على أن ممارسته السياسية هي التزام علمي وخلقي، وهذه الممارسة هي بالنسبة إليه فريضة لأن الأمر يتعلق بمواجهة الاحتلال والقهر ويمس تطلعات الأمة وهويتها الوطنية والاسلامية واللغوية، وهو في هذه الحالة يندمج مع رموز الحركة الوطنية، لكن اندماج العالم لا اندماج رجل السياسة، وما يرويه من وقائع في هذا الصدد تفسر هذا البعد، وعلى سبيل المثال هذه الواقعة «عندما كان يسأله رئيس الشرطة الأهلية عن مولاي عبد الله ابراهيم وعبد القادر حسن وأشار عليه قال : أشير عليك ألا تصاحب بعد أحدا من هؤلاء المهيجين فقلت له هل يمكن لي وأنا في مركز عالم ديني أن أوصد بابي وجه من يقصدني بل ذلك للحكومة ذات الطول»(21) ويعلق المختار السوسي على الهامش بقوله : الواقع أنني معهم في جمعية سرية ولكنهم يظهرون السياسة وأنا لازمت حالتي العلمية.

إن الأمر يتطلب بحثا في دلالة الألفاظ من منظور قاموسه اللغوي لتحديد من جهة طبيعة التزامه السياسي وفهمه للدور السياسي الخاص بالفقيه من جهة أخرى. إلا أننا سنكتفي هنا بتطور الحدث والخبر فقط.

ومن خلال الخبر الذي أوردناه يتضح أن الرجل يقبل الالتزام السياسي داخل جمعية سرية ولكن بصفته العلمية لا غير، كما كان الشأن بفاس، فهناك فصل وتداخل وان كان من الصعب أن تقنع أحدا أنك تعمل سياسيا داخل جهاز حزبي بتوجهات ومنطلقات علمية وعلى أساس علاقة فقهية لرعاية الشباب والتزام التوجيه الديني كمرشد، ولكن نحن مرغمين من خلال النص أن نقر بأن هذه القناعة هي التي كانت توجهه وهو يؤكد عليها بقوله : «وان كنت لا أعدو أن أكون فقيها في الحزب لا زعيما من زعمائه»(22) إلا أن هذا الموقف لم يكن مقبولا، وكان بعض أعضاء الحزب يرفضونه ضمنيا فبقى الخلاف من مضمون الالتزام السياسي مستمرا مع الحفاظ على العلاقات الشكلية ومما يوضح هذا الاتجاه هذه الحادثة التي يرويها بعد

---

(21) الإلغيات جـ 1 ص 21

(22) الإلغيات جـ III ص 211

حفلات الاستقبال التي نظمتها أطر الحزب بفاس وهو يقدمها كما يلي : «وأستحضر أنني لم أمض كل ذلك الوقت إلا في المحادثة مع طلبة القرويين في دروسهم ومعلوماتهم وهل للمختار يا عباد الله إلا هذا الميدان الذي خلق له وبه عرف وبسببه نفته الحكومة وفيه ينوي أن يؤدي الواجب، وأتذكر أن بعضهم نبهني إلى أن أجول في محادثتي حول الحقل الوطني، ولا يدري أنني عمدا أهرب من أن ألج فيما ليس ميداني الخاص»(23).

هذه كانت حدود فهمه لطبيعة العمل السياسي ومن منطلق علمي وهنا يمكن أن نتساءل هل الحزب مؤسسة جامعية لها اختصاصات متعددة وكل أعضائه عليهم أن يلتزموا حدود معرفتهم ؟ وهل العمل الثقافي يتجاوز العمل السياسي ؟ أو هو أرضية لا بد من توفرها أولا ؟ وهل العلاقة وان كانت قائمة بينهما هي علاقة تدور حول نوعية الممارسة والتوجهات والأهداف ؟ إن الاشكالية المطروحة هنا ومن منظار المرحلة ليست في رفض الممارسة، ولكنها ممارسة من نوع آخر في اتجاه يخدم العمل السياسي على قاعدة التكوين العلمي وتهذيب النفس والتشبع بالروح العلمية، هذا مع الأخذ بعين الاعتبار طبيعة الشخصية التي نحن بصددها والتي ترفض الأضواء والشهرة والزعامة وتريد أن تعمل في الظل وفي إطارها العلمي، وهذا هو الشيء الذي لم يكن يظهره محمد المختار السوسي في البداية إلا أنه كان يعيشه داخليا، فبعد عودته من المنفى جاء شباب الحزب يهنئونه بالرجوع حاملين معهم باقة من الأزهار فعلق على ذلك بقوله : «وكم كتمت ضحكة في صدري في ساعة ولج علي فيها لفيف كثير من الشباب المراكشي من اخواننا الحزبيين يقدمون لي طاقة كبيرة من الأزهار على ما يعتاد في أمثال هذه المواقف مع العظماء الذين يراد تكريمهم من زعماء الحزب. فمثلت معهم الدور الذي تمليه الساعة علي، وهل مثل المختار المسكين الفقيه الوضيع المذنب ــ يا عباد الله ــ وهو الذي لا يتعالى إلى زعامة ولا إلى اقتناص شهرة تقدم له الطاقات من الأزهار هكذا»(24).

وأعتقد أن هذا الموقف هو الذي دفع زعيمنا الكبير علال الفاسي أن يقول عنه : «فلان انما هو فقيه الجرومية» وهذه الصفة لم تكن لتزعج اطلاقا المختار السوسي بل

(23) الإلغيات جـ III ص 212

(24) الإلغيات جـ III ص 215

هو يعقب عليها بقوله : «وكذلك أنا دائما ولا أزال على ذلك إلى الآن وافتخر به كل الافتخار»(25) وهو يتخذ موقفا موضوعيا في نفس السياق عندما ينظر إلى نفيه بإلغ والنفي إلى الكابون فيجد أن هناك بونا شاسعا ما بين النفيين ويعلق على ذلك بقوله : «فهناك سجين الكابون العزيز علينا واخوانه الزعماء هم الذين يجب أن يهتم بهم لأنهم رجالات المقاومة لا رجل الجرومية وقفا بذلك مثل المختار»(26).

وهذا الموقف هل يكشف عن مزاج خاص وعن فهم متميز للعمل السياسي أم هو خطة ونهج في الحياة ؟ أعتقد أن كل هذه العناصر لها نسبيتها في تشكيل موقف محمد المختار السوسي وهي تتداخل في آن واحد لتلتقي مع مزاجه وفهمه للعمل السياسي مما كون لديه نهجا متميزا يختلف عن نموذج رجال السياسة، وهذا ما يوضحه بلا لبس أو غموض بقوله : «حقيقة لم أكن وان كنت من حزب الاستقلال من أول يوم بذلك السياسي المتكلم الذي يفعل سرا ويعقد المجتمعات سرا ويستحلف الناس على الدخول في الأحزاب السياسية سرا ويخدم أمته خدمة السياسيين ويتطور مع الزمان ومع الأفكار تطور السياسيين ويحكم عواطفه وشعوره وصداقته وعداوته تحكيم السياسيين فيصادق على السياسة ويعادي على مبدئه في لم أكن أنا في هذا المسلاخ ولا خلقت له ولا أستطيع أن أتمشى فيه إلا قليلا، ولكني كعالم ديني يعلن مبدأه دائما ويجاهر به في المنتديات»(27).

ويمكن بطبيعة الحال أن نذهب بعيدا في التأويل وطرح التساؤلات عن خلفيات هذا الموقف، هل يحمل في طياته صدمة سياسية أو خلافات سياسية في مرحلة معينة حول شيء ما ؟

لقد رفض محمد المختار السوسي أن يفصح عن ذلك نظرا لطبيعة المرحلة التي كانت تفرض تغليب التناقض الرئيسي على ما هو ثانوي فلم يكن يفكر إلا في تقوية جبهة النضال الوطني ضد العدو المشترك الاحتلال الفرنسي، ولأن هذا هو همه الأول والأخير.

هذا مما لا شك فيه إلا أن ذلك لا ينبغي أن يحول دون الكشف عن طبيعة

---

(25) الإلغيات جـ I ص 22

(26) الإلغيات جـ II ص 48

(27) الإلغيات جـ III ص 206

التناقضات التي كانت سائدة داخل الحركة الوطنية، وهذا جانب آخر من البحث، لأن ما يهمنا الآن هو الوقوف على تطور الوعي السياسي عند المختار السوسي.

عندما تعكر الجو ما بين القصر والباشا الكلاوي والمستعمرين اختار المختار السوسي صف الحركة الوطنية بلباس المتصوف، ويعلق على هذا الاختيار بقوله : «لقد كتب لي أن أمثل هذا الدور الذي دفعتني إليه الأقدار وإن لم أكن إلا مطلق فرد من أفراد شعب لا في العير ولا في النفير ورحم الله من عرف قدره ولم يجاوز طوره»(28) هذا التواضع الذي نعود إليه يخفي وراءه دوره السياسي إلى حد الاندثار ويؤكد عليه في كل أطواره وعندما استقر به المقام بالبيضاء وبعد مغادرة مراكش هاربا من قمع محتمل اشتغل بالتدريس العام في المساجد ولاحقه الجواسيس والأسئلة والاستنطاقات حول نشاطه ومحتوى دروسه وهو الذي كان يعتبر نفسه كما يقول محروما من أدوات الزعامة وقيادة السياسة : «فلم يبق لي إلا أن أكون طويلبا يؤدي ما استطاع مهمة الطلبه»(29). وبعد استنطاقه مرة علق على ذلك «هذا كله يفعل مع مشار الذي ليس له لا نقير ولا قطمير إلا في ميادين التعليم العام ولكن الفرنسيين أعرف بما يهددهم ويجتث ما يستتبثون»(30) ونضيف إلى هذا التواضع الجم قوله : «أنا الذي لا أكون في السياسيين إلا تابعا منقادا وجنديا مطيعا»(31) ويستمر المختار السوسي في اذابة شخصيته تواضعا وانكارا للذات بعد نفيه وقضائه سنة ونصف رهن الاعتقال، وبعد الاعلان عن سراحه يتساءل قائلا : «ولا أدري الآن ما هو السبب الحقيقي في نفيي» إلا أنه يضيف مستدركا «فإن لم يكن إلا فكري الخاص أفذالك من العدالة وأنا أشعر بأني مظلوم وتشعر مثل شعوري آلاف أمثالي»(32) إلا أن الاستغراب يقف عند حدود وعيه بقيمة فكره الخاص مع شعوره بالظلم وعلى أن يقهر الانسان من أجل ذلك وفي وطنه.

ولفهم شخصية المختار السوسي وفهم سياق هذا التواضع الجم في مجال العمل السياسي يجب ربطه بروح التصوف الذي كان يغمره وعندما يلتجىء إلى أمثال من

---

(28) معتقل الصحراء ص 16

(29) نفس المرجع ص 17

(30) نفس المرجع ص 18

(31) نفس المرجع ص 20

(32) نفس المرجع ص 225

القاموس اللغوي القديم لتأكيد تواضعه : « ليس لي لا في العير ولا في النفير» «ليس له لا نقير ولا قطمير» «رحم الله من عرف قدره ولم يجاوز طوره»، هذا بالاضافة إلى أسماء التصغير مثل طويلب وصفات أخرى «تابعا ومنقادا ومطيعا» وكل هذه الأمثال والصفات التي حاول أن يؤكد بها صفة العبد الضعيف الذي لا خيار له إلا ما اختاره الله، ترتبط ارتباطا صادقا بشخصيته، شخصية ابن الزاوية.

ويمكن للباحث أن يعمق البحث في هذا الاتجاه عن طبيعة هذه البنية اللغوية التي حددت رؤيته للأشياء والتي تشكلت على قاعدة ذهنية سلفية داخل بيئة دينية صوفية.

إن هذه البنية اللغوية لم تكن شكلية إنشائية بقدر ما كانت تنبع من قناعة ايديولوجية وتصورات خاصة لها ارتباط بالمعتقد كان يصعب الانفلات منه. ومن هذه الوجهة اختلطت عند محمد المختار السوسي السياسة بالاخلاق والعلم بالسياسة وما هو ثقافي وسياسي في آن واحد، وهذا ما يفسر عدم ارتمائه بالكامل في عالم السياسة، وكل خطواته التي كان يخطوها كانت على جانب من الحذر والتأني مع قناعته بأنها شر لا بد منه، ولقد حاول أن يفرز ذاته بعدم الانتماء لفظا فقط تحت ستار الفصل ما بين السياسة والعلم، إلا أن ممارسته الثقافية والعلمية أدت به حتما إلى مجال العمل السياسي، وبذلك تحولت السياسة عنده إلى واجب اخلاقي يتحمل نتائجه برضا وايمان صادق وقلب هادىء.

ومع كل نتائج ممارسته التي أدت إلى النفي والاعتقال ظل يؤكد على الفصل ما بين العمل السياسي والعمل الثقافي وأن الصفة العلمية في نظره هي التي كانت السبب في اعتقاله، وهذه الصفة ظلت هاجسه الأكبر وهي مرجعه الأول والأخير وهي التي حاول أن ينقلها إلى داخل المعتقل ويطورها ويكيفها حسب الظروف والملابسات المحيطة بأجوائه، وذلك بإشاعة جو التعليم وتنظيم الدروس والوعظ والارشاد والتشبث بالمعتقد.

وظل متنبئا بأن تجربة الاعتقال ما هي إلا تجربة عابرة لشيء قادم أهم وأجدر، وكان يحاول أن يجعل من هذه التجربة نبراسا لتحمل المسؤولية القادمة ولم يكن يضخم أهوالها ومشاقها. وهنا يكمن فعلا جانب آخر من شخصية الرجل واحساسه بالمسؤولية العلمية لأن ما يعيشه في الاعتقال ما هو إلا مجرد عملية تأسيسية، وكل

تأسيس من المفروض أن يتمخض عن آلآم وأن التضحية من أجل ذلك واجب اخلاقي، وهذه القناعة التي كونت شخصية محمد المختار السوسي أديبا وعقائديا وسياسيا نجد صياغاتها وتعبيراتها في «الترياق الحمداوي» وفي «منية المتطلعين» وفي «من أفوان الرجال» ولم تكن الالغيات ومذكرات معتقل الصحراء إلا صدى فكريا وعمليا لتلك الكتابات السير التي انتجت :

I ــ إبناء من أبناء الزاوية.

II ــ فقيها متضلعا وعالما وكاتبا مستقصيا للحقيقة.

III ــ فقيها نموذجيا ملتزما ومرتبطا بالأصول.

IV ــ أبناء الحركة الوطنية السلفية.

وهذا الانتاج قد انعكس على كل مفاهيمه وسلوكه وممارسته وهو ما حاول بعفويته أن يجسده في سيرته في الالغيات وفي مذكرات معتقل الصحراء، وقد كشف عن ملامح شخصيته في كل أبعادها الأدبية والدينية والصوفية والسياسية، وهنا تكمن قيمتها الفنية لأنها نقلت تجربة حية معيشة، تجربة النفي وتجربة الاعتقال ومن خلال التجربتين استعرض طبيعة مرحلتين ثقافيا وسياسيا وتاريخيا وأوضح أوجه الصراع مع المستعمرين على قاعدة المواجهة. فشكل كل ذلك :

ــ اطلالة على فترة تاريخية نضالية، فترة الانتقال من مرحلة الاستعمار وأجوائها وأصدائها ومكوناتها الثقافية إلى مرحلة الاستقلال، ومن خلال السرد والحديث ظل الفرد حاضرا، إلا أن هذا الحضور كان بانكار الذات وسط الجماعة التي حشر معها وعلى أنه ليس في مستواها، وهو أقل خبرة سياسية من أفرادها ومجرد راو لأحداث عاشها في معتقل الصحراء أراد أن يسجلها ويعبر عما كان يخالجه في لحظات الفرح والحزن والخلوة مع وعيه الخاص بأنه كان ينجز مادة تاريخية فتكون لديه شعور بجسامة المسؤولية الأخلاقية ليؤرخ لمرحلته لم يتمكن من تسجيل تفاصيل أغلب الذين عاشوها إلا ما كان من محاولات معدودة، وبذلك يحق أن نقول إن ما كتبه محمد المختار السوسي عن فترة الاعتقال مثلا، يتصل اتصالا وثيقا بتاريخ معركة النضال الوطني ورموز هذا النضال على اختلاف تركيباتهم الاجتماعية والطبقية ومستواهم العلمي. ويمكن للمؤرخ أن يجد في كتاباته عناصر وأفكار وأخبار دقيقة بجانب كبيرة وأحداث بسيطة تتضمن دلالات بالغة لأخذ صورة عن :

I — مستوى النضج السياسي الذي كان سائدا في المرحلة.

II — البرنامج السياسي والثقافي.

III — التركيبة الاجتماعية والطبقية للأفراد المعتقلين وذهنياتهم.

IV — التناقضات البارزة والتناقضات المجمدة لحين.

وكل هذه المستويات تتداخل فيما بينها نظرا لطبيعة السرد ومنهج محمد المختار السياسي في الكتابة، ومن خلال حديثه عن الأفراد ومفاهيم نلاحظ وجود الفقيه والعالم والباحث والحرفي والتاجر والفلاح، كل وامكانياته وقدراته واستيعابه واستعداداته ثقافيا ودينيا، وقد حاول الكاتب أن يسلط الضوء على كل واحد في المعتقل مبرزا مزياه بشكل مباشر ونواقصه وهفواته بطريقة غير مباشرة وملمحا إليها أحيانا، وأحيانا يشير إليها عرضا.

ويمكن للباحث الاجتماعي بدوره أن يجد في الالغيات ومذكرات معتقل الصحراء مادته وله أن يتعامل معها كوحدة مستقلة أو وحدات متعددة الأبعاد.

التعليم ومحمد المختار السوسي

لن نقدم في هذا الجزء القصير إلا خلاصة للجرد الذي قمنا به لكلمة التعليم والتي نستنتج منها أن المهمة الرئيسية التي خلق من أجلها محمد المختار السوسي هي التعليم والتربية وتكوين الرجال، وكيفما كانت الظروف زمانا ومكانا، فأينما حل وارتحل يسرع إلى تكوين حلقات دراسية في المساجد والمعتقلات، ولم يكن المعتقل بالنسبة إليه إلا حلقة جديدة لاستمرار الدروس، وهو في هذا الصدد يخاطب نفسه «فلقد ادركت أيها المختار أهل دارك يدخلون الخلوة عن اختيار لتصفية نفوسهم فها هي هيئت لك الآن فاجتهد أن لا تحرم من فوائد فتخسر خسرانا عظيما»(33) فهنا نلمس استعدادا نفسيا للخلوة وأن الأقدار كما يقول قد «مالت به إلى خلوة صوفية ومصقلة روحية فلسفية»(34) وقد «أقر العزم على أن يغتنم هذه الفرصة التي قلما تتكرر في العمر»(35) وهذا الاستعداد الفطري الصوفي الذي يحمله معه منذ طفولته

(33) نفس المرجع ص 21

(34) نفس المرجع ص 31

(35) نفس المرجع ص 29

وشبابه اليانع يلح على صياغته أكثر من مرة، «فأقبل على شأنه اقبال من يعرف أن هذه فلتة العمر وقلما يتكرر مثلها»(36) وهكذا نستشف من كل عبارة من عباراته رجلا يتصوف في المعتقل فهو عندما يعمل على تصوير حالة من الحالات الطارئة أو حدثا عابرا أو تأملا ما نجد أن الصياغة الصوفية هي الطاغية على كل ما عداها، وهذا ما يبدو في كل منظومه الشعري لتلائمه مع ضرورة الخلوة، ولقد كان علي وعي كامل بهذا التوجه وأشار إليه بقوله «ولما كانت الخلوة صوفية فلقد غلب علي بعض ما قيل في ذلك روح صوفية»(37) وهذا التناسق والانسجام مع الذات هو أحد مميزات شخصية الرجل وحاول أن يعكس ذلك من خلال الممارسة ليوفق ما بين الالتزام الديني والالتزام السياسي، الدين في مظاهره الروحية والتسامي به مصطبغا بسمات صوفية، والسياسة في توجهاتها العملية والعلمية والرفع من مستوى العاملين في حقلها وقد أعطاها هيبة خاصة، وهو في هذا الصدد يستثمر الدين استثمارا كاملا في المجال السياسي ليتلاءم ذلك مع شخصيته في حدود ودون ادعاء ودون أن ينسى مهمته التعليمية التي يعتبرها أرضية أساسية كذلك للعمل السياسي وامتدادا له، ولم تكن الخلوة الصوفية إلا لتفتح أمامه مجال الاندماج بأهداف التعليم وبنفس الحماس وهو خارج المعتقل، ولم يقف حائلا دون أداء واجبه التعليمي.

وإذا كانت الخلوة تمتزج بالجانب الصوفي عنده إلى حد الذوبان فإن ذلك لم يكن ليحول دون اندماجه مع الجماعة بالمعتقل، وقد استطاع أن يوفق ما بين الأشياء المحيطة به ويتكيف تكيفا تاما مع الظرف والمكان.

وهكذا حول النفي إلى جنة في إلغ والمعتقل إلى خلوة وعمل، لا وزاوية من زوايا الصوفية(38) في تنجداد واغبالو كردوس، وقاده ذلك إلى التأليف والنظم وانجاز أضخم عمل فكري وتاريخي حول سوس وحول حياته ونشأته وتربيته.

ويمكن أن نقول أنه بقدر ما كان مهيأ للخلوة الصوفية بقدر ما كان مستعدا للاندماج بالآخرين في اطار الدرس والتحصيل، وأعتقد أن المجال الوحيد الذي لم يكن يظهر فيه تواضعا ما هو شعوره بأنه موهوب في ميدان التلقين والعطاء العلمي وان له

---

(36) نفس المرجع ص 31

(37) نفس المرجع ص 31

(38) نفس المرجع ص 195

القدرة على التأثير ومتمكن من طرق بيداغوجية خاصة به لتدليل الصعاب أمام المتعلمين وهو يقول في هذا الصدد «قد كنت أواخذ من بين يدي بالملاطفة وبالمساهلة حتى استأنسوا بالقراءة، وعندما تنازلت عن قواعد اللغة والتاريخ للأستاذ الكبير أبي المزايا مع تأفف تلاميذي عن ذلك، فلم أزل بهم حتى أقنعتهم بأنني أنا أيضا أريد أن أدرس أشياء أريد أن أتوفر عليها»(39) ويضيف قائلا «ولمعرفة الناس هنا بكلفي بالتعليم صار كل واحد يقترح علي درسا خاصا حتى الأستاذ الفاسي اقترح علي أن نمر بالقاموس كما اقترحه أيضا الأستاذ الكتاني ولكن القاموس لا أطيق تتبعه وما المسؤول فيه بأعلم من السائل»(40) وكذلك اقترح علي مصطفى المشرفي الولوع بكل استفادة أن أقرأ معه فنونا من النحو والتصريف واللغة والأدب كان يظنني دائرة معارف أو يظن أن وقتي متسعا لكل ذلك»(41) ويضيف مقارنا بينه وبين من يتعاطى التدريس في المعتقل ملمحا «ولذلك أجبت الحمدى على درس خاص يقترح أن لا ينقطع لزعمه أنه يستفيد منه كثيرا فكأنه سر بما حصله في التعريف وفي الأصول بعد أن كان افتتح مع أستاذ كبير «ارشاد الفحول» فلم يهتد ذلك الأستاذ مع معارفه الجمة إلى ما هو سر الصناعة في التعليم فأتيت الرجل توا من صميم العلم لا من مقدماته فتأثر بفهمه فذلك ما أراه يدفعه إلي»(42).

ومحمد المختار السوسي هنا واثق من نفسه ومن علمه ومن منهجه وهذا الوثوق يظهر في القسم التالي : «فوالله لو كان لي في هذا المعتقل رأي وحدي لخرجت في العربية هؤلاء تخريجا يضرب بهم المثل«(43).

وان هذا القسم من فقيه في مستوى إيمان المختار السوسي يكشف عن حرارة داخلية وتفاعل تام مع مهنة التعليم وأدواتها وطرقها فهذا الولع بالتعليم مكنه أن يستوعب فطريا طبيعة المتلقى فهنا بعكس المجال السياسي الذي يظهر فيه تواضعا تاما يعلن بأنه صاحب طاقة علمية وقدرة ومعرفة بيداغوجية تؤهله بسهولة بأن يصل إلى أذهان مستمعيه ويبلغ مراده، وهو بذلك واثق من نفسه وقدراته إلى درجة القسم

(39) نفس المرجع ص 198

(40) نفس المرجع ص 201

(41) نفس المرجع ص 201

(42) نفس المرجع ص 208

(43) نفس المرجع ص 208

بالله، وحسب التجربة والممارسة التعليمية فهو يشعر دائما بارتياح للنتائج المحصلة ويعبر عن ذلك برضى واطمئنان بقوله «ولكن أحمد الله إذ أن جميع الشباب هناك صاغيتي **وحدي** في التعليم لا يفتحون درسا عند غيري إلا باستشارتي فأجيبهم بلطف كيف شئت إلا الذين لازموني قد نالوا ما نالوا بعد شهور فتكونت لهم مكانة علم وادراك وقواعد ومعرفة الناس والرسوخ في التدين»(44).

هذه النتائج المعبر عنها بهذه الطريقة المباشرة تكشف عن جانب من جوانب الشخصية المعلمة المرتبطة بأهداف التعليم وممارسته ارتباطا وثيقا، وهو بالنسبة إليه المدخل الصحيح للوعي الوطني والممارسة السياسية والعمل الوطني.

إن التعليم بالنسبة إليه موهبة ومهنة واستعداد فطري والممارسة العلمية أخطر من الممارسة السياسية وهي التي تقود إليها وتفتح أبوابها وليس العكس، وان العمل السياسي بدوره يحتاج إلى حنكة وتجربة ومعرفة بمجريات الأمور ويعترف محمد المختار السوسي ضمنيا بأن علمه قاده إلى أجواء السياسة وان كان مرغما إلا أنه لم يكن يملك العزيمة والقوة والصلابة ليصل إلى درجة الزعامة أو بعبارة أخرى كما يقول : «لم يخلق زعيما، فهناك إذا تداخل وانفصال تداخل بفعل جدلية الأشياء والعلاقات وانفصال علم ضرورة توفر الحنكة والارادة والرغبة والعزيمة، وهذه هي الصفات التي كان يقر بأنه يفقدها في مجال السياسة فحرس على أن يبقى في اطاره العلمي ومن موقع فعاليته العلمية في جو السياسية دون أن ينساق كلية إليها، وهذا ما يفسر تواضعه السياسي وافتخاره العلمي والتأكيد على قدراته وطاقاته في هذا المجال ولكن دون أن يتخلى عن موقفه الوطني، ولم يظهر عليه أي نوع من التوتر أو التشنج، بل كان على العكس هادئا متصوفا في هدوئه في انتظار لحظة الفرج، وبذلك فإن الطابع الغالب على مذكراته في المنفى أو المعتقل هو الهدوء ومسايرة مجرى الأمور إلا أن هذه المسايرة تتضمن قناعة لا تشوبها شائبة بأنها تصب في اتجاه النصر وأن الرجل عائد لأولاده مهما تكالبت عليه الظروف، وهذه العودة ليست مجرد عودة أسير سيفرج عنه ليدخل في حياة عادية بل عودة منتصر يحلم بإعادة ترتيب البيت، وما يمكن أن نلاحظه في سيرة محمد المختار السوسي هو تضمنها لاشارات حول ما يجري خارج جدران معتقل الصحراء، وأن الجماعة المعتقلة ترتبط بذلك ارتباطا عضويا وتهتز لذلك

---

(44) نفس المرجع ص 209

كأنها هي التي تحركه وتسيره وتضبط أشكال نضاله، وهذا ما عبر عنه صاحبنا تعبيرا هادئا.

بدون غليان

لقد حاول محمد المختار السوسي أن يطلعنا على دواخل نفسه ولحظات الركون إلى الذات واظهار تجربته من خلال تجارب الآخرين في المعتقل ومن عاش معه تلك اللحظات التاريخية التي شكلت تحولا في الوعي السياسي الوطني، ولقد استطاع التوافق معهم على الرغم من التفاوت في المزاج والتكوين والنشأة والانتماء الطبقي والاجتماعي وعاشرهم واحتك بهم تعليميا وثقافيا ولم يصطدم بأحد، وحتى في لحظات التأزم والخلافات الداخلية كان يقف موقفا متعاليا محاولا أن يصلح ذات البين بين المتخاصمين أو المتصارعين، وفي نفسه ألم من ذلك وهو في ذلك يقول «كانت قبلتهم واحدة وكان فكرهم متحدا طوال الشهور التي قضيتها معهم منذ جئت إلى كردوس إلا أني أحسست بأن صفاتهم قد انصدعت وأنهم على فرقتين ثم صرت أسمع من تهجم بعضهم على بعض ما لا أحبه ولا يحبه كل من له غيرة على ذلك المجتمع، فكنت ابتعد ما شاء الله عن ذلك فأكون كأنني لاأرى ولا أسمع حتى اذا طفح السيل وامتلأت الكأس بما فيها حتى تدفق وجهر ما كان سرا مكنونا صرت أسر إلى المشتاكين كل على حدة نصحا في الاغضاء والاعراض عن القيل والقال حرصا أن لا يتسرب اضطرابنا إلى هذا المراقب الفرنسي الذي سيشمت بنا ان ألم ذلك بسمعه»(45).

وكما هو واضح من هذا الاستشهاد لم يكن محمد المختار السوسي داخل حلف من الأحلاف، وهذا ما كان يؤهله ليلعب دور المصلح والتخفيف من حدة التوتر ما أمكن، كما أنه لم يكن ضمن الفرق الفنية لأن وقار الشيخ كان يمنعه من المشاركة في سهرات الرقص والدفء والغناء، وكان يغض الطرف عن نوازع الجماعة ورغباتهم النفسية الجامحة وشهواتهم ولحظات تفريغ همومهم فهو إن كان يرفض أن يشاركهم في كل هذا لم يكن رقيبا ولا آمرا ولا ناهرا ولا ناهيا مع علمه بما يجري في السهرات والتي يعوضها بالصلاة والتعبد ومناجاة ربه منتظرا مرور لحظات ما يسميها بنشاط الشباب

(45) نفس المرجع ص 145

ليجدد الاتصال في اليوم التالي في حلقة الدرس والتفقه والتعلم.

وهذا التوافق بينه وبين أفراد المعتقل جعله في منأى عن المناوشات الطارئة وما تولده لحظات الغم والكرب ولم يجعل من ذلك سيئات أو كبائر، ولم يلعب دور الفقيه المتزمت، بل كان متفتحا وصدرا مفتوحا لكل الشكايات ويمكن أن نقول بأن مذكرات معتقل الصحراء والالغيات جاءت وهي جزء بسيط من سيرته الذاتية مشرقة ومتآنية وهادئة تحمل اعترافات نفسية مخلصة لنفسها وللآخرين، تواكب أحداث العمل الوطني ومن خلال تأملاته وتصوراته وابداعاته وقد قدم بذلك وثيقة تاريخية وأدبية ودينية وسياسية تطغى عليها الصبغة الأدبية والدينية ويتحكم فيها الصدق في تصوير الحدث، وحتى عندما يكون منفعلا دون استعلاء مع اختفاء الانا، لأن بطلها كان متميزا بسلوكه واخلاقه وانضباطه وورعه وبأسه، وأعتقد أن هذه الصفات مجتمعة هي احدى الشروط التي تفرضها السيرة الذاتية بجانب ما اتسم به من اعتدال وعدم التطرف والتأني في إصدار الأحكام، وان كانت بعض أحكامه المتعلقة بتقييم الآخرين فيها بعض المجاملة لأنه كان يتأفف من التجريح.

ويبقى في نهاية التحليل أن نتساءل عن القيمة النفسية للإلغيات ومذكرات معتقل الصحراء وهي كجانب من جوانب سيرته الذاتية.

إن أهم ما تتميز به هو انجازها في حيز زماني معين، المنفى إلغ، والمعتقل بتنجداد واغبالو كردوس، واعتمادها الصدق والأمانة وما تفتقده هو انعدام الترتيب وغياب تسلسل الأحداث والانتقال من موضوع إلى آخر دون ربط مما يجعل القارىء أو الباحث يضيع مع أفكار المؤلف، ويصعب عليها حصرها وعليه أن يقوم بترتيبها ووضعها في سياق الزمن لأن الذكريات فيها متقطعة مما يجعل هذا النوع من الكتابة يخرج إلى حد ما من سياق مفهوم السيرة الذاتية، ويصعب كذلك مع هذا التقطع ضبط تطور شخصية محمد المختار السوسي، ولأن من أهم قواعد السيرة الذاتية هو أن تأتي صورها مترابطة ومحكمة تحكمها وحدة متناسقة بناء وفكرا.

وبغض النظر عن الأفكار والصور والأحداث التي تأتي بشكل عارم إما دفعة واحدة أو متقطعة فإن الالغيات ومذكرات معتقل الصحراء كنوع من الكتابة يتميز به الكاتب فإنها تحتل مكانتها كصورة أدبية ومرآة لمرحلة من تاريخنا الأدبي والسياسي أرخ لها محمد المختار السوسي انطلاقا من وقائع عاشها وهي تجعلنا نتصل بتاريخ

معاصر حي بفعل معاناة الرجل نفسيا وخلقيا وفكريا، ولأنها تمدنا في الوقت نفسه بما طرأ على شخصيته من تطور وعلى ضوء مكوناتها سواء ما كان منها موروثا أو مكتسبا، والأفق الذي أراد أن يحدده لنفسه والرؤية التي كونها من خلال تعامله مع الآخرين وما كان يطمح إليه.

مدخل إلى قراءة ديوان «الرميليات» لمحمد المختار السوسي

محمد خليل

أنهى محمد المختار السوسي «مسيرة» طلب العلم خلال الربع الثاني من سنة 1929. فتوجه إلى مدينة «مراكش» في شهر يونيو من تلك السنة على نية الاستقرار بها، وكان مقامه بالزاوية الدرقاوية التي أنشأها والده الشيخ الحاج علي الدرقاوي الالغي(1) والواقعة بدرب الزاوية بحي الرميلة قبالة مسجد باب دكالة(2).

وفور حلوله بهذه الزاوية عمل على تحويلها إلى مدرسة تكون وسيلة القيام بواجبه في مجال «التدريس والتوجيه الديني والنضال الوطني، وخدمة التراث العلمي والثقافي لسوس خاصة وللوطن بصفة عامة»(3). ويبدو أن اختيار الشاعر الاقامة بمراكش يرجع إلى عدة أسباب منها :

1 ــ كونها مدينة عريقة لعبت أدوارا خالدة في مراحل مهمة ومشرقة من تاريخ المغرب الاسلامي.

2 ــ موقعها الجغرافي يعطيها أهمية كبرى بالنسبة للقسم الجنوبي من البلاد بصفة خاصة، ولباقي أنحاء الوطن على العموم، فهي نقطة التقاء عدة أقاليم كالحوز،

---

(1) ترجم له المختار السوسي في :
ــ المعسول 1 ــ 184 ــ 342.
ــ الترياق المداوي في أخبار الشيخ سيدي الحاج علي الدرقاوي.
ــ منية المتطلعين إلى من في الزاوية الالغية من الفقراء المنقطعين.
ــ من أفواه الرجال.

(2) يعتبر من أشهر مساجد مراكش في عهد السعديين على يد السيدة مسعودة الوزكيتية والدة أحمد المنصور السعدي

(3) محمد خليل (شعر محمد المختار السوسي ــ مخطوط) ص : 61

والشياظمة، وعبدة، وسوس، والصحراء الشرقية.

3 ــ كان إقليم سوس غير صالح ليتخذه الشاعر موطنا له يسهل عليه أداء الرسالة التي آل على نفسه القيام بها. فالمناطق الجبلية السوسية لا تزال ــ حينئذ ــ تخوض الحرب ضد الاستعمار، والظروف السياسية والاجتماعية، والاقتصادية، والفكرية، ليست على ما يرام، ذلك أنه بالاضافة إلى حالة الحرب هذه، هناك المجاعة التي ضربت الاقليم سنة 1926م.

4 ــ وجود زاوية والده بمراكش خفف عليه كثيراً من الأعباء، حيث اتخذها مسكنا له. ومقرا لمدرسته الآنفة الذكر، والتي كان أول فوج من تلاميذها يتكون من «صغار بعض إخوته، وبعض صبيان أسرته [...] فلم يكد جيران الزاوية يحسون فيها الحركة العلمية حتى صاروا يسوقون إليها أولادهم ثم صار غيرهم على إثرهم حتى أصبحت تلك الزاوية صورة مكبرة للزاوية الناصرية بفاس»(4) التي كان بها الشاعر أحد الأساتذة المتطوعين لما كان طالبا بجامعة القرويين(5). ثم توالى تدفق أفواج التلاميذ على المدرسة من مناطق عديدة خارج مراكش : كسوس، والصحراء، والشياظمة، وعبدة، والرحامنة. حيث تجاوز عددهم الثلاثمائة (300) في فترة وجيزة. وكان الشاعر يتولى شؤونهم المادية والمعنوية بما يوفره للوافدين من خارج المدينة : من مأوى ومأكل وملبس مستعينا في ذلك بنوعين من المداخيل :

1 ــ كان يتعاطى الفلاحة وتربية المواشي بالاشتراك مع فلاحين بمنطقتي السراغنة والرحامنة.

2 ــ كان يتصل بمجموعة من تجار المدينة الذين أكبروا في الشاعر تضحيته ونبل رسالته فكانوا يقدمون إليه بعض العون، ومنهم أفراد تعهدوا بتحمل نفقات تلميذ أو أكثر طيلة انتمائه إلى مدرسة الشاعر.

ومع مرور الزمن صار تلاميذ مدرسة «الرميلة» منقسمين إلى ثلاث طبقات هي :

1 ــ طبقة الصغار : وهم الذين يوجهون أولا إلى حفظ القرآن الكريم على أيدي طلبة يستقدمهم لهذا الغرض من سوس غالبا.

(4) محمد بن عبد الله الروداني : مقدمة كتاب (ايليغ قديما وحديثا) للمختار السوسي.

(5) محمد المختار السوسي : (الالغيات) : 2 ــ 227

2 ـ طبقة المبتدئين في علوم العربية : وهم الذين استوفوا حفظ القرآن الكريم إما في المدرسة نفسها، وإما في مكان آخر. وهؤلاء يتلقون مبادىء العلوم على أيدي تلاميذ الشاعر المتقدمين.

3 ـ طبقة المتقدمين : وهم الشبان الذين قطعوا أشواطا مهمة في تعلم العلوم على يديه، فصار عدد منهم يقفون في صف العلماء والأدباء، حيث يعد خريجوا مدرسة الرميلة والمنتمين إلى هذه الطبقة بالعشرات. وكان لعدد منهم ـ ولايزال ـ دور مهم في الحركة الأدبية والعلمية في المغرب، انطلاقا من سنوات الثلاثين(6). فنالت بذلك شهرة كبيرة ليس على صعيد مراكش فحسب، وإنما على الصعيد الوطني. إذ تميزت على الخصوص بمهرجانها الأدبي الأسبوعي المعروف (بسوق عكاض) والذي كان يقام مساء كل أربعاء. وهو مهرجان يخصص لإلقاء القصائد الشعرية التي جمعها الشاعر في ديوان (الرميليات). إضافة إلى النزهة الأسبوعية التي كان الشاعر ينظمها كل يوم جمعة، والتي يشارك فيها تلاميذه المنتمون إلى طبقة «المتقدمين» صحبة عدد من أصدقاء الشاعر من العلماء والأدباء والوطنيين من مراكش أو من الذين كانوا يفدون عليه من المدن الأخرى خاصة من الرباط وسلا وفاس. وكانت هذه النزه توحي بقصائد أدرج بعضها في هذا الديوان، وأدرج بعضها الآخر في أماكن أخرى.

فديوان الرميليات وصفه صاحبه بقوله : «مجموع قصائد ومقطعات كنت أخاطب بها تلاميذي أو أجيبهم بها إن خاطبوني بشعر، أو أقولها على ألسنة صغارهم تفاخراً(7). وتحدث عنه في مكان آخر بقوله : «وهو كتاب جمع فيه ما كان يصدر من أستاذ الرميلة نحو تلاميذه»(8).

وبقراءة أولى لهذا الديوان يتضح أن الشاعر كان يرمي من وراء هذه القصائد إلى تحقيق جملة من الأهداف منها :

---

(6) من خريجي مدرسة الرميلة من الأدباء السادة : محمد بن عبد الله الروداني، وإبراهيم الالغي، والحسن التناني، وعبد القادر حسن، ومحمد الوديع الآسفي، وأحمد الجوماري، ومحمد الدكالي.
ومن العلماء السادة : علي بن المعلم المراكشي، والحسين وجاج، وأحمد العدوي، ويمكن اعتبار الاستاذ عبد الله إبراهيم من تلاميذ الشاعر، لأنه كان يحضر دروسه، وإن لم يكن ذلك بصفة منتظمة.

(7) المختار السوسي : (المؤلفون السوسيون) ـ مخطوط.

(8) المختار السوسي : (الإلغيات. 3 ـ 138).

1 ــ استنهاض همم التلاميذ الناشئين، وترغيبهم للسير حثيثا في مدارج التحصيل والتعلم، ونشر روح المنافسة العلمية البريئة بينهم.

2 ــ بث الروح الوطنية في نفوسهم مبكرا حتى يشبوا على حب الوطن والعزم على النضال من أجل تحريره من الاستعمار المهيمن عليه.

3 ــ تقويم الاعوجاج الذي يلمسه في أفراد منهم : سلوكا، وتعلما، واجتهادا، والعمل على إصلاحهم بطريقة تربوية معينة تجعل التلميذ يعترف بذنبه، ويتعهد بالكف عما شغله عن دراسته أو انحراف به عن الطريق السوي.

4 ــ غرس وتنمية ذوقهم الأدبي، ورصيدهم اللغوي، اقتناعا منه بأن الشعر يعتبر وسيلة فعالة في التأثير على الآخرين، ولذلك حرص على رعاية مجموعة من تلاميذه الذين لاحظ فيهم ميلا إلى الأدب فتولاهم بالتوجيه والتشجيع حتى أظهر موهبتهم الشعرية فصقلها، ونماها، وصاروا في مستوى استطاعوا به فرض وجودهم في الساحة الأدبية خلال الخمسين سنة الأخيرة.

يبلغ عدد قصائد هذا الديوان(6) حوالي الخمسين، تكون في مجموعها رصيدا شعريا في أزيد من خمسين وسبعمائة بيت، ويمكن تصنيفها إلى قسمين :

1 ــ قصائد كان الشاعر يقولها على ألسنة تلاميذه.

2 ــ قصائد كان يخاطبهم بها.

1 ــ القســم الأول :

فالشاعر ينظم القصيدة على لسان التلميذ الذي يؤمر بحفظها، وشرحها وتحليلها حتى يتعرف على معناها لغويا وأدبيا، وكان التلاميذ يتسابقون ويتنافسون ليحظوا من أستاذهم بقصيدة من هذا النوع، لأنهم يعتبرونها مكافأة من الأستاذ للتلميذ، في الوقت الذي كان الأستاذ يعتبرها وسيلة تعليمية تثقيفية بالدرجة الأولى.

يشتغل التلاميذ طيلة الأسبوع بالقصيدة استعدادا لمجلس يوم الأربعاء. وعند حلول الموعد المحدد يتقدمون لالقاء قصائدهم أمام أساتذة وضيوف وتلاميذ المدرسة.

ويكون التلاميذ الذين يلقون «قصائدهم» في مجلس يوم الأربعاء مستعدين لمناقشة

(9) الديوان لا يزال مخطوطا بيد أن الشاعر أورد مجموعة مهمة من قصائده في كتابه : (الإلغيات : 3 ــ 145 ــ 165).

الحاضرين في «قصائدهم» من الناحيتين : اللغوية والأدبية، فعليهم أن يجيبوا الحاضرين عن أسئلتهم ويحاوروهم في معاني الابيات وفي القضايا اللغوية والفكرية التي تطرحها، وهنا تكون الدراسة التحضيرية التي يقومون بإعدادها قبل المثول أمام الحاضرين في المجلس ضرورية حتى يتهيأوا ويتأهلوا لمواجهتهم والرد على أسئلتهم الدقيقة والعميقة والمحرجة في كثير من الأحيان. سعيا إلى التعرف على مدى تقدمهم العلمي بصفة عامة، واللغوي الأدبي بصفة خاصة.

كان الشاعر ــ كما أسلفنا ــ يطلق على هذه الحلقات العلمية الأدبية «سوق عكاض» تيمنا بهذا الموسم الأدبي المعروف في العصر الجاهلي، والذي كان مناسبة لإلقاء الشعر، وتيمنا كذلك بالشعراء الجاهليين الذين كانوا يتبارون فيه حتى تسير تلك المواهب الفتية المتفتحة على سننهم فتصبح ذات شأن عظيم في عالم الأدب حينما تنضج وتتمرس وتعبد لنفسها الطريق في عالم الابداع الشعري.

بعثتْ هذه المجالس «أو الحلقات» الأسبوعية روح المنافسة في أوساط تلاميذ «الرميلة» فدفعت بهم إلى بذل المزيد من الجهد للتفوق في دراستهم رغبة في نيل قصيدة تشجيعية من أستاذهم. وكلما ظهر للأستاذ أن تلميذا بذل جهودا تقدم بها في التحصيل، وقطع أشواطا ملموسة في التعلم كافأه بقصيدة على لسانه. يفتخر فيها التلميذ بتفوقه على أقرانه في الدراسة، وامتيازه عنهم في السلوك والمواظبة. وهذه قصيدة على لسان تلميذه محمد البادوري المراكشي يستهلها الشاعر بالاشارة إلى أن التلميذ نال شرفا علميا، وغرف من بحر العلوم فنال فيها قصب السبق وتفوق على باقي أقرانه :

شرفت ومثلي بالمعارف يشرف ... ويكرع من بحر العلوم ويغرق
وجئت جوادا في الرهان مجليا ... وغيري بميدان الجهالات يقطف
طلعت على أفق النجابة مفردا ... أطل على الأقران منها وأشرف
ألم ترأني والسعود تحيط بي ... فتى فوقه بند المعاني يرفرف
خطوت إلى العلياء خطوة عارف ... درى كيف يجني في الشباب ويقطف
فأشرفت في المجد المؤثل يافعا ... ومن لم يشرفه الصبا كيف يشرف
فعزمي وحزمي واجتهادي وفكرتي ... بدور لأبصاري فقل كيف أعسف(10)

وبعد ذلك يرد على زملائه الذين يأخذون عليه بعض المآخذ ويتهكمون عليه عندما

(10) ديوان الرميليات، وتوجد كذلك في الالغيات : 3 ــ 146.

يقبع في بعض العثرات التي تستوجب تأديبه من قبل أستاذه :

فإني (البدوري) الذي تعرفونه ... فيا ويح قومي صحفوا اسمي وحرفوا
فإن زل حرف من لساني فكم وكم ... أتت كلم وفق الصواب وأحرف
أوان سؤت والانسان تعروه عثرة ... فما زلت ذياك الذي أنت تعرف
أوان مسني التأديب فالسمرلا ترى ... لدانا إذا لم يعتورها المثقف
دعوني من ذكر الدنات وأقبلوا ... إليّ لدى خوض العلوم نتعرفوا

ويقول في قصيدة مماثلة على لسان التلميذ محمد بن ابراهيم الدفالي مشيرا إلى تألقه العلمي المتواصل بعزيمة لا تعرف معنى للتعب.

أطير إلى العليا بأجنحة البازي ... إذا ما جرى غير بأجرد فواز
أمر كخطف البرق ثمت أنثني ... وقد نلت ما بين الورى كل إعزاز
يظل أثير الجوفي نقل كل ما ... يصم صداه مسمعي كل غماز
ألست ابن ابراهيم يعرفني الورى ... بلاسمة أخرى وغيري كألغاز
ألم أك رب الفوز في كل مسبق ... ومن ذا أنا إن لم أكن جد فواز(11)

ويفيض في ذكر مفاخره العلمية التي تجعله متفوقا على أقرانه الذين يعترفون له بذلك، معبرين عن اعجابهم به، ثم يشير إلى أنه لم يقتنع بما حصله، بل هو عازم على مواصلة المزيد من هذا المنهل.

كذاك أنا يا قوم أظفر دائما ... إذا جلت في كل العلوم بإحراز
إلى أن تجلى بينكم ما ترونه ... قريضا كما يرني لدكان بزاز
على أنني ما إن قنعت بما أرى ... أيقنع يعبوب بسرعة نهاز
ولن يقنعني غير رتبة مفرد ... يرى عندها كل الصدور كأعجاز

وفي هذا النموذج جعل الشاعر تلميذه مثال النجابة والجد، والسعي نحو نيل المعالي، بعكس النموذج الأول الذي ختمه بأبيات يعترف فيها (التلميذ) بأنه لا يزال في بداية الطريق وأنه يصطدم بصعوبات يعمل على مواجهتها بصبر وثبات وعزيمة وإصرار حتى يصل إلى مبتغاه.

والشاعر في ذلك يراعى مستويات تلاميذه، وواقعهم الدراسي وهذا ما يتجلى في هذا النموذج :

(11) نفسه، وانظر الالفيات : 3 ــ 146.

فصاحبه ــ محمد البيضاوي ــ أتم حفظ القرآن الكريم، وهو إبن تسع سنين، فبهذه المناسبة وتخفيفا لوقع تأديب من أستاذه أحدث له جرحا في جبينه قال الشاعر على لسانه :

أرأيتم وقــد لمحتم جبينـــي كيف نورى يعشى لحاظ العيون
أتـلالا كزبرقـــان مطـــل غير أن الكسوف لا يعتريني
من يشحني ويكتنه كنه قدري يَكُ من سر رفعتي في يقين
قد حفظت القرآن عن ظهر قلبي وأنـا بعـد دون تسع سنين
فحويت الوحي الرطيب كأني أتلقاه من يدي جبرئين(12)

ويقول في تلميذ آخر ــ سعيد منو ــ في نفس المناسبة :

بحزمي وإقدامي وعزمي تقدمت إذا كنت لا أبتاع علقا فلا سمت
سمت إلى العرفان حتى وصلت في الـ ـمدارك ما يهدي إلي مثله السمت
نهدت إلى درسي بكل جلاذة تمهد لي إدراك ما كنت قد رمت
فوطىء لي بحر من العلم زاخر تطاوعني الأمواج فيه حتى عمت
أخوض على الدر الثمين فأنثني بما يبهر الألباب إن منه نظمت
وقد فزت في يومي بأسطع درة ألوح بها برقا خطوفا إذا شمت(13)

وتسير القصيدة مسهبة في سرد ما حصله التلميذ في سن مبكرة مخاطبا زملاءه بمفاخره العلمية، التي يضيفها إلى ما ورثه من مفاخر وأمجاد أسرته، ذلك أن أباه كان باشا مدينة مراكش في عهد كل من السلطان مولاي عبد العزيز، والسلطان مولاي عبد الحفيظ، زيادة على أن أفراد آخرين من أسرته هذه تولوا مناصب في السلطة. ومع ذلك فالتلميذ يلح على أنه لا يكتفي بهذا الارث، بل يريد أن يحقق لنفسه مجدا آخر أسمى، ذلك هو مجد العلم وشرف المعرفة، وهو مجد لن يتمتع به وحده فحسب، بل سيضاف ذلك إلى أمجاد أسرته الآنفة الذكر :

فما فخري فخر الجدود وإنما فخاري بما أحرزته يوم صممت
الافليزيـدن آل منـو لفخرهـم فخاري الذي شيدته يوم علمت
فإن نال منو بالحسام تقدما فبين طروسي واليراع تقـدمت

(12) ديوان الرميليات، وتوجد كذلك في الالفيات : 3 ــ 151.
(13) نفسه، وانظر الالفيات : 3 ــ 148.

وإن حاز منو بالبسالة مجده فبالدرس في عليا المجادة ألممت

وفي هذه القصائد ينحو (التلاميذ) مناحي شتى في افتخارهم بأنفسهم فهم أحيانا يتشبهون بمشاهير العلماء والأدباء كما يقول (التلميذ) عبد العزيز البزيوي، الذي يتعهد بأنه عازم على أن يتألق في الأدب ليخلد اسمه في التاريخ كما خلده عبد العزيز الفشتالي.

قولوا وسوف ترون عن مقالي كيف الفعال بقولة الفشتالي
جلتم ولكن حين أرسل بينكم خيلي العتقاق ترون كيف مجالي
قوموا إليّ وحدقوا بعيونكم كي تستبينوا من مقامي العالي
(عبد العزيز) أنا وسوف ترون من قلمي البليغ روائع «الفشتالي»
أبدي لكم وأعيد إن جالت يدي في نظم در قصيدة لتلالي(14)

وأحيانا يذهبون إلى القول بأنهم عازمون على خدمة شعبهم، مصممون على العمل من أجل النهوض بأمتهم حتى تقف في مصاف الدول الراقية، وهنا نجد الشاعر يستغل هذه القصائد للتعبير عن مشاعره الوطنية، والتزامه بقيامه بواجبه من أجله. وإيراده لها على ألسنة تلاميذه تحقيق لذلك الهدف الوطني المتجلى في غرس بذور التربية الوطنية الحقة في نفوسهم الغضة، وفتح عيونهم مبكرا على ما ينتظرهم من أعباء تحرير وطنهم حينما يصبحون شبانا قادرين على تحمل المسؤولية.

من هذه القصائد الوطنية التلميذية ــ في آن واحد ــ نورد مقطعا أنشده الشاعر على لسان تلميذه محمد بن عبد الله المعدري :

بليت فكنت الصارم الخذم العضبا وذقت فكنت البارد الشبم العذبا
وأجريت في الميدان مذكي كأنما سنابكه الاعصار في الجو قد هبا
وأقيت فوق النار لافحة اللظى فالفيت ياقوتا ولما يسم ثقبا

ويطيل في وصف (شجاعته) التي لا تضاهى ثم يختم القصيدة بهذين البيتين :

على أنني من بعد سوف ترون ما أقوم به في الشعب كي أنهض الشعبا
فلا كنت إن لم الفح الغرب نهضة تود لها اليابان لو صارت الغربا(15)

(14) نفسه، وانظر الالغيات : 3 ــ 154.

(15) نفسه، وانظر الالغيات : 3 ــ 155.

وفي نفس الموضوع يقول على لسان ابن أخيه محمد بن الحبيب :

أنا تلكم الشمس المطلة في الأفق　　أشع بنوري في المغارب والشرق
تفوقت حتى لم أجد متفوقا　　فأي مقام طالني بعد من فوق

ويختم الشاعر القصيدة بهذا المقطع، وهو صرخة تعبر عن مدى لوعة الشاعر، وهو يعمل جاهدا من أجل محو الوجود الاستعماري في البلاد :

سيعرف مني الخافقان مشهرا　　أحاديثه في الأرض والجو والافق
أنا ابن الحبيب الشهم فاصغوا لسيرتي　　إذا رد بي للشعب ما ضاع من حق
فلا صحبتني مهجة لا تذود عن　　شعوب طواها الجهل طيك للزق
ففي اليوم درس ثم في الغد وثبة　　لتحطيم ما للشعب من ربقة الرق(16)

وليست كل قصائد هذا القسم فخرية، تمجد ما حققه التلميذ من تقدم أو تفوق، بل تكون أحيانا على شكل «اعترافات» يذكر فيها التلاميذ العثرات التي وقعوا فيها، أو الانحرافات التي أقدموا عليها، فيتعهدون حينا بإصلاح ما فسد في سلوكهم، أو يشيرون إلى ذلك ويقفون عند ذلك الحد، وذلك حسب الحالة التي يراها الأستاذ /الشاعر، مناسبة لموقف التلميذ الذي قيلت القصيدة على لسانه.

فهذا تلميذ يدعى : الحسين الزنزمي الحاحي، سبق للشاعر أن قال فيه قصيدة فخرية على غرار النماذج التي أوردناها، بيد أن التلميذ أقدم على بيع أصل القصيدة المكتوب بخط أستاذه إلى أحد زملائه ــ ذلك أن الشاعر كان يحرص على تقديم تلك القصائد إلى تلاميذه مكتوبة بخطه كشهادة وتذكار منه إليهم ــ فقال الشاعر على لسانه :

قد كان لي مجد ولكنـــــي　　قد بعته في السوق بالقـرش
لِمَ يريد الصرح من يرتضي　　أن يزجي الحياة في النـعش
عنـــي بالدنيـــــا وزخرفهـــــا　　وما بها من أضرب الغش(17)

وتستمر القصيدة في سرد آراء التلميذ /الشاعر في الحياة ومباهجها برؤية فيها زهد وفيها إحجام عن مغريات الدنيا.

---

(16) نفسه، وانظر الالغيات : 3 ــ 164.

(17) ديوان الرميليات، وكناش الاستاذ إبراهيم بن أحمد مرشد السوسي (أحد تلاميذ الشاعر).
وانظر كذلك : شعر محمد المختار السوسي (الملحق 1) لكاتب هذا البحث ص : 510.

القسم الثاني :

أما القسم الثاني من قصائد الديوان فيتمثل في مجموعة من القصائد التي كان الشاعر يخاطب بها تلاميذه، وهي قصائد تسير على غرار قصائد القسم الأول سواء من حيث الموضوعات أو من حيث الأهداف.

ويمكن اعتبار الفرق الموجود بين القسمين، أن الشاعر في القصائد الأولى كان يتوجه إلى صغار التلاميذ فينظم القصائد على ألسنتهم مشجعا حينا ومعاتبا حينا آخر، وذلك في لغة «قاموسية» متينة تعمد فيها الشاعر تلقين تلاميذه رصيدا لغويا من شأنه أن يساعدهم على تعميق محصولهم في هذا الجانب، وبالتالي تيسير استعماله في حياتهم الدراسية. في حين أن قصائد القسم الثاني كانت تخاطب كبار التلاميذ تحقيقا لنفس الأهداف في مجال التشجيع والعتاب بصفة خاصة. إضافة إلى أن قسطا مهما من قصائد هذا القسم كان يصدر عن الشاعر جوابا عن أخرى كان تلاميذه /الشعراء يخاطبونه بها اعترافا بمخالفات ارتكبوها، أو توبة عن انحرافات انساقوا إليها، أو تمجيدا وتقديرا لجهوده التي كان يبذلها في مختلف الأنشطة الفكرية والاجتماعية والوطنية والتي يقوم فيها بأدوار أساسية.

وهكذا نجد في قصائد هذا القسم حث الشاعر لتلاميذه على العمل الجاد والهادف مشجعا إياهم على مواصلة بذل أقصى الجهود في سبيل طلب العلم، أو تكوين شخصياتهم خلقيا، ووطنيا، حتى ينشأوا رجالا صالحين مزودين بالاداة الفكرية التي ستجعلهم منتجين في مجتمعهم، قادرين على تحمل المسؤوليات القيادية في وطنهم. فكان يثني على كل من لمس فيهم خصلة حميدة، فيبرزها للتلاميذ الآخرين حتى يتخذوها قدوة، ساعين إلى التحلي بمثلها. ومقابل ذلك كان الشاعر يتوجه باللوم والتأنيب إلى من رأى فيه انحرافا عن الطريق القويم الذي كان يبذل أقصى الجهود لتوجيه تلاميذه إليه، معبرا عن خيبة أمله تارة، أو عن أمله في رجوع تلميذه إلى جادة الصواب تارة أخرى.

وكانت هذه القصائد تلقى ــ بدورها ــ في اللقاء الأدبي الأسبوعي الآنف الذكر.

فمن قصائده التشجيعية :

هذه الدالية التي خاطب بها ابن أخته محمد بن سعيد التناني حيث أبرز فيها

اعجابه بذكائه الحاد، الذي أهله للحصول على نتائج فائقة في طلبه للعلم، مما سيؤهله للحفاظ على مجد أسرته العلمي فأبوه عالم وأديب ومتصوف وأمه ـــ أخت الشاعر ـــ من بيت علم وأدب وتصوف كذلك :

محمـــــد بن سعيـــــد خير فتـــــى مستفيـــــد
تعلـــم العلـــم حتـــى جرى لشأو بعيـــــــد
فهـــو وإن كان طفـــلا كذى مقـــام عتيـــد
ذكاؤه في ازديـــــاد يقـــول هل من مزيـــد
فمـــن يكـــن جزلـــه من عائشة وسعيـــــــد
يصل مقـــام الثريـــا بجـــده والجـــدود
يحفظـــه اللـــه حتـــى يكـــون سعـــد السعـــود
فيهتـــــدي بهداه أهـــل الربـــا والوهـــود(18)

ونجد ما يماثل ذلك في هذه القصيدة التي خاطب بها تلميذه إبراهيم بن المحفوظ الأدوزي الذي ينتسب ـــ بدوره ـــ إلى بيت علم وأدب :

نظيرك من يحوي بهمته المجدا ويحيا بما فيه وحيد الورى فردا
فكم فيك من خلق لطيف كأنما يمس نسيم الصبح من روضه وردا
أتسكن هاتيك الجبال حقيقة وفيك سجايا من هم سكنوا نجدا
جمعت الطريف للتليد فمن يرى يكون لمن قد حاز ما حزته ندا
فلله در من نشأت لديهم بنشأة من يستعذبون العلا وردا(19)

ويخاطب تلاميذه أحيانا منوها، ومشجعا، لكن لا يغفل تنبيههم إلى ما يلمسه في سلوكهم من ثغرات. كقوله في (السعيد الورزازي) :

أنت السعيد ولن يكون سعيدا حتى تكون لما قرأت مفيدا(20)

2ـــ أما في قصائد العتاب :

فيجد الشاعر نفسه مضطرا إلى إبداء تخوفه عن مستقبل تلميذه العلمي : إما لانصرافه عن الدرس، أو لانشغاله بأمور لا تتفق وما يفرضه عليه طور التحصيل من

(18) ديوان الرميليات، وانظر الالغيات : 3 ـــ 164.
(19) ديوان الرميليات، وانظر المعسول : 5 ـــ 247.
(20) ديوان الرميليات، وانظر الالغيات : 3 ـــ 153.

الكد والجد. أو لميله إلى سلوك تحف به شكوك يخشى الشاعر أن يؤدي بتلميذه إلى الانحراف. فحينما يلمس شيئا من ذلك في أحد تلاميذه، يبادر إلى تنبيهه أو تأديبه، وحثه على التخلي عن سلوكه الطائش والرجوع إلى طريق الصواب، مبينا مخاطر السلوك غير السوي الذي سينحرف به إلى الهاوية داعيا تلميذه إلى الاتصال بما عهده فيه ـــ من قبل ـــ من استقامة واجتهاد قبل أن تفوته الفرصة.

ولعل أشهر قصيدة صدرت عن الشاعر في هذا الباب : ميمية تعد احدى مطولاته الشعرية بصفة عامة، فهي في تسع وسبعين بيتا.

خاطب الشاعر بهذه القصيدة تلميذه علي بن المعلم المراكشي(21) الذي «كان له يوم كان يأخذ من الرميلة مكانة ممتازة وإكباب عجيب ونجابة غريبة»(22) وتتكون القصيدة من أربعة أقسام أساسية، خصص الشاعر القسم الأول منها لذكر ماضي تلميذه حيث كان حريصا على طلب العلم مواظبا على ملازمة حلقات الدرس، واعيا بأهمية العمل الدراسي الذي أقبل عليه بكليته :

أسيرك هذا في غد أن تقدم فما هكذا أحجوك ياابن المعلم
فمنذ ثلاث كنت تعهد تابعا صوى العلم لا تمشي علي غير معلم
وتعرف ما قد كنت منتصبا له فقضيتها سيرا بنهج التعلـــم
وما حدت عن باب المعارف ساعة ومن يدر أن الباب يفتح يلزم
تواظب لا تدري التخلف والونى فإن عن من عسر تُصَمِّم فَتُقْدم(23)

ويسترسل الشاعر في ذكر صفات تلميذه النادرة : من نجابة، والتهام لكل ما يصادفه من فوائد، وقراءة متواصلة لأي كتاب يصادفه وشغف كبير بالادب وامتيازه على أقرانه بسرعة البديهة، وبذكائه الوقاد، وقدرته الفائقة على فهم أعوص المشاكل وحفظ أصعب القواعد، ثم ينتقل في القسم الثاني من القصيدة إلى وصف انصراف تلميذه عن العلم وانحرافه عن الجادة.

إذا بعلي قد تضعضع واختشى كأن لم يكن صوالة بمخذم

---

(21) أحد علماء مراكش البارزين كان محافظ خزانة ابن يوسف إلى عهد قريب، وهو الذي تولى تسيير مدرسة الرميلة سنة 1937 إثر نفي الشاعر عن مراكش، قبل إصدار سلطات الحماية قرارا بإغلاقها.

(22) المعسول : 16 ـــ 110.

(23) ديوان الرميليات، وانظر المعسول : 16 ـــ 110 ـــ 114.

سرت نحوه عدوى التخلف فانثنت قواصبه للفشل بل للتحطـــم
فمن بعد أن كان السبوق بجده غدا في توان وارتخا وتبرم
فها هو ذا يمسي ويصبح سابحا ببحر بطالات خضم غطمطم
تفقـد مرات فلا هو منـزوٍ على كتبـه في دارة للتفهـم
ولا هو عند المنتدين سوائنا على الدرس حتى يكتفي بالتوهم
يدور كمأخـوذ بمسة جنـــة جرت منه في أعصابه جرية الدم

وينتقل إلى سرد جملة من مظاهر تهاونه وإهماله وانصرافه عن أستاذه في القسم الثالث من القصيدة داعيا له بالهداية، حتى يعود إلى سابق عهده في الدراسة والتحصيل :

مظاهر تقضي أن صاحبنا على شفا جرف هار إذا لم يدعم
طوى رجله عنا كأن لم يكن له بنـا قبـل إلمام النزيـل المخيم
وينفض منا راحتيه صنيع من له قلب صلد في جوانب مخرم
ولكنه لا لاعد مناه ذو ذكا يقرض في الأغراض أن يتفهم

ثم ينتقل في القسم الأخير إلى توجيه النداء إليه بالاصغاء إلى نصح أستاذه الذي يحثه على العودة للارتواء من جديد من منابع العلوم، التي ستجعله قادرا على الوقوف مفتخرا على أقرانه، مدليا بعدد من الأمثلة الحية التي يأمل أن تؤثر فيه، حتى ينصرف عن كل ما من شأنه أن يؤدي به إلى الوقوع في الهاوية التي يوجد على حافتها :

أبا حسن مهلا لتسمع كلمة لديّ وأما شئت من بعد فاصرم
تريث قليلا واستمع لنصيحتي أليس بعار نبذ نصح المعلم
رويدك لا تغلط فأعظم غلة لمثلك أن يرتد بعد التقـدم

وبعد أن يبرهن له على أن ما حصله لحد الآن ليس بذي قيمة، وأنه إن لم يتم دراسته فسيعود إلى سالف عهده : جاهلا، بعد ذلك يذكره مرة أخرى بما كان عليه قبل اتصاله بمدرسة الرميلة، وبما صار عليه اليوم من تقدم يغبط عليه، محذرا إياه من مغبة نكران الجميل ونسيان ماضيه القريب :

نظيرك يا هذا أما نلت بعض ما يراد ألم تفقـه، ألم تتقـــدم
أتيت ولمّا تعرف الأرض من سما فها أنت ذا فلتنصفن إن تحكم
أما جئتنا صفرا فأبت موقرا قواعد توتي أكلها أن تعلـم

فأصبحت والمنات لله وحده لدى النشء بدرا مشرقا بين أنجم
أعيذك أن تغدو كقوم عهدتهم وديدنهم أن يكفروا كل أنعم
يفوهون بالالفاظ جوفاء ماها سوى لمعان ألآلِ في مقتلي ظمي
وما ذاك إلا أنهم لم يتمموا ومن يحتقر أعماله لا يتمم

ويختم قصيدته بمجموعة من المواعظ، والحكم تذكرنا بحكم زهير بن أبي سلمى في معلقته :

ومن لم يواظب حقبة بعد حقبة فهيهات أن يجني ثمار التعلم
ومن لم يهب للعلم كل حياته فلا يطعمن منه (بحبة) سمسم
ومن لم يخاطر في المعالي بنفسه فكيف يرى فيها له من تقدم
إذا كان ماء من قليب ولم تكن دلاء أترجو منه كرعك بالفم
فهذي كذكرى إن أصَخْتَ لها أست وإلا فقد أديت حق المعلم

وهذا النوع من الشعر كثير في رميلياته : شعر العتاب، والتأنيب، والدعوة للرجوع إلى سالف العهد في الكد والجد والمثابرة، فممن خوطب بهذا النوع : محمد بن ابراهيم الدفالي : قدم الشاعر لقصيدته في هذا التلميذ بقوله : «وخاطبته 1353هـ وقد رأيت منه بعض نكوص عن الدروس».

عجبا ومثلي من نكوصك يعجب فمتى حسبت بأن مثلك ينكب
من بعد أن حلقت في أوج العلا أصبحت والانسان قد يتقلب
من ذا يظنك في التواني هكذا أوَ مَا عهدت فتى يكب ويدأب
قد كنت معروفا بجد دائم ماذا جرى حتى رأيتك تلعب
قد كنت أطمع منك برقا ممطرا حتى تبين منك برق خلب(24)

وخاطب بمثل هذه القصيدة : مولاي الحسن بن السلطان مولاي عبد الحفيظ :

أبعد إذا ما شئت أو فاقرب فإنني ما حدث عن مذهبي
أهوى اللقاء وتنثني معرضا فلنسأل الناس عن المذنب
فيما مضى كنت ترافقني فكنت عندي البر عند الأب
تَغْشَى دروسي كل حين ومن يجد نمير الماء يستعذب
ثم هجرت مجلسي نائبا تباعد السليم عن أجرب

(24) نفسه، وانظر الالغيات : 4 ــ 147.

لم ترع لي حق الجوار ولا صداقة تعـز عن مطلبـي
سجية ما كنت أهلا لها كيف يرى الظلم من ابن النبي
لكنها خلائـــــق ربما تعرو ومن لا يتعد يجرب(25)

ويحذره أن يكون مصيره مصير صنوه الذي انقطع — هو أيضا — عن دروسه، ويذكرهما بأنه أخلص في تعليمهما وإرشادهما لكنهما لم يستغلا تلك الفرصة :

لو كنت أدري منكما رغبة في الجهل واللهو وفي الملعب
أو كنت أدري منكما رغبة عن الذي أورث خير أب
ما سمعت أذناكما من فمي هدايـة للـمنهج الا لحب
لكنني حسنت ظني ومـن لا يحترس في خطوه يعطب

3 — ويظل الشاعر في رملياته، ذلك الاستاذ المخلص في آداء رسالته التربوية والتعليمية، المتتبع لأحوال تلاميذه المطلع على أسرارهم ومشاكلهم، مشاركا إياهم في سرائهم وضرائهم، فيزور من مرض منهم، ويواسي من أصيب منهم بإحدى مكربات الحياة، فيعزي أو يواسي بقصيدة يضمنها مشاعره وعواطفه وأحاسيسه نحو تلميذه.

ومن هذه القصائد، ما قاله في مولاي الحسن بن مولاي عبد الحفيظ السالف الذكر وقد ألم به سقم فلم يتمكن من عيادته وواساه بقوله :

عوفيت كيما يعافى المجد والكرم فإنما أنت فينا المجد والكرم
لا كان يوم عدمنا منك فيه سنى يلتاح منه إذا جالستنا علم
يومان قد مضيا عنا ونحن على جمر الأسى يلتظي فينا ويضطرم
نأسى عليك كما تأسى نضائد قد شرفت منها وتأسى بعدك النعم

ويعبر في آخر القصيدة عن أسفه لعدم تمكنه من عيادته في فراش المرض بناء على تعليمات الطبيب، طالبا منه الاسراع بالاجابة عن كتابه حتى يطمئن على صحته.

قد كنت أنوي عيادات فحرمها أمر الطبيب وأمر الطب محترم
فناب عن خطواتي ما بعثت به ونعم ما يستنيب العاجز القلم
اقرا الكتاب وأرسل لي الجواب فلي شوق شديد لأدري هل مضى الألم(26)

(25) نفسه، وكناش الأستاذ إبراهيم بن أحمد مرشد السوسي (أحد تلاميذ الشاعر).
وانظر كذلك : شعر محمد المختار السوسي (الملحق 1) ص : 509. — لكاتب هذا البحث —
(26) ديوان الرمليات، وانظر الانغبات : 3 — 157.

وحينما تطول غيبة أحدهم، يبادر الشاعر إلى السؤال مستفسرا عن أخباره، مستطلعا عن أحواله، كقوله في تلميذه سالم الرحماني وذلك سنة 1352هـ (1933) :

كيف أنت وكيف حالك كيفا أنت عندي من أحسن الناس وصفا
أنت شهم والشهم يسبق في الميدان يجني الأثمار يقطف قطفا(27)

4 — وتصل فرحة الشاعر بتلاميذه إلى الأوج حينما يتوبون عما صدر منهم من انصراف عن الدرس، أو هجر للأستاذ وانقطاع عن مجالسه :

يعود التلميذ تائبا من ذنبه، نادما عما صدر منه من سوء التصرف، متعهدا بالتزام جادة الصواب، عازما على استكمال تعلمه، واستدراك ما فاته. فيستقبله أستاذه فرحا مبتهجا، راضيا عنه كل الرضا. كقوله في نفس التلميذ وقد بعث إليه رسالة استعطاف :

إلي فالهجران مني انقضى فاليوم أرضى عنك كل الرضا
قد عدت في عيني كما كنت في عهدك وضاح السنا أبيضا
رقيتني بالسحر مما وشت كفاك فارتد الذي قوضا
أرسلتها رسالة فذة قضت على العتاب كل القضا
فيها أنذا في اشتياق إلى الـ وصل كأن قد شب في الفضا
فقد غدا بعد فراقك لي قلبي بما أصليته مرمضا
فأسرع الخطو إلي فقد أشمتني برق الهنا مومضا(28)

ومن ذلك ما قاله في تلميذه محمد بن المدني «الذي اتصل بالاستاذ لما حل بمراكش فافتتح عنده دروس العربية فمشى فيها أشواطا، ثم اختاره الأستاذ للتعليم بالزاوية [...] فمضى على عمله هذا نحو ثلاث سنوات ثم انه اتصل ببعض سفلة الناس ،فانقلب على وجهه فصار يزلق زلقات متوالية لم تدع للأستاذ مجالا للصبر والاغضاء [...] ففصله عن التدريس وهو آسف على فراقه. ثم تقلبت به الأحوال من هنا وهناك حتى وصل الجزائر، فكتب إلى الاستاذ رسالة في جمادي الأولى 1355هـ (غشت 1934) يعتذر فيها بعبارات مؤثرة حارة عما فرط منه ويستغفر ويستسمح

(27) نفسه، وانظر الالغيات : 3 — 145.
(28) ديوان الرميليات، وانظر الالغيات : 3 — 145.

الاستاذ ويكثر من ذكر حياته مما صدر منه فأجابه الأستاذ في 11 /6/ 1355هـ بهذه القصيدة» : (29).

مهلا عليك فلست أول جان إن القضاء مقاود الانسان
من ذا الذي لم يجترح في عمره من ذا الذي مازل في الوخدان
ما من فتي إلا ويعلم ان جنى مما يزعزع جانبي ثهلان
من كل ذنب لو بدا للناس لم يسمع تقارفه سوى اللعان
لو كان للانسان أن لا يجتني من مأثم ما كان من عصيان

وبعد أن يسرد مجموعة من المواعظ، ينتقل لاستعراض ما يتصف به الشباب عادة من حيوية وجرأة، وسرعة انسياق وراء الاهواء، مما يوقعهم في مزالق وخيمة العواقب، ويوضح أن رحمة الله واسعة وأن العناية الربانية تحيط بكل من التجأ إلى الله تائبا ثم يخاطب تلميذه مؤكدا أنه بمثابة أبيه، وأنه شديد الغيرة على مصلحته، مما يجعله يتألم لما صدر من تلميذه من تصرفات كادت تلقي به في الهاوية، ويختم القصيدة بأبيات ذات مسحة دينية ووطنية :

أمحمد المدني لاتهلك أسى فالدين للخلاق لا للانسان
لا يذهبن بك الحياء مذهبا شتى إذا ما تبت للرحمان
قد كنت أغضب إذ مشيت تعسفا وإذا اهتديت تفوز بالرضوان
مالذنب ذنبي لا ولا التوبات لي الذنب والتوبات للديان
كم ذي صلاح أشرقت جنباته بالزهد والاحسان والايمان
قد كان فيما قد مضى من عمرة زير الحسان وحلف بنت الحان
لكنه مد تاب توبة صادق قد عوضت ما كان من حسران
وأشاح همته إلى نيل الرضى من ربه بتلاوة القرآن
ويذوذ عن أوطانه أعداءها فغدا بذلك سيد الاوطان
يارينا إنا وقفنا خشعا حسرى العيون نواكس الأذقان
فامنن علينا أجمعين بتوبة تضفي علينا حلة الغفران(30)

---

(29) كناش الأستاذ إبراهيم بن أحمد مرشد السوسي (مخطوط).
(30) ديوان الرميليات، وكناش الاستاذ إبراهيم بن أحمد، وانظر : شعر محمد المختار السوسي (الملحق 1) ص : 517.

5 ــ ومن أبرز ما تناوله الشاعر في هذا الموضوع من قصائد «الرميليات» .قصائد يرشد فيها الاستاذ تلاميذه الذين تصدر عنهم محاولات أدبية أولية، قد لا تخلو عادة من ثغرات، فيعمل الاستاذ على تنبيه تلميذه إلى ذلك وحثه على العمل للوصول إلى الهدف المنشود، وذلك بإرشاده إلى جوانب النقص في إنتاجه الأدبي مشجعا إياه ليستمر في صقل موهبته، وتقويم لسانه وقلمه حتى يحصل على النتيجة المرجوة.

من ذلك ما خاطب به تلميذه سالم الرحماني (في صفر 1355هـ أبريل 1936م) على إثر إنشاده «قطعة مختلفة الوزن في بعض أبياتها»(31)

أرى سالما لا يعرف المد والجزر ... ولا مدركا من بين أحجاره الدرا
يجيء إلى الاشعار كيما يصوغها ... فيخطيء في المعنى ويخترق البحرا
كمن ضل في الموماء بين هواجر ... محرقــــــة والآل يبهره بهرا
فيبقى شريدا قد تحير مادرى ... إلى أين في أثناء تيالك الصحرا
ومن لم يرض يعبوبه وحده فلا ... يسابق به والخيل في حلبه تجرى(32)

وألقى التلميذ نفسه «خطبة طنانة يوما في محفل وهي بإنشائه» فكتب عليها الاستاذ هذه الأبيات تشجيعا له :

كذا كذا فليخط النثر من كتبا ... وليبذل النصح للاخوان من خطبا
والعقل يظهر في شيئين رونقه ... في النطق إن قال أو في الكتب إن كتبا
من يحسن الشيء لا يعدم جوازيه ... هيهات يذهب سعي المحسنين هبا(34)

6 ــ ونختم الجوانب البارزة في قصائد القسم الثاني من «ديوان الرميليات» بهذا الجانب الذي يعد فيه الشاعر نفسه قد أدى الامانة، وبلغ الرسالة، حينما أينعت الثمار التي غرسها، وذلك ببلوغ المواهب الأدبية التي رعاها سنين عديدة إلى المكانة اللائقة بها في ميدان الشعر والأدب، وصارت تخاطب أستاذها ليس بقصائد أنشدها هو على ألسنة هذه المواهب، وإنما صارت تخاطبه بقصائد وهي وليدة قرائحها المشبعة بعلم وأفكار أستاذها.

---

(31) الالغيات : 3ـ 146.

(32) ديوان الرميليات، وانظر الالغيات : 3 ــ 146.

(33) ديوان الرميليات، وانظر الالغيات : 3 ــ 145.

(34) ديوان الرميليات، وانظر الالغيات : 3 ــ 145.

ويستمر الاستاذ في أداء رسالته على النهج المعهود فيه، فيبادل تلاميذه «الشعراء الناشئين» القصائد، وزنا بوزن، وقافية بقافية، وفكرة. دون أن ينحرف أو يكف عن إبداء النصح لهم في سلوكهم، وفي تألقهم في عالم الشعر مشجعا إياهم ــ كعادته في كل مناسبة ــ على عدم الاكتفاء بما وصلوا إليه، بل الواجب عليهم أن يواصلوا طلب المزيد.

نعرض من نماذج هذا الجانب في تليميذياته ما يلي :

1 ــ «في 4 /10 /1935م خاطب الأديب أحمد شوقي أستاذه [...] بهذه القصيدة الفذة يتوب فيها على أمور ألم بها مما لا يشذ عنه أي شاب، ويعلن له فيها أنه انقاد لنصحه الذي يلقيه عليه، وهذه القصيدة من مسهلات شعر الأديب شوقي، وقد أجرى فيها أستاذه قلم التحرير محافظا على روحها، ليعلمه كيف ينظم الكلام في مثل هذا المقام»(35).

رويدك يكفيني الذي دقت من مر		فلست اذا عاودت بالرجل الحر
متابا ومثلي من إذا زل يرعوي		ومن لا يسبل دونه سابغ الستر(36)

إلى آخرها وهي في 35 بيتا. «ثم أجابه أستاذه».

بإثمار نصحي أو بما قلت من شعر		بأيهما قلبي يرفرف في صدري
نصحت إذا بالجرح أجدى إساؤه		فجاء بديع-الشعر من أعظم الشكر
تطلبت بها منك خلة فشفعتها		بأخرى فيا بشراي بالرشد والشعر
ويافرحي إني ظفرت بشاعر		جديد بديه القول متقد الفكر(37)

ويستمر في ذكر محاسن قصيدة تلميذه، متفائلا بمستقبله في قرض الشعر، خاصة وأن هذه القصيدة أخذت بلب الاستاذ رغم أنها من أوليات التلميذ، ويذهب الأستاذ إلى أبعد من ذلك فيشبه تلميذه بالبحتري، وهو لا محالة سيفوق البحتري بعد طول ممارسته للشعر :

تقمصت روح البحتري فجئتنا		بآبدة تغدو بها شاعر القطر
إذا كان هذا في ابتداء فما ترى		إذا ازددت في الانشاء في مقبل العمر

---

(35) كناش الاستاذ إبراهيم بن أحمد مرشد السوسي (مخطوط).
(36) كناش الاستاذ إبراهيم بن أحمد مرشد السوسي (مخطوط).
(37) ديوان الرميليات، والكناش، وشعر محمد المختار السوسي ص : 511.

إذا كان هذا مستهلك مشرقا فكيف ترى من بعد في مطلع البدر

ويحثه في الأخير على مواصلة السير في درب الأدب والعلم حتى يحصل على النتائج المرجوة :

فدم للمعالي مثل ما تبتغيه من نظيرك عف النفس متزن السر
تواظب في نيل المعارف ساهرا وهل تخطب الغيد الحسان بلا مهر
فمثلك من يعطي المعارف عمره «إلى أن يرى كالبحر يزخر بالدر»

وخاطب الشاعر الناشيء «عرفة الفاسي» أستاذه قائلا :

بمثلكـم تزهـو البـلاد وتسعـد وتعلـــو علـــوا شامخا وتسود
وتخطو إلى العلياء خطوة فارس درى كيف للعلياء يوما يوطد
ألا أيها الاستـاذ إن بنـودكم ترفرف فوق الشعب والشعب يصعد
فها هو ذا الشعب العروف بقدركم سيمنحكـم عزا وذكـرا يمجـد
أمولاي إن المغرب الوطن الذي يفي بحقوق المجد حين يشيد
سيمنحكم تاج الامارة والعـلا فنحفظ ما أحييته فتسدد(38)

فأجابه الأستاذ بقصيدة يعبر فيها أولا عن خجله أمام الاطراء الذي صدر عن تلميذه، موضحا أنه لا يستحق كل ذلك المدح والثناء الواردين في القصيدة :

أمثلي بذيـاك البيـان يمجـــد ومن كنت حتى بالثناء أخلد
بأي فعـــال أستحـــق إشادة بقدري فيعلو لي على الناس مقعد
وأي يد قدمت للشعب وهو في كوارثه الشتى فتعرف لي اليد
وما ذا الذي ضحيت حتى يطيب لي ثنـاء بآيـات القـــريض يردد
أيبتاع من ذا ذوا عن الشعب مجدهم بخوضهـــم جلى تقيم وتقعـــد
أيمجد بالامعان في الذوذ باسل يشايعه السيف الصقيل المهند
وأرقى أنا عفوا ويقرع أخمصي مراتب عليـا بالخمـــول وأمجد
وأطمع بالاشعـار نيـل مكانـة تشرفنـي بين الملا وتسود(39)

ثم ينتقل الاستاذ ليبارك لتلميذه موهبته الشعرية التي نمت وتطورت مرتكزة على

(38) كناش الاستاذ إبراهيم بن أحمد مرشد السوسي وهي في 19 بيتا.
(39) ديوان الرميليات، والكناش، وانظر الالغيات : 3 — 161.

أسس فنية جعلت هذه القصيدة تقف في صف قصائد مشاهير الشعراء :

أيا ابن السعيد ذا قريضك أم به ... ألم الوليد وابن أوس وأحمد
فعهدي بما حبرته لا يجيده ... من الناس أملود نظيرك فرهد
أوحي جديد صرت تتلوه والسما ... تصيح وأعياد الملائك شهد
وإلا فمن أين أتيت بمعجز ... يقام له عند النشيد ويقعد

ويخاطبه تلميذه محمد بن سترة الآسفي بقصيدة مطلعها :

بأي عبارات أبرهن عن فكري ... فإني مأخوذ بما لك من فخر
أغوص وقعر البحر أعمق ما ترى ... فكيف إذا يأتي لدركم فكري(40)

فيجيبه أستاذه بقصيدة :

أفي كل يوم تستشيرون بالشعر ... وتهتاجون ما عنت عليه يد الدهر
وتمرون مني فكرة لا تبض أن ... مرتها يد إلا برشح من الدر
أجل كنت قبل اليوم أزعم أنني ... أجيد إذا ما مال فكري إلى الشعر
ولكنني في اليوم أعلن للورى ... بأن لست قبل اليوم غير فتى غر(41)

وبعد هذه المقدمة ينتقل ــ كعادته ــ إلى الاشادة بما وصل إليه تلميذه في توشية قصائد بديعة :

أخي الآسفي الشاعر الباهر الذي ... له وثبات الطرف في أبطح يجري
مِن أنى تعلمت البلاغة قل لنا ... أكنت بشام أم ببغداد أم مصر
وإلا فما هذا الخيال الذي أتى ... بما قلته بالأمس في ذلك الشعر
فقد سحرتنا منك نفثة شاعر ... درى كيف صوغ الحلي من خالص التبر
أهذا ولما يمض حول فكيف إن ... مضت سنوات في متابعة السير
كذاك النبوغ الآسفي فإنه ... يبيض نهارا بعد أن كان كالفجر

وتصل فرحته بنبوغ تلاميذه إلى الاوج حينما يراهم يتألقون في عالم الأدب والشعر خاصة و«جريا على عادته في إنهاض الهمم أردف قطعهم بهذه القصيدة [...] التي تظاهر فيها بأنه ألقى إليهم راية الشعر، تشجيعا لهم على ما أراد من استكمال

(40) ديوان الرميليات، والكناش.

(41) ديوان الرميليات، والكناش، وشعر محمد المختار السوسي ص : 515.

شاعريتهم وثناء على هممهم»(42).

إلى أين ذياك البيان الذي أدري ... فما هكذا عودت إن جئت للشعر
أأعجز عن بيت وحيد وقد أرى ... قصائد يتلوها على مسمعي غيري
وهذا مكان القول لو كنت قائلا ... ولكن كأني قد فكري من الصخر
أهيء قرطاسي وأشرع من فمي ... ولكن مربي لا يدر به فكري
كأن لم أقل شعرا كأن لم تجل علي ... سماواته روحي بأجنحة النسر

ويختم هذه القصيدة الطويلة ــ البالغة اثنين وسبعين بيتا ــ :

فها أنذا قسرا تسلم عندكم ... يدي وكذاك الشيخ يؤخذ بالقهر
وأحنو لكم رأسي وأطرق عندكم ... برغمي كذا الأقدار في سيرها تجري
هنيئا مريئا أيها النشء فامرحوا ... كما شئتم أعلين مرتفعي القدر
فما ضركم حدثان السن إذا انتحت ... بكم همم شماء للرتبة البكر
وأما نظيري فليقل رغم أنفه ... سلام على الدنيا سلام على الشعر(43)

* * *

وخلاصة القول في موضوع «الرميليات» التي كان الشاعر يخاطب بها تلاميذه أنها لا تختلف عن النوع الأول الذي كان ينشده على ألسنة تلاميذه، فمحورها الأساسي هو : الاصلاح، والاشاد، وتقويم الاعوجاج، وهو لا يترك أية فرصة أو مناسبة إلا واستغلها أيما استغلال لتحقيق ذلك الهدف التربوي التوجيهي.

والجوانب التي أشرنا إليها كمحاور لديوان الرميليات، لا تستهدف بها استقصاء جميع جزئيات الموضوع، بقدر ما نسعى من خلاله إلى محاولة لفت الانتباه إلى أن قصائد هذا الديوان جديرة بالقراءة، وبالدراسة المتأنية، بمنهج يستطيع أن يكشف لنا كثيرا من جوانب شخصية الشاعر في هذا الديوان، والأهداف التي من أجلها كان يوظف هذا النوع من القصائد التي يكاد ينفرد بها عن غيره من الشعراء المعاصرين له.

---

(42) الكناش.

(43) الديوان، والكناش ومشيخة الالغيين من الحواضر (للشاعر) وشعر محمد المختار السوسي ص : 512 - 515.

محمد المختار السوسي والشعر الأمازيغي

عمر أمرير

أولا ــ الشعر الأمازيغي

ا ــ أنواعه

وردت كلمات كثيرة في المصادر المكتوبة والشفوية، للدلالة على الشعر الأمازيغي، استطعنا أن نجمع منها ما يلي :

«تازرارت ــ تاماواشت ــ تاهواريت ــ تاجرويحت ــ تامداحت ــ تامسوست ــ آوال ن ايسوياس ــ آدراس ــ نضم ــ تانضامت ــ أورار ــ تاماريرت ــ آمارك ــ ايموريك ــ لهاوا ــ لغا ــ آقصيد ــ شيعر ــ لمعاني ــ ايزلي ــ عيلمولكرش ــ إيناد ايفرى ــ آسالاو ــ آشلحي ــ آمازيغ...»

من هذه الكلمات ما يدل على النوع الشعري، ومنها ما يدل على بنائه. في حين نجد من بينها ما يطلق فيتحدد الموضوع أو المناسبة، وطريقة الأداء...

ب ــ أوزانه

وللشعر الأمازيغي أوزان تسمى «**تاناناين**». وكل وزن يتكون من أجزاء تسمى «تالالايت». و«تالالايت» هذه جاءت من الاسم المذكر «آلالاي» من تكرار هذه الصيغة يتكون كل وزن. مثل هذا :

آلالاي لالاي لا د آلال لالال.

فالقسم الأول من هذا الوزن يضم «آلالاي لالاي لا». والقسم الثاني يتكون من

«آلال لالال». ويبقى حرف الدال. وهو حرف عطف أو اضافة في الأمازيغية. وذلك يعني أن الوزن السابق يتكون من الجزء الأول معطوفا عليه القسم الثاني. أو «آلالاي لالاي لا» مضافا إليها. «آلال لالال». فيصير الوزن كاملا :

ألالاء لالاي لا د آلال لالال.

والجدير بالذكر أن دراسة الأوزان الأمازيغية انجزت حولها أبحاث قيمة للاساتذة أحمد بزيد وجواد حسن، وعبد الله بونفور. وميريام أولسن.

ج ــ مضامينه

تتنوع مضامين الشعر الأمازيغي إلى حد نجد موضوعات الأغراض، والأنواع الشعرية أكثر تنوعاً وغزارة. ففي هذا الشعر أغراض الشعر الغنائي من غزل، وفخر، وهجاء... مع وجود غرضين بارزين، احدهما خاص ب «آتاي» ــ الشاي ــ وثانيهما خاص بالرحلات ويسمى ب «تاوادا». فغرض الأول وصف الشاي وجلسات اعداده ونكهته وتأثيره الساحر على الشاربين. أما غرض الثاني ــ تاوادا ــ فوصف البلاد والتضاريس والسكان وعاداتهم، وطرق عيشهم...

إضافة إلى الأغراض نجد موضوعات الشعر الحواري(1)، الذي يركز فيه الشعراء على تناول هموم الناس وخاصة علاقاتهم بالمسؤولين.

ولا ننسى في هذه العجالة موضوعات النوع القصصي بأقسامه الثلاثة : الحكايات الخارقة، والحكايات الخرافية، والحكايات الشعبية.

فمن الحكايات الخارقة نذكر الحكاية المشهورة باسم «حمو نامير» وتحكي قصة شاب من العالم الأرضي كتب عليه أن يعشق فتاة من السماء السابعة... ومن الحكايات الخرافية ما يحكى في قصائد طويلة عن «آييس داوراح» ــ الفرس والحمل ــ أو «آغانيم داوليلي» ــ أي القصب والدفلى... وغيرها كثير. أما الحكايات الشعبية فهي لا تعد ولا تحصى، لأنها تتخذ كل حدث موضوعاً مشوقاً لها. وسأذكر فقط حكاية بعنوان «سيدنا عمر د خمسا أوخمسين ن شباب». أي سيدنا عمر مع خمس وخمسين من الشباب المسلم...

---

(1) الشعر الذي يكون حواراً بين شاعرين أو أكثر في رقصة «أحواش».

ثانيا ــ محمد المختار السوسي والشعر الأمازيغي

ا ــ تذوقه وحفظه

رغم أن محمد المختار السوسي لم ينشر كتابا خاصا بالتراث الأمازيغي. فإنه في مؤلفاته المطبوعة يأتي بإشارات نفهم منها أنه كان يتذوق الشعر الأمازيغي ويحفظه، ويبحث عنه، ويجمعه...

فمن الاشارات إلى حفظه ما نجده في حديثه عن الفقيه سيدي الحسن الزيكي وزيارته له، فقال عن نفسه «... حفظت منه أنا حين مررت به...» ثم ذكر البيتين المحفوظين :

«آمر بي أور ايرحم أوهو اولامات ايتينين
ايفلتيد كار آمود أرت ايتيني واياض»

وذيل السوسي البيتين بتعريبهما هكذا «لا رحم الله «لا» ــ يعني كلمة لا ــ ولا من يقولها، أحدثها الأنذال الأراذل، فصارت يروجها الأنذال الاراذل...»

ولما كان محمد المختار متذوقا لهذا الشعر، فإنه بادر معتذرا للقراء قائلا : «هذه ترجمة المعنى وأما حلاوة الألفاظ فكيف يمكن أن تترجم»(2).

ومن الأبيات التي يحفظها السوسي، ويكررها في كتاب الترياق المداوي، وسننقله عنه حينما أورده على لسان والده، وهو يوصي مريديه مؤكدا لهم أن «من يتردد... لاينال شيئا، ولا يحصل على نقير، ثم ينشد قول الشلحي :

أبو ساوساو أور ايكير تيلي منعانين

ويوضح محمد المختار معنى البيت بقوله : «ان من كان ديدنه التردد، ويقول لا أدري، هل أدرك هذا ؟ ويشك في ادراكه، ولا يعزم، ولا ينهض بالهمة إلى ادراكه لايدرك المعالي، ولا المراتب التي تمتنع عن امثاله»(3).

إضافة إلى هذه الاشارات نلاحظ أحيانا أن محمد المختار يكتب تعريب ما سمعه

---

(2) المعسول ج 15 ص 170 ــ 171.
(3) الترياق المداوي ص 110.

بالأمازيغية، دون أن يستغني عن البيت الشعري الأمازيغي، بل يدونه كما سمعه، ثم يلحقه بتعريبه.

يتجلى هذا حينما يروي ما حدث لسيدي سعيد الشريف إذ «يحكى أنه خرج مرة ليلا إلى ساحة المدرسة، فوجد تلاميذه جالسين يسمرون فيما بينهم، فقال لهم : ألا نزور هؤلاء الناس، لنرى ما يقولون، فخرج مع تلاميذه حتى قرب من المعلب(4) فوقفوا يتشبتون فيما يقوله منشد(5)الملعب، فسمعوه يقول :

ايان ايخصاكرا دين آغ تين ايفل

وأورد السوسي معنى البيت ـــ كعادته ـــ قائلا : «من أحس من نفسه بنقص من الأخلاق والطمأنينة، فإنما ذلك من التفريط في الديانة». وتابع المؤلف الحكاية ليفهمنا أن سيدي سعيد الشريف قال لتلاميذه : «كفتنا هذه، فارجعوا، فإن كل ما ينقصنا من الأخلاق والافهام، انما ذلك بقدر نقص ديانتنا»(6).

وفي المعسول كذلك وردت، اشارة نفهم منها كون محمد المختار يسمع الشعر الأمازيغي حينما يصادف علما من أعلامه، فقد قال عن نفسه : «سمعت يوما من ابن غيل الشاعر الشلحي الأقاوي المفوه، قصيدة شلحية بليغة في الواقعة التي كانت عام 1291هـ بين الجراري وسيدي الحسين بن هاشم...» ويختم بإشارة تؤكد لنا تذوقه واعجابه بهذا الشاعر وشعره. فقال عن نفسه : «فإذا بي اشده بتصوير ذلك وترتيب وقائعه...»(7).

ونعتقد أن محمد المختار السوسي لم يقتصر على حفظ بعض الأبيات وحسب، بل قد يحفظ أجزاء بعض المطولات عن ظهر قلب، إن لم يكن يستظهرها كاملة. ففي الصفحة 101 من كتابه خلال جزولة ما يدل على أنه يحفظ من مطولة «تاوادا» لسيدي حمو الطالب (ت حوالي 1203هـ) فبينما كان السوسي يصف احساسه الغريب خلال سيره في ملتقى أودية معروفة باللصوص تذكر بيتين قالهما سيدي حمو في اشتهار ذلك المكان بقطاع الطرق :

---

(4) يقصد الساحة التي يرقصون فيها.

(5) يقصد الشاعر.

(6) المعسول.

(7) سوس العالمة ط 1 ص 232.

أور ساركيغ آقا د لقبلت مادلّيغ
آشكون ايلاكيس : ترك لكسوت اوكف آشلح

وكعادته، عرب معناهما هكذا «اني لا أسلك أبدا «آقا». ومساكن أهل «القبلة» لأن فيه : اترك الكسوة وقف أيها الشلحي»

وفي هذا الصدد نجد في الصفحة 261 من كتابه «ايليغ قديما وحديثا» يورد ثمانية أبيات من قصيدة طويلة أولها :

موحماد بو لانوار صالات عليك أرسول
ايعزاك لباري تاعلا ايمقور شان نكي

...

وبعد إيراده البيت الثامن يتوقف مشيرا إلى أنها قصيدة «...طويلة يقول فيها [الشاعر] ان الله قد سخر له النظم كما سخره للبوصيري في البردة والهمزية، وقد كان عامة السوسيين يحفظونها خصوصا أصحاب الطرق الصوفية» ومحمد المختار الدرقاوي الطريقة يضيف قائلا عن اهتمام الناس بالقصيدة المعنية : «وقد أدركنا الوعاظ في الأسواق والمواسم يجمعون الناس بها وإليها.» فهذه الجملة تعبر بعفوية عن الجو الذي يساعد المؤلف على حفظ اجزاء من المطولات إن لم يحفظها كلها عن ظهر قلب كغيره من السوسيين يومئذ.

ومن تعابير محمد المختار التي تعكس نوعا من الحفظ أو السماع نماذج شعرية، ذكره مجمل قصيدة لشاعر من قبيلة إيدا اوزكري يمدح بها الحاج علي الدرقاوي، والد محمد المختار بكونه «... لايشتغل إلا في الدعوة إلى الله، فتشهد له الطرقات التي كان يجوبها ذهابا وايابا، وتشهد له الأجيال والأشجار التي كانت تسمع ذكره وذكر أصحابه في الفلوات في قصيدة طويلة متضمنة أوصاف الشيخ الصادقة».

ونجد تعبيرا صريحا وعفويا، نستشف منه كون محمد المختار يحفظ الشعر الامازيغي منذ طفولته بدءا بالمرددات إلى الشعر وأنواعه، فقد صرّح بما يفيد ذلك عند حديثه عن نفسه بعد ما صار مؤلفا بالعربية فقال : «... أصبحت عربيا مبينا... مع أني شلحي قح درج في بيئة لا تمت إلى العربية إلا بالايمان بالنبي العربي... أجول في مجالات من تسلسلوا من أبناء (تهامة) و(نجد) ومضغوا الشيح والقيصوم بين جبلي (نعمان) أشعر بشعورهم، وأرتاح إلى نفحات اشعارهم، والجولات في ميادين نثرهم.

فكان الخليل بن أحمد... والاصمعي وأبا عبيدة أمت إلي من **سيدي حمو الطالب** الشاعر الشلحي، وصنوه الشاعر **ابن غيل** الأقاوي...»(8).

ب ــ اهتمامه بالادب الأمازيغي عامة

ومن إشارات محمد المختار السوسي مايؤكد أنه كان يهتم بالمخطوطات الأمازيغية، يصف أشكالها، ويوجز مضامينها، ويذكر حتى أماكن العثور عليها أحيانا... ولولا تلك الاشارات لصعب علينا اليوم أن نعرف بعض الأعمال التي مُزغت(9) مثل : السيرة النبوية التي مزغت في مجلدين(10)، وتمزيغ الحكم العطائية نظما(11). ووجود الأمير الشلحي، وهو سفر ضخم مزغه والد محمد المختار وفيه ربع العبادات من مجموع الأمير المصري. وتمزيغ رياض الصالحين لليافعي(12)، وتمزيغ نور اليقين في مجلدين(13).

ولم يبق محمد المختار في دائرة الأخبار والحفظ والاهتمام، بالادب الأمازيغي، بل تجاوز ذلك إلى مجال التمزيغ. اذ ترجم الأحاديث النبوية وقد حاول دراسة اللغة الامازيغية ذاتها فنشر عنها مقالة في «اللسان العربي».

أما تأليفه بالامازيغية، فيشمل أحاديث اذاعية تجاوزت التسعين حلقة. مما يذاع إلى الآن في ليالي رمضان.

ج ــ طريقة محمد المختار في التدوين

ولعل ذلك الاهتمام وتلك الممارسة مما جعل أستاذنا الجليل يجتهد بدوره فيقترح طريقة لكتابة النصوص الأمازيغية، ونحن نعرف أن التدوين يعتبر احدى عقبات البحث والدراسة في الأمازيغيات. ونعرف كذلك أن الشعر كتب بطرق مختلفة وبالحروف العربية واللاتينية، بل هناك بعض النصوص المكتوبة بالحروف الأمازيغية القديمة، المعروفة ب «تيفيناغ». إلا أن البحوث العربيّة حول الأمازيغية المقدمة لنيل

(8) الالغيات ج 2 ص 209.

(9) فعله نحتته من الأمازيغية، وأقصد به : الترجمة من باقي اللغات إلى الأمازيغية. وأطلق على غير المغاربة كلمة «المستمزغين» وأقصد بها الأجانب الذين درسوا الأمزيغية...

(10) المعسول ج 2 ص 267.

(11) نفس المصدر 311.

(12) نفس المصدر ص 41.

(13) الترياق المداوي.

شهادات من الجامعات المغربية... وكذلك المؤلفات التي صدرت منذ بداية العقد السابع من هذا القرن، جلها يشير إلى اعتماد الطريقة المنسوبة لدورية «أراتن» في تدوين النصوص الأمازيغية. وطريقة «أراتن» هذه تجعل الألف مكان الفتحة والواو مكان الضمة والياء مكان الكسرة. وكل حرف ليس أمامه ألف أو واو أو ياء فإنه مسكن... كما أدخلت بعض النقط والاشارات على بعض الحروف لتعطي النطق الأمازيغي السليم. وطريقة أراتن لم تظهر إلا بعد وفاة محمد المختار بأزيد من عشر سنوات.

وبرجوعنا إلى مؤلفات محمد المختار نجد فيها الأسماء الأمازيغية تكتب بطريقة خصص لها المؤلف صفحة في مقدمة الجزء الأول من المعسول بعنوان «بيان» يؤكد فيه أن «غالب الاعلام في لغة الشلحة لا ينطق بها كما هي عند أهلها إلا مضبوطة مشكولة»، وبعد طرح الاشكالية يبدأ في وصف الطريقة التي يقترحها فيقول : «اجعل الألف مكان الفتحة والواو مكان الضمة والياء مكان الكسرة. وكل حرف ليس أمامه ألف أو واو أو ياء، فإنه مسكن». وهذه هي الطريقة التي تنسب إلى دورية «أراتن». ولا فرق بين الطريقتين إلا في كون محمد المختار السوسي يكتب بها أسماء الأماكن دون الشعر. بينما دورية «أراتن» تكتب بنفس الطريقة كل نص أمازيغي شعرا أو نثرا... أما الريادة فلمحمد المختار المتوفى قبل تسمية طريقته باسم دورية «آراتن»(14) التي ظهرت بعد وفاة السوسي بأزيد من عشر سنوات.

---

(14) «آراتن» اسم دورية كانت تصدر عن الجمعية المغربية للبحث والتبادل الثقافي بالرباط.

ثالثا ــ مؤلفات محمد المختار والشعر الأمازيغي

ا ــ تكامل الخبر والنص الشعري

نجد محمد المختار قد يكتفي بسرد أخبار احدى الوقائع، وقد نجد الشعر الأمازيغي يصف التأثير النفسي للحدث ذاته. وبجمع الخبر المدون، والنص الشعري الوجداني نحصل على وثيقة غنية حول الحدث المدروس.

ومن هذا القبيل احداث معركة «ايت باها» التي نجد محمد المختار يصف ظروفها وأبطالها ومصيرهم بينما نجد قصيدة أمازيغية يركز فيها الشاعر على وصف الحالة النفسية للأهالي، وقد بلغ القمة حينما ذكر نساء شهداء المعركة، وما صرن عليه من ترمل وبكاء وأرق، إلى حد يتوضأن بدموعهن لصلاة الفجر :

ايمطاون آسا توضانت ابغ ايفاو كال(15)

أي :

أرامل يتوضأن لصلاة الفجر بدمعهن الهتون

ب ــ النص الشعري وظروفه

وهناك قصيدة تعتبر من الحكايات الشعبية التي كنا نسمعها ونحفظها في الطفولة، باسم «يامنا منصور» أي «أمينة منصور». وهي قصيدة مشوقة للغاية. ولكن لانعرف عنها أي شيء. بينما نجد اشارة عند محمد المختار رغم اختصارها فقد تساعد الباحث على التوسع في دراسة تلك الحكاية، التي عرفها السوسي بكونها «قصيدة في مجادلات بين أحد باشاوات تارودانت وبين أحد شيوخ إحدى القبائل المجاورة يذكر فيها [الشاعر] علاقة غرامية مع بنت ذلك الشيخ، وما جرى حولها»(16).

وفي هذا المجال نجد الناس يحفظون بعض النصوص دون أن يعرفوا أسباب نظمها، بينما نجد بعض مؤلفات السوسي قد تذكر الظروف دون أن تورد النص الأمازيغي ومن

---

(15) أحمد أمزال. أمانار.

(16) سوس العالمة ط 1 ص 232.

غير أن نشير إلى وجوده. فإذا قمنا بعملية الجمع بين الظروف والنصوص. نجد أمامنا وثيقة مهمة تفيد الدراسين.

ومن هذا النموذج نذكر قصيدة يحفظها الناس بعنوان «علي أمنصاك»، أي علي المنصاكي. دون أن يعرفوا ظروف النص، في حين نجد محمد المختار يذكر بدوره أن «هناك قصيدة شلحية، يصف فيها قائلها كيف خرب محمد بن علي المنصاكي مدينة تامدولت ورغم قصر هذه الاشارة، فإنها تعتبر مفتاحا يمكن أن يحل الكثير من رموز تلك القصيدة، وخاصة حينما نقرأ عن مدينة تامدولت التي قد يعود بناؤها إلى عهد الأدارسة.

ج ــ الرواية الشفوية ومؤلفات السوسي ــ سيدي حمو كنموذج

إن شهرة الشاعر سيدي حمو الطالب، جعلت بعض الكتاب يبحثون له عن الشبيه من بين الشعراء المرموقين في تاريخ الأدب، قصد اقناع قرائهم بمكانة هذا الشاعر.

فهذا «الدكتور شتوم»الألماني يقول عن هذا الشاعر، انه يشبه حقا في مضمار الشعر زملاءه العرب أمثال سيدي أحمد بن يوسف، وسيدي عبد الرحمان المجذوب.

وهذا «هيكتور بول» يقول : ان للقبائليين في الجزائر شاعرهم «سي موحاند» وأن للسوسين في المغرب شاعرهم سيدي حمو... وكلا الشاعرين في رأي «هيكتور بول»ــ علم من اعلام الشعر ــ.

أما في مخطوطة «العدل» فقد شبه سيدي حمو بامرىء القيس، بينما في مخطوطه الباعقيلي يرد ما يفيد أنه كما اشتهر امرؤ القيس والنابغة الذبياني عند العرب كذلك اشتهر سيدي حمو عند الأمازيغ.

وبعد هؤلاء جميعا ينطلق الكاتب الفرنسي «هـ.دولير» فيلاحظ أن نسبة العدد العديد من الشعر إلى سيدي حمو هو دليل على أنه كان شاعراً عظيما، مما يجعل بالنا يخطر به الشاعر «هوميروس».

وقد ترجم شعر سيدي حمو إلى الألمانية في عملين قبل هذا القرن، وإلى الأنجليزية في ثلاث كتب أوائل القرن العشرين، وإلى الفرنسية في أزيد من عشر كتب... ورغم كل ذلك، لم تحظ حياة الشاعر باهتمام الباحثين، فإذا بنا نجدهم لا يتفقون على

اعتباره من عصر معين، فبعضهم يعتبره من القرن الخامس عشر الميلادي، وبعض آخر يعتقد أنه من القرن السادس عشر، أو السابع عشر. في حين هناك من يجعله من شعراء الثامن عشر. بل هناك من يظن أن سيدي حمو كان حيا في القرن التاسع عشر.

فكما لم يتفق اولئك الكتاب على تحديد عصر الشاعر، فإنهم لم يتفقوا على مكان ولادته، وبالتالي لم يذكروا أي شيء عن نشأته.

فلما قمنا بدراسة ميدانية خاصة بهذا الشاعر، وجدناه على كل لسان، وأنه لا يذكر شعر، إلا بعد الترحم عليه بالبيت المشهور :

ايرحمك آسيدي حمو الطالب اينا ايكلين

أي :

يرحمك الله ياسيدي حمو الطالب الفقير القائل :

ثم يذكرون شعره بعد ذلك... وفي هذه الدراسة الميدانية حددنا مكان ولادته غير أننا لا حظنا ثلاث ملاحظات أساسية أولها أن اسم الرجل «حمو» لم يذكر إلا مسبوقا بكلمة «سيدي». وثانيها أنه يميز دائما بكونه «طالب». وثالثهما أنه تلميذ سيدي حسين الشرحبيلي.

وبالرجوع إلى مؤلفات السوسي نجد معلومات دقيقة عن كلمة «سيدي» التي لم تدخل إلى سوس إلا في فترة معينة، وأنها لا تطلق إلا على العلماء والصالحين. كما نجد كلمة «الطالب» وما تعنيه ثقافة وسنا وفئة إجتماعية. ضافة إلى كل ذلك نجد في المعسول ترجمة اضافية لسيدي حسين الشرحبيلي الذي اتفقت كل الروايات الشفوية على أنه استاذ سيدي حمو.

وباختصار شديد، فإن التكامل بين الروايات الشفوية الميدانية، والمعلومات التاريخية في مؤلفات محمد المختار مما يساعدنا على الوصول إلى جعل الشاعر سيدي حمو الطالب من النصف الأخير للقرن الثاني عشر الهجري، وأنه عالم حسب مصطلح «الطالب» في ذلك العصر، وأنه شيخ في الطريقة الناصرية إضافة إلى كونه يعتبر علما بارزا في الشعر الامازيغي خلال ثلاث قرون من الزمن تقريبا.

الوجه الآخر لمؤلفات محمد المختار

كثر اهتمام الأجانب بالأدب الأمازيغي عامة، وبالشعر خاصة منذ أواسط القرن التاسع عشر وكان لدول أوروبية باحثون متخصصون في ذلك. فمن ألمانيا سبق أن ذكرنا الدكتور شتوم الذي كان مهتما بالشعر والشعراء الأمازيغ، منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى بداية القرن العشرين، حيث برز بعده الجندي والدبلوماسي الانجليزي «جونصون» ليهتم بالشعر طوال العقد الأول من القرن العشرين. وبمجرد اعلان الحماية تصدر العقيد «جيستنار» عددا من المستمزغين الفرنسيين. وقد نشط هذا العقيد في ميادين الجمع والترجمة والدراسة والنشر زهاء نصف قرن نشر خلالها عن سوس أزيد من عشرين بحثا.

إن مؤلفات محمد المختار السوسي، ومؤلفات جيستنار تؤكد أن كل واحد منهما يعرف الآخر معرفة دقيقة، وأن هذه المعرفة يفرضها ولا شك اهتمامهما معا بمنطقة سوس. وبديهي كذلك القول بأن كل واحد منهما يعرف أن الآخر يعمل لصالح دولته... ومن هنا ندرك القيمة الوطنية لمؤلفات السوسي. وبتعبير أدق : ان محمد المختار السوسي قاوم مقاومة فكرية مثالية، امام غزو جيستنار وغيره ممن لهم امكانيات مادية ومعنوية خارقة، في حين لا نجد مع محمد المختار السوسي إلا إيمانه بمقدسات وطنه.

عمر امرير

مشروع وضع خرائط وفهارس لكتاب المعسول

عمر أفا
كلية الآداب ـــ الرباط

يستهدف هذا المشروع ـــ الذي بدأته منذ سنة 1979 ـــ إيجاد مجموعة من الخرائط التوضيحية للجوانب المختلفة ـــ الاجتماعية والفكرية والاقتصادية ـــ التي تناولها كتاب المعسول للعلامة الاستاذ محمد المختار السوسي، هذا الكتاب الذي يعد بحق موسوعة ضخمة عن تاريخ سوس ورجالاتها بل عن تاريخ المغرب بصفة عامة.

ولقد سعيت إلى هذا المشروع على غرار ما كان السعي إليه من إيجاد فهارس ترمي لفك مغالق هذه الموسوعة، اذ لا يمكن لباحث أن يقف أمام هذا العمل وهو من عشرين جزءاً دون أن يحس بحاجة ملحة إلى فهارس يتوسل بها إلى تناول مواده التي لا يمكن التحكم فيها بدون تلك الفهارس، وفي هذا المستوى نفسه تأتي ضرورة وضع خرائط يهتدي بها الباحث إلى تحديد المواقع الصحيحة لكثير من الاماكن وإلى مواطن استقرار القبائل، ومواقع المداشر، والدواوير، والزوايا، والمدارس والأسواق وغيرها.

ولاشك أن إنجاز مثل هذه الفهارس والخرائط يحتاج إلى تظافر الجهود وتكاثفها حتى تأتي في مستوى حجم واهمية هذه الموسوعة، وان مجموع الطموحات العريضة التي تستهدف تحقيق هذا الانجاز لا تعدو أن تكون ـــ حتى الآن ـــ سوى مجرد بدايات متواضعة ومحاولات أولية.

ومن ضمن هذه المحاولات ما قامت به جمعية علماء سوس بتارودانت في أواخر الستينات حينما اسندت مهمة انجاز فهارس عامة لكتاب المعسول لمجموعة من أعضائها الباحثين، وحتى أواخر السبعينات مازلنا ننتظر ما سيسفر عنه عمل الجمعية

للاستعانة به في مشروعنا، غير أننا لم نعثر إلا على فهرس للاسر السوسية المذكورة في المعسول والذي أسند القيام به للمرحوم الاستاذ مرادي عبد الحميد الباعمراني، وهو فهرس أولي ولكنه مفيد(1).

ويمكن أن ندخل في اطار إيجاد فهرسة للمعسول، ذلك العمل الذي يشرف على انجازه ـمنذ 1978ـ الاستاذان : بابر يوهانسن وجميل أبو النصر من جامعة برلين الحرة، حيث وقع اعتماد المعسول لتمثيل بادية المغرب ضمن مشروع عام «لدراسة المؤسسات الدينية في المجتمع المغربي» (المغرب وتونس والجزائر) بهدف الاجابة عن ماهي الأدوار التي لعبتها المؤسسات الدينية في المجتمع المغربي وكيفية ارتباط الفكر الديني والوعي الاجتماعي والسياسي بتطور هذا المجتمع(2) وان تصدى المشروع لاستخراج هذه العناصر من المعسول يفيد في وضع فهرس عام له.

ونذكر من بين هذه المحاولات الأولية، اهتمام بعض بحوث السنة الرابعة من شعبة التاريخ بكلية الآداب بالرباط التي اشرف عليها الاستاذ أحمد التوفيق (1977 و1978) باستخراج بعض الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية والسياسية(3) ووضع خريطة للمواقع التاريخية الواردة في المعسول(4).

وبهذا الاعتبار فلم تنجز بعد فهارس كاملة أو مجموعة من الخرائط الخاصة بالمعسول أو غيره من أعمال المختار السوسي، وأما الفهارس التي ألحقها المؤلف بكل جزء فيضطر معها الباحث للرجوع إلى كل جزء على حدة ولا يخفى ما في ذلك من عنت زيادة على ما تحتاج إليه من دقة.

وليست الخريطة التي نقدمها هنا سوى بداية للمشروع وقد استخرجناها من التصور الذي وضعه المؤلف كوصف جغرافي لقرية (إيلغ) وضواحيها في الجزء الأول من المعسول(5) وتوخينا ابراز أغلب المعالم الجغرافية والبشرية لتلك القرية، ولذلك وضعنا الخريطة بمقياس : 100.000 /1 وبحجم : 27 x 47 سم. مركزين على

---

(1) أمدّنا الأستاذ عبد الحميد بنسخة من ذلك الفهرس سنة 1982 وذلك قبل سنة من وفاته رحمه الله.

(2) من رسالة خاصة بعث بها يوهانسن في ماي 1978.

(3) بحوث الطلبة المسجلة في شعبة التاريخ تحت الأرقام : 137 و146 و158 و170 و172.

(4) بحث رقم 288.

(5) السوسي محمد المختار ـــ المعسول ـــ، مطبعة النجاح، الدار البيضاء 1960 ج 1 ص 25 ـــ 26.

زاوية (إيلغ) بايت عبد الله أو سعيد وما يحيط بها من القبائل خاصة : أمانوز، وإيغشان، وإيداوسملال، وأيت وافقا، وأيت ايمجاط، وإيسموكن، مع الاعتناء بتوطين التجمعات السكنية (المداشر والدواوير) في كل قبيلة بكيفية مفصلة، وإلى جانب هذه التفاصيل، وضعنا توضيحا مجملا لتلك القبائل، وبيّنا موقع ايلغ من خريطة المغرب كما رمزنا إلى شمولية الرؤيا التاريخية من كتاب المعسول بامتدادات اشعاعية نحو مختلف أنحاء البلاد.

وان هذا النوع من الوسائل العلمية ستسهم — ولاريب — في الاستفادة من هذه الموسوعة المهمة خاصة من طرف الطلبة الباحثين، ولذلك تدعو الحاجة إلى الاسراع بانجازها.

الفهرس